

A

956.9203

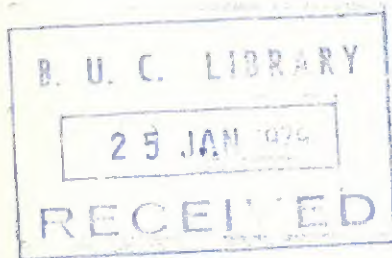
S641h

c.2

إ. سيليانسكايا

الحركات الفلاحية في ليتوانيا

النصف الأول من القرن التاسع عشر



تعريب : عدنان جاموس
راجعته وقدم له : سالم يوسف

تشكل الدراسات التاريخية ، ميدانا هاما من ميادين الصراع الايديولوجي ، وتزداد أهمية هذا الميدان في بلادنا بسبب التركيبة الاضافية التي خلفتها عهود السيطرة الاستعمارية بما فيها أشكالها الجديدة .

ففي دراسة التاريخ يلجّ البرجوازيون على ضرورة تجرّد المؤرخ ، كي لا يؤدي « عدم تجرده » الى « تشويه » التاريخ سردا واستنتاجات ، وهم يسهبون في تعداد قواعد « التجرد » و « الموضوعية » ، بما فيها ابتعاد المؤرخ عن أية أفكار مسبقة أو استنتاجات جاهزة ، وكذلك ابتعاده عن مسرح الاحداث زمنيا وأحيانا مكانيا ..

بهذه الحجة يضع المؤرخون البرجوازيون قناعا يخفي ، في وهمهم ، موقعهم الطبقي فيأتي ترتيبهم وتصنيفهم للاحداث تشويها للتاريخ مرات ثلاث :
مرة في تحويله الى جملة احداث غير مترابطة ، كثيرا ما تحكمها ارادات ذاتية فردية معلقة فوق البشر .

ومرة ثانية ، برصفهم ركام الاحداث دون ترتيب ، وفي اكثر الاحيان بترتيب معاكس للواقع ، تسمي معه العوامل الاساسية والحاسمة عوامل ثانوية فرضت الاشارة اليها استحالة تجاهلها .

وهم يشوهون التاريخ مرة ثالثة ، ونتيجة لذلك ، باخفائهم دور الجماهير ، دور المنتجين الحقيقيين ، في صنع التاريخ وفي تطور المجتمع .
والمؤرخ الماركسي ، يكشفه هذا القناع ، لا يخفي كما لا يخاف ، الانطلاق من موقع طبقي محدد ، واقعي اساسا ، كي تيسر له جميع الادوات ، او أكثرها على الاقل ، فيبكته معها اتباع منهج علمي وموضوعي في تصنيف الاحداث التاريخية وفي ترتيبها على السواء .

ان التركيبة الاضافية التي خلفتها عهود السيطرة الاستعمارية على بلادنا ، من تشويه لتاريخنا وحضارتنا ، اقتضتها مصالح ترسيخ دعائم تلك السيطرة ، تاريخا وحاضرا على السواء . ويكاد تاريخ لبنان يعطي نموذجا لدى التشويه الذي لحقه ولا يزال على يد المؤرخين البرجوازيين سواء منهم الاجانب او اللبنانيين ، وفي كثير من الاحيان يفقد بعض اللبنانيين منهم حتى الحد الأدنى من الموضوعية الذي

الحركات الفلاحية في لبنان
النصف الاول من القرن التاسع عشر

كانون الاول ١٩٧٢ - دار الفارابي - دار الجماهير
بيروت دمشق

قد يلام ، وفي ميدان التاريخ ، الأيديولوجية البرجوازية .

ويزداد أهمية بوجه خاص في تاريخ لبنان ، التصدي لتاريخ حقبة ، هامة هي بقدر ما هي راهنة ، من هذا التاريخ ونعني بها القرن التاسع عشر . ان أهمية تلك الحقبة لا تعود فقط الى مدى غناها بالتطورات والتحولات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، او الى مدى كثافة الفلاف الأيديولوجي البرجوازي الذي تمت حيالته حول تاريخها ، بل هي تعود وبشكل خاص الى التأثيرات التي تركتها على تطور لبنان اللاحق .

والدراسات التي تناولت تلك الفترة ، على غزارتها خضعت بجمعها — عدا بعض القليل منها — لوقف طبقي برجوازي او انعزالي او استعماري على اختلاف الالقمة التي ارتدتها ، فمنها ما لم يجد وراء حركة الفلاحين سوى « مصالح شخصية » او ذاتية « هجم المزارعون الموارنة على المشايخ الموارنة الذين رفضوا التسليم لقيادة زعيم من الشعب يدعى طانيوس شاهين » وهي لا تجد نفسرا لتكالب الدول الاستعمارية على التدخل المباشر سوى « لاستيانتها لهذه الفظائع » ولا تفهم الهجرة في اواخر القرن التاسع عشر مع الدمار الاقتصادي الذي لحق ببنات واسعة من سكان الجبل نتيجة دخول الاستعمار الا لان « اللبنانيين كانوا يعيشون على ارض تضيق بهم ، وكانوا يزدادون عددا وتقدما ورغاية بلا توقف . » (١) وجد منفذا له في الهجرة .. » (٢) ومؤرخ اخر يكاد يوهنا منذ المقدمة انه حاول أن يروي « واقع التاريخ ، دون تبرير او ادانة ، كما اني حاولت أن لا استخلص من الاحداث عبرة » .. ولكنه سرعان ما يضيف « ولما كان لبنان ، كوحدة تاريخية ، مجموعة من الطوائف المتألقة ضمن اطار سياسي واحد ، فقد آثرت — لاحظوا هذا الصدق في التبرير ! — ان أنطلق في روايتي لتاريخ لبنان من هذا الواقع وأن أصف تطور العلاقات بين مختلف الطوائف اللبنانية عبر القرنين الآخرين وصفا كاملا .. » (٣) وهو بالفعل ، يحول تاريخ الجبل الى تاريخ لطوائفه ، ولم يكن ، برأيه ، سعي بريطاني للحد من مطامح محمد علي سوى لخرفها من وقوع صدام بينه وبين العثمانيين ، اذ ان مثل هذا الصدام سيؤدي الى عودة الروس الى مياه الآستانة ، فمطامع بريطانيا وفرنسا وروسيا القيصرية لا يحركها سوى خوف كل منها من الاخرى! (٤) . ذلك رغم أن صاحب العلاقة لا يتورع عن كشف جزء اخر من الحقيقة — لم يشر اليها مؤرخنا بالطبع — عندما يعلن بالمرستون في احدى رسائله الى وزيره في نابولي : « ان هدف محمد علي الحقيقي هو اقامة مملكة

عربية تضم جميع البلاد التي يتحدث أهلها باللغة العربية ، وقد يكون هذا الامر في ذاته لا خطر منه ، ولكنه يرمي الى تقطيع أوصال تركية وهو ما لا نرضى عنه أبدا ، وفصلا عن ذلك فان أي ملك عربي مهما تبلغ قوته لن يكون قادرا على المحافظة على ما تحمله من طريق الهند . » (٥) كما أنه يرى أن اجتماعات الفلاحين وانتخاب « مشايخ الشباب » كانت فقط لصحابة الاهلين من « ظلم المشايخ وخصوصا آل الخازن » ، « فلا عجب ، اذن ، أن يبلغ هياج الفلاحين ضد اسيادهم أقصى مداه في مناطق آل الخازن بكسروان » وان تحول الحركة الى العنف اقتضى استقالة شيخ شباب عجلتون ، صالح صفر ، واختيار طانيوس شاهين ، شيخ شباب ريفون ، بدلا منه فقد « كان طانيوس شاهين هذا ، رجلا طويل القامة ، قوي البنية ، في الثالثة والاربعين من عمره ، احترف البيطرة ، واشتهر بشراسة خلقه وميله الى العنف .. » (٦) كما أن مؤرخا اخر لا يفهم سببا لاختفاق محمد علي سوى عاملين : اولهما مقاومة الإنكليز للمشروع خوفا من سقوط الدولة العثمانية ووقوع طريق الهند تحت سيطرة دولة ذنية قوية ، وثانيهما فقدان « الوعي القومي لدى العرب فقدانا يكاد يكون تاما » (٧) . ولا يجد في حركة الفلاحين سوى حركة قام بها الفلاحون الموارنة بتحريض من كهنتهم على ساندتهم الاقطاعيين . (٨) .

واذا كانت بعض الدراسات الاخرى قد قدمت مادة أولية غنية فسهلت الى هذا الحد أو ذاك مهمة المؤرخ المتمسك بالمنطلق الماركسي — اللبني توجها ومنهجية عامة فان كثيرا منها كان محاولات رائدة في هذا الميدان (٩) .

ان مؤلف أ. سميليانسكايا هذا ، يقدم لنا لوحة تكاد تكون شاملة لاهم سمات تلك الحقبة التاريخية خلال القرن التاسع عشر ، فمنهج المؤلف ، الماركسي — اللبني يسميها ، سمح لها باكتشاف اهم العوامل التي حددت تطور لبنان خلال ذلك القرن منذ بدايات تكون العلاقات الرأسمالية الاولى داخل البنية الاقطاعية المتميزة في اطار الدولة العثمانية ، الى الجوهر الاجتماعي لاصلاحات محمد علي وابراهيم باشا ، الى الضربة القاصمة التي تعرضت لها تلك البدايات مع دخول الاستعمار

(٥) عن جورج انطونيوس : يقظة العرب — دار العلم للملايين — بيروت ١٩٦٢ .

(٦) كمال الصليبي : مصدر مذكور ، الصفحات : ١١٨ — ١١٩ — ١٢٠ .

(٧) جورج انطونيوس — مصدر مذكور صفحة ١٢ .

(٨) المصدر نفسه ، صفحة ١٢٤ .

(٩) بالإضافة الى مصادر ومراجع المؤلفة يمكننا الإشارة هنا الى دراسة دومينيك شيناليه : « المجتمع في جبل لبنان ابان عصر الثورة الصناعية في أوروبا » باللغة الفرنسية — بيروت ١٩٧٢ — عرضته مجلة « الطريق » اللبنانية في عددها الصادر ١٩٧٢ ، وبصورة خاصة الجزء الثاني من مؤلف فؤاد قازان « لبنان في محيطه العربي من التكوين الجيولوجي حتى أيامنا » والذي صدر منه المجلد الاول عن دار الفارابي — بيروت ١٩٧٢ ، ولا يزال المجلد الثاني مخطوطا — نشرت مجلة « الطريق » بعض فصوله المتعلقة بتلك الحقبة في الاعداد ٨ — ١٩٦٩ و ٣ — ١٩٧٠ و ٤ — ١٩٧٢ .

(١) جواد بولس : تاريخ لبنان — دار النهار للنشر — بيروت — ١٩٧٢ الصفحات ٣٥٤ — ٣٥٥ — ٣٥٦ .

(٢) نيليب حتي : لبنان في التاريخ — دار الثقافة — بيروت ١٩٥٩ — صفحة ٥٧٥ .

(٣) كمال الصليبي : تاريخ لبنان الحديث — دار النهار للنشر — بيروت ١٩٦٧ صفحة ١٠ .

(٤) المصدر نفسه صفحة ٦٤ .

في مرحلة نزوح الرأسمالية في أوروبا . ولا يتنقص من جهد المؤلف اقتصار بحثها على منطقة محددة من لبنان هي الجبل ، رغم ضرورة هذا التحديد وعلاقته وتأثيراته اللاحقة المميزة والمحددة في إطار الوحدات السياسية التي قامت بعد ذلك خلال القرن العشرين في المنطقة العربية .

إن منهج المؤلف ، باستنتاجه وحده ، أن يقدم التفسير الواقعي والصحيح لتطور أحداث القرن التاسع عشر في جبل لبنان ، وهو وحده الذي يسمح بفهم الكثير من التمارض الظاهري في منطق بعض الأحداث التاريخية وأكثرها تأثيراً على تطور لبنان اللاحق ، فاشترك جهاهير الفلاحين في انتفاضة عام ١٨٤٠ ضد حكم الأمير بشير وإبراهيم باشا لا يمكنه إخفاء الطابع الرجعي لتلك الانتفاضة بإعادتها العلاقات الإقطاعية المتداعية .

ولم يكن صدفة ، ما رافق هذا الإحياء لتلك العلاقات الإقطاعية ، من بدء مرحلة جديدة من علاقة الرأسمالية الأوروبية بالمنطقة مع معاهدة ١٨٣٩ بين بريطانيا والدولة العثمانية والتي كرست فتح أبواب التطفل الاستعماري في بلدنا . ذلك على الرغم من صحة ودقة استنتاج المؤلف حول ما شكلته تلك الانتفاضة وما أدت إليه من تطور في مستوى تنظيم جهاهير الفلاحين ، ساهم في اغناء حركة الفلاحين في مرحلتها النورية مع انتفاضة عام ١٨٥٨ - ١٨٥٩ .

والمعطيات التي يقدمها هذا الكتاب تسمح ، إلى جانب سواها ، بالوصول إلى استنتاج هام وأساسي ، فيما يتعلق بتطور جبل لبنان قبل وبعد حركة الفلاحين ، فبالقدر الذي عبرت فيه تلك الانتفاضة عن نهوض في عوالم تحطيم العلاقات الإقطاعية ، بنهوض في القوى الاجتماعية التي تكونت من تحالف الحرفيين والفلاحين ، بالقدر ذاته ، كانت القاعدة الاقتصادية لهذه القوى قد جرى تدهورها بالفعل ، وضربت آفاق تطورها بتطفل الرأسمال الأجنبي . بذلك تشكلت القاعدة المادية لتطور جبل لبنان اللاحق ، والتميز عن تطور بقية المناطق المحيطة به ، وبخاصة تلك التي شكلت فيما بعد الحدود الحالية للبنان .

إن فهم تلك الحركة الواقعية للتطور الاجتماعي في بلدنا ليس ممكناً بدون اتباع ذلك المنهج العلمي الذي اعتمدته المؤلف ، وقد زاد المؤلف - المستشرقة السوفياتية امكانية في تكامل كثير من تحليلاتها ما وفره لها اطلاعها على وثائق عهد القيصريّة في روسيا ، والمساهمات القيمة التي بذلتها كثير من المستشرقين السوفييات باتجاه ومنهج توفرت لهما الامكانيات الواقعية مع نجاح ثورة أكتوبر الاشتراكية وقيام الاتحاد السوفياتي .

إن الحاجة ، تبرز أكثر فأكثر للزيد من تلك الدراسات والأبحاث ، ليس بغاية معرفة تاريخ التطور الفعلي لأوضاعنا الاجتماعية في لبنان والبلاد العربية وحسب ، بل بما تؤدي إليه تلك المعرفة من امكانية تحديد آفاق تطورها المقبل الوثيقة الارتباط بامكانية التأثير في تلك العملية المعقدة من التطور الاجتماعي لصالح قوى المستقبل في بلدنا ، لصالح شعوبنا بأكملها .

تلك هي برأينا أهم ما يقتضيه الترحيب بمثل تلك الدراسات وما يفرضه تقديرنا لتلك المساهمات والمبادرات في ظروف تزداد فيها إلحاحاً مهمة التصدي لتاريخنا الوطني تاريخاً وبحثاً وتملكاً وطنياً لقرائه .

سالم يوسف

٦

مقدمة

ظلت قضية لبنان تشغل أذهان الدبلوماسيين الأوروبيين مدة

تتوف على عشرين عاماً . وكاد الخلاف الذي ثار عام ١٨٤٠ بين السلطان التركي وحاكم مصر حول سوريا ولبنان (١) يؤدي إلى نزاع مسلح بين الدول الأوروبية المؤيدة لهذا الجانب أو ذاك . وكانت الصدامات الدورية - المارونية التي وقعت في كل من عام ١٨٤١ و ١٨٤٥ و ١٨٦٠ سبباً في نشاط المراسلات الدبلوماسية ، وانعقاد المؤتمرات الدولية ، وتحوّل قطع الاسطول الأوروبية قرب شواطئ سوريا ولبنان ، مما أدى فيما بعد إلى وقوع الاحتلال المؤقت لهذين البلدين من قبل الجيوش الفرنسية في عام ١٨٦٠ . وكانت سياسة البلدان الأوروبية أزاء الحوادث اللبنانية موضع نقاش في البرلمانين الانكليزي والفرنسي . وكانت الصحافة الأوروبية تسهب في وصف ويلات الصدامات الدموية بين الدروز والموارنة وتفضح بشكل مثير سياسة انكلترا وفرنسا وتركيا في لبنان وسوريا . واصبحت القضية اللبنانية جزءاً من المسألة الشرقية مما كان يخفي جوهرها الاجتماعي عن أكثر معاصريها .

(١) كانت كلمة « سوريا » المستعملة في القرن التاسع عشر تعني لبنان

وسوريا المعاصرة وفلسطين ، أما في هذا البحث فالتنا نستعمل هذه الكلمات في معناها الحديث .

ولم تكن الحوادث اللبنانية في الواقع سوى نتيجة للحركة الواسعة المناوئة للاقطاعية ، والتي برزت كنتيجة لازمة النظام الاقطاعي وبدء ظهور العلاقات البرجوازية . وقد اجتازت هذه الحركة خلال اكثر من نصف قرن طريقا وعرة من التطور ، فبدأت كحركات تمرد عفوية قصيرة الامد (في الربع الاخير من القرن الثامن عشر والثالث الاول من القرن التاسع عشر) ثم ادت الى تشكيل جمهورية فلاحية بادارة مجلس من الفلاحين يترأسه الحداد الريفي طانيوس شاهين ، دامت منذ عام ١٨٥٩ وحتى عام ١٨٦١ في منطقة كسروان ، وهي احدى المناطق الجبلية المتطورة في لبنان . وقد تتوج التمرد في هذه المنطقة بنهوض الحركة المناوئة للاقطاعية التي امتدت من عام ١٨٤٠ وحتى عام ١٨٦٠ . وعلى الرغم من ان الحركة الشعبية اللبنانية كانت ، حتى في فترة نهوضها ، لا تضاهي ابدا الحركات الشعبية الجبارة في الهند والصين في منتصف القرن التاسع عشر من حيث ابعادها وجماهيريتها (لا ينبغي ان ننسى ان عدد سكان جبل لبنان في تلك الفترة كان لا يزيد على ٢٠٠-٢٥٠ الف نسمة) فانها كانت تضاهي الانتفاضات الشعبية في ايران وهند وصين منتصف القرن التاسع عشر من حيث جوهرها الاجتماعي واثرها في تاريخ لبنان والدول العربية المجاورة . لقد كان للبنان طريقه الخاص في هذا التيار العام من الحركات الشعبية ، ودراسة هذا الطريق تدنيا من معرفة قانون تطور الحركات الاجتماعية في بلدان الشرق خلال فترة تفسخ الاقطاعية . ان الحوادث اللبنانية كانت تسترعي انتباه الدبلوماسيين والصحفيين الاوروبيين المعاصرين (٢) . وقد كتب عنها من شارك فيها وشاهدها عيانا من اللبنانيين امثال : طنوس الشدياق ، وانطوان ضاهر العقيلي ومنصور الحتوني وحسين ابي شقرا واسكندر ابكار يوس (٣) .

- (٢) ك. م. بازلي ، سوريا وفلسطين في ظل الحكم التركي ، موسكو ١٩٦٢ .
(٣) طنوس الشدياق : كتاب اخبار الاعيان في جبل لبنان ، بيروت ١٨٥٩ .
ثورة وفنتة في لبنان ، صفحة مجهولة من تاريخ الجبل من ١٨٤١ الى ١٨٧٣ ، بيروت ١٩٣٩ .
منصور الحتوني : نبذة تاريخية في المقاطعة الكسروانية ، بيروت ١٩٥٦ .
حسين ابو شقرا : الحركات في لبنان الى عهد المتصرفية ، بيروت ١٩٥٢ .

وهناك مواد لا تقل أهمية عن المذكورة آنفا محفوظة في ارشيفات القنصليات العامة ووزارتي الخارجية الانكليزية والفرنسية ودائرة الآثار اللبنانية ، ولكن لم ينشر منها للاسف سوى جزء يسير فقط . وقد اورد م. كير و ع. اسماعيل و د. شيفاليه و ف. بولك بعضا من هذه المواد في اعمالهم التي صدرت في السنوات الاخيرة (٤) .

وقد استعملنا في كتابنا هذا مواد ارشيف سياسة روسيا الخارجية الذي يحتوي على تقارير القنصليات العامة الروسية في بيروت ويضيف معلومات جديدة الى ما ورد في الارشيفات الانكليزية والفرنسية .

ان اشتداد حركة التحرر الوطني في البلدان العربية قبيل الحرب العالمية الثانية وفي سنوات ما بعد الحرب ، وانتزاع هذه البلدان استقلالها الوطني قد اثارا اهتماما جديدا لدى العلماء العرب بتاريخ لبنان العصر الحديث وخاصة بحدوث فترة ما بين عام ١٨٤٠ و ١٨٦٠ . وتجلى هذا الاهتمام في نشر كتب الاخبار والوثائق الذي قام به يوسف يزبك و اسدرستم .

وبفضل هذه المطبوعات الاخيرة اصبحت المصادر الراهنة كافية لاجراء بحث علمي واف حول بعض قضايا تاريخ لبنان في النصف الاول من القرن التاسع عشر واواسطه وحول الموضوع الرئيسي في هذه الفترة وهو الحركة الشعبية المناوئة للاقطاعية . ولا شك ان اجراء دراسات اخرى اكثر دقة للمخطوطات والوثائق المحفوظة في الخزائن اللبنانية والارشيفات الاوروبية سيتيح القاء الضوء على كثير من القضايا التي لا تزال غير واضحة حتى الان ، كما سيتيح اعادة النظر في بعض الاحكام السابقة . ومع هذا فان بإمكاننا الآن ان نستخلص نتائج عامة من المعلومات المتوفرة لدينا وان نحللها على ضوء المادية التاريخية .

(٤) Malcolm Kerr, Lebanon in the last years of feudalism, 1840-1868, Beirut, 1959; Adel Ismail, Histoire du Liban du XVIIIe siècle à nos jours, t. IV, Beyrouth, 1958; D. Chevallier, Aspects sociaux de la question d'Orient. Aux origines des troubles agraires Libanais en 1858, — « Annales. Economies. Sociétés. Civilisations », 1959, No. 1; W. Polk, The opening of South Lebanon, 1788 - 1840, Cambridge (Mass), 1963.

وقد طرحت مؤلفة هذا الكتاب امامها مهمة تبيان المقدمات الاجتماعية - الاقتصادية للحركة المناوئة للاقطاعية في لبنان خلال النصف الاول من القرن التاسع عشر ومهمة تحديد أسباب نهوض هذه الحركة في منتصف ذلك القرن .

ويوجه الكتاب القسط الاوفر من العناية الى دراسة حركة الفلاحين فيما بين عام ١٨٤١ وعام ١٨٦٠ والى تلك المعركة السياسية التي طبعتها الحركة المذكورة بطابعها . وبما ان قضية الدروز والموارنة تشكل جزءا اساسيا في الموضوع المدروس فقد وجهت المؤلفة انتباهها خاصا الى اسباب ظهور العداوة بين هاتين الطائفتين والى تاريخ الصدامات بين مختلف الطوائف الدينية .

اما حوادث نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر فينظر فيها الكتاب بخطوطها العامة وذلك من اجل رصد تطور حركة الفلاحين خلال الثلثين الاولين من القرن التاسع عشر .

وقد ساعدت المؤلفة في اعداد كتابها هذا استاذها الراحل ف . ب . لوتسكي . وهي تعبر عن امتنانها العميق لكل من يو . ن . زادفادوفسكي و خ . سلام ، و ف . ا . سولوفيفوف الذين اتاحوا لها اجراء المشاورات معهم .

١٠ . سميليانسكايا

الفصل الاول

المقدمات الاجتماعية - الاقتصادية
للحركة المناوئة للاقطاعية

- * تطوّر العلاقات السلعية - النقدية
- ونشوء عناصر الرأسمالية
- في الزراعة والصناعة
- * الملكية الاقطاعية للأرض
- * استثمار الفلاحين للأرض
- * الضرائب والريع العقاري
- * وضع الفلاحين

تطور العلاقات السلعية - النقدية ونشوء عناصر الرأسمالية في الزراعة والصناعة

يتمتع لبنان بظروف طبيعية ملائمة لزراعة الثمار والمزروعات الصناعية . ولهذا كانت اشجار التوت والزيتون وكروم العنب والتين هي المزروعات الاساسية في القرية اللبنانية منذ القدم . ونتيجة لاتخاذ الاقتصاد الزراعي في جبل لبنان مثل هذا الاتجاه كان السكان يعانون من نقص في القمح ، وكان لبنان ، حسب تقدير المعاصرين ، لا يسد سوى ربع حاجته الى الاغذية ، وكان يستورد القمح والارز والثررة من مصر منذ القدم ، وهذا ما يفسر لنا سبب تطور العلاقات السلعية - النقدية تطورا ملحوظا في اواخر القرون الوسطى في لبنان .

ويشهد كتاب الاخبار الذي وضعه البطريرك الماروني الدويهي (في القرن السابع عشر) على وفرة الانتباه الذي كان يتتبع به اهالي لبنان اسعار الحبوب والحرير الخام . وقد كتب الرحالة الاوربي بول لوقا الذي زار لبنان في بداية القرن الثامن عشر « بما ان البلاد التي يقطنها الموارنة ليست ملائمة تماما لتوفير الخبز والقمح لاهلها فان كل مداخيلها تأتي من بيع الحرير الذي يحصل عليه السكان من شتى أنواع دودة القز المتوفرة بكميات

وابتداء من القرن السابع عشر يمكننا الحديث عن تخصص الاقتصاد اللبناني في إنتاج الحرير الخام المخصص لورشات النسيج في دمشق وحلب ولتصديره الى أوروبا (٢) .

وتذكر معطيات القنصل الروسي ك. م. م. بازيللي ان سوريا ولبنان قد انتجتا في الثلاثينات والاربعينات من القرن التاسع عشر مقدار ثلاثة الاف قنطار من الحرير الخام ، عولج نصفها فقط محليا (في الاستثمارات الفلاحية بشكل رئيسي) ، واستعمل ربعها في ورشات حلب ودمشق والقاهرة وصدر الربع الاخير الى أوروبا (والى فرنسا بشكل خاص) (٣) . وهكذا فان نصف المنتوج الزراعي اللبناني على الأقل كان مخصصا للبيع ، اما في المناطق التابعة لبيروت فقد بلغت نسبة المبيعات ٩٠٪ من الخامات (٤) ، مما يدل على رواج سوق الانتاج اللبناني في القرن التاسع عشر .

وتذكر معطيات قنصل روسي آخر وهو ك. د. د. بتكوفتش ان مقدار ما انتج من الحرير الخام في الاعوام الستين بلغ في لبنان وحده ٤٧٠٠٠ هـ الاف قنطار وبلغ في نهاية السبعينات ٧٠٠٠ الاف وخمسمئة قنطار ، مع العلم ان كل محصول الحرير تقريباً - المفزول والذي في الشرائق - كان يصدر الى فرنسا (٥) .

(١) D. Chevallier, Lyon et la Syrie en 1919. Les bases d'une intervention, — « Revue historique », t. CCXXIV, octobre - décembre, 1960, p. 278.

(٢) Voyages de Richard Pockocke... en Orient, dans l'Egypte, l'Arabie, la Palestine, la Syrie, la Grèce, la Thrace, etc., t. III, Neuchatel, 1773, p. 306.

(٣) ارشيف سياسة روسيا الخارجية (اسرخ) « السفارة في القسطنطينية ».

(٤) H. Guys, Relation d'un séjour de plusieurs années à Beyrouth et dans le Liban, t. I, Paris, 1847, p. 55.

ومن الجدير بالذكر انه سبق لمارون عبود وقام بتقريب هذا الكتاب بعنوان : « لبنان منذ قرن ونصف » ، بيروت ، دار المكشوف - ملاحظة من المغرب .

(٥) ك. د. د. بتكوفتش ، لبنان واللبنانيون ، « مجموعة مواد جغرافية ووطنوغرافية واحصائية عن اسيا » العدد ١٠ x ، بطرسبورغ ١٨٨٥ صفحات :

١٦٢ - ١٦٣ - ١٧٠ - ١٧٩ .

وهكذا فقد أصبح انتاج الشرائق الحريرية في البلاد سلعيا تماما .

وتتيح لنا المصادر ان نكشف عن مناطق اخرى ذات اختصاص في الزراعة في لبنان وفي سوريا المرتبطة به اوثق ارتباط (٦) . بيد انه لم يكن هناك من منطقة تضاهي جبل لبنان من حيث تطور المزروعات السلعية ، كما انه لم تكن اية منطقة تحوز على سوق دائمة ومتوسعة باستمرار كالتى كان يحوزها جبل لبنان في منتصف القرن التاسع عشر .

وقد أدى التخصص الى توطيد وتوسيع الصلات التجارية بين مختلف مناطق سوريا ولبنان وفلسطين والى تطور السوق الداخلية . فمن المعلوم ان جبل لبنان كان يحصل على المواد الغذائية من سهل البقاع وشمال سوريا والساحل اللبناني (٧) . كما كانت هناك صلات يمثل هذا الوثوق والانتظام بين المراكز الحرفية والمناطق الزراعية التي تزودها بالخامات .

وبتتبع تشكل المراكز التجارية والحرفية الجديدة يمكننا ان نحكم على سرعة تطور التجارة الداخلية في لبنان . ففي خلال النصف الاول من القرن التاسع عشر تحولت زحلة ودير القمر من قريتين صغيرتين الى مدينتين .

وفي نهاية القرن الثامن عشر كانت زحلة ، وهي قعية صغيرة من قرى سهل البقاع ، تضم مئتي بيت فقط ، اما في عام ١٨١٠ فقد اصبحت تضم ٩٠٠ بيت يسكنها خمسة الاف انسان (٨) .

(٦) كان النوع الرئيسي من المزروعات في منطقة اللاذقية وجبال النصيرية هو التبغ . اما في منطقة صيدا وشمال سوريا فقد كان القطن هو الصنف الرئيسي حتى منتصف القرن التاسع عشر وكان الفلاحون في وادي البقاع وهوران يزرعون القمح . واشتهرت غوطة دمشق ومنطقة طرابلس بالبسطة ، وكانت زراعة الخضار منتشرة منذ القدم حول المدن الكبيرة .

(٧) بالتفصيل انظر : اي. م. سميلانيسكايا ، حول مسألة تفسخ العلاقات الاقتصادية في سوريا ولبنان وفلسطين في منتصف القرن التاسع عشر . مجموعة : تشوهر الراسمالية في بلدان الشرق . من القرن الخامس عشر حتى القرن التاسع عشر . موسكو ١٩٦٢ .

(٨) J.L. Burckhardt, Travels in Syria and the Holy Land, London, 1822, p. 5.

وارتفع هذا العدد في الخمسينات حتى الثمانية الاف انسان (٩). وكانت زحلة نقطة تلاقي الطرق التجارية ومركز خزن القمح الذي يجمع من سهل البقاع وكان البدو الرحالة يسوقون اليها قطعانهم من شبه الجزيرة العربية وكردستان لبادلوا منتوجاتهم ببضائع الصناعة اللبنانية والاوروبية . وكانت المدينة تزود سائر لبنان بالمواد الغذائية ، كما كان لها بعض الشأن في الانتاج اليدوي (المصنوعات الجلدية والنسيج والصباغة) .

وبسرعة مماثلة نمت دير القمر الذي كان عدد سكانها في مشارف القرن التاسع عشر ثمانية الاف نسمة (١٠) او عشرة الاف نسمة حسب ما يذكره ١٠١ .١٠١ رافالوفتش (١١) . وكانت هذه المدينة مركزا لتجارة المنسوجات الحريرية اللبنانية . ويذكر التاجر الفرنسي آي . بلونديل انه شاهد هناك « كثيرا من ورشات النسيج » (١٢) وقد اثرى تجار هذا البلد عن طريق شراء الحرير الخام وعمليات الربا . وكان قسم منهم على ما يظهر يملك ورشات للحياكة ، كما كان العديد من اثرياء المدينة يملك اراض مؤجرة للشركاء .

وكانت فترة ما بين السنوات الاربعين والخمسين فترة ازدهار هاتين المدينتين اللتين عانتا في عام ١٨٦٠ من جراء الصدمات الدرزية - المارونية فاصبح عدد سكان زحلة ثمانية الاف وخمسمئة انسان في عام ١٨٦٢ ولم يبق من سكان دير القمر سوى ٢٦٠ شخص أو اقل (١٣) . ولم تصب هاتان المدينتان قدرا ملحوظا من التطور في السنوات التالية . وفي عام ١٩١٥ فقط اصبح عدد سكان زحلة يتراوح بين ١٢ و ١٥ ألف انسان وبلغ عدد سكان دير القمر خمسة الاف انسان (١٤) .

(٩) Iskander Abkarius, The Lebanon in turmoil..., p. 89.

(١٠) Ch. Churchill, The Druzes... p. 104.

(١١) ا. ا. رافالوفتش ، مذكرات طبيب روسي متوجه الى الشرق ، مجلة وزارة الداخلية ١٨٤٨ ، الجزء ٢٢ ، الصفحة ٤٤٦ .

(١٢) E. Blondel, Deux ans en Syrie et en Palestine (1838-1839), (١٢)

Paris, 1840, p. 87.

(١٣) ك. و. بيتكوفتش ، لبنان واللبنانيون . ص ١٤٥

(١٤) ا. روبين ، سوريا المعاصرة وفلسطين - بتروغراد ١٩١٩ . ص ١٤ و ١٥ .

ولم يكن سبب اعاقلة تطور المدن اللبنانية الداخلية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر يعود الى الحوادث السياسية الداخلية بقدر ما كان يعود الى العمليات الاقتصادية التي شملت بلدان الشرق العربي ، والمقصود بهذا هو خضوع اقتصاد هذه البلدان بشكل متزايد الى رأس المال الاجنبي . فمنذ اواسط القرن التاسع عشر بالذات بدأت سوريا ولبنان وفلسطين تتحول الى اسواق للتصريف ومصادر خامات للصناعة الاوروبية مما اعاق تطورها الاقتصادي المستقل وعرقل انشاء سوق داخلية .

واصبحت بيروت ، وهي المرفأ الرئيسي ، بوابة لدخول النفوذ الاجنبي لا الى لبنان فحسب بل والى سوريا كذلك . والارقام التالية تعطينا صورة عن نمو سكان بيروت خلال اكثر من مئة سنة (١٥) :

العام	عدد السكان بالآلاف
١٧٨٢	٦
١٨٣١	٩ (بمن فيهم سكان الضواحي)
١٨٤٧	٢٧٥ (بمن فيهم سكان الضواحي)
١٨٦٠	٤٠ (بمن فيهم سكان الضواحي)
١٨٨٥	١٠٠ (بمن فيهم سكان الضواحي)
١٩١٥	٢٠٠ (بمن فيهم سكان الضواحي)

ولم ينشأ في بيروت انتاج صناعي متطور ، بل كان هناك

(١٥) انظر مواد عام ١٧٨٢ في كتاب :

C.-F. Volney, Voyage en Egypte en Syrie, t. 2, Paris, 1823, p. 309; ».

وعام ١٨٢٠ في كتاب :

« J.-F. Michaud et J.-J. Poujoulat, Correspondance d'Orient. 1830 - 1831, vol. VI, Paris, 1835, p. 123.

وعام ١٨٤٧ في كتاب ا. ا. رافالوفتش ، مذكرات طبيب روسي متوجه الى الشرق ، « مجلة وزارة الداخلية » ١٨٤٨ الجزء ٢٢ ، ص ٤٢٧ .

وعام ١٨٦٠ في كتاب :

W. Thomson, The Land and the Book, London 1860, p. 37.

وعام ١٩١٥ في كتاب ا. روبين . سوريا المعاصرة وفلسطين صفحة ١٥ .

العشرات من البيوتات التجارية العائدة للتجار الأجانب والكومبرادورية المحلية ومن مكاتب اصحاب المصارف المرابين . وافتتح في السنوات الخمسين في المدينة فرع للبنك العثماني (براسمال انكليزي) كما انشئت المحكمة التجارية وشيد التجار المحليون اولى الفنادق على الطراز الاوروبي (١٦) . وفي عام ١٨٥٨ قام رأس المال الفرنسي بشق اول طريق في سوريا يصل بين دمشق وبيروت .

وقد امنت هذه الطريق ايصال البضائع الصناعية الاوروبية الى داخل سوريا واخراج الخامات الزراعية من لبنان . وفي منتصف القرن التاسع عشر انتزعت بيروت جزءا كبيرا من تجارة المدن الساحلية وتحولت صيدا من ولاية ضخمة الى بلدة متواضعة يتراوح عدد سكانها بين ستة وسبعة الاف شخص واصبحت تابعة لبيروت كليا .

ومع تطور التجارة في لبنان تشكلت البورجوازية التجارية، التي كان تجار بيروت يشكلون فيها الفئة المسيطرة اقتصاديا . وقد كتب ك . م . بازيللي يقول أن كبار التجار في بيروت كانوا يعقدون سنويا صفقات قيمتها بضع عشرات من ملايين القروش (١٧) . وكانت مداخيلهم تفوق أحيانا الربع الاقطاعي الذي كان يجنيه أغنى الاقطاعيين . ومع أن ثروات التجار في داخل لبنان كانت أضال من ثروات تجار بيروت إلا أن رؤوس اموالهم لم تكن بالهينة . ففي صيف عام ١٨٦٠ كانت مستودعات الشرائق وحدها التي يملكها احد تجار دير القمر الاثرياء تحتوي على ثلاثين ألف اوقية يقرب سعرها من ٦٠٠ الف قرش هذا عدا السلع الأخرى والمجوهرات والنقود المعدنية التي كان يملكها (١٨) . (ولنلاحظ على سبيل

(١٦) J.L. Farley, Two years in Syria, London, 1858, p. 54.

في عام ١٨٢٧ بلغ عدد الشركات التجارية في بيروت ٣٤ شركة منها ٢١ شركة لبنانية . وفي عام ١٨٣٩ بلغ عددها ٦٧ منها ٢٤ شركة لبنانية .

Ch. Issawi, Economic development and Liberalism in Lebanon, — « The Middle East Journal », vol. 18, 1964, No. 3, p. 282.

(١٧) أسرخ ، « السفارة في القسطنطينية » .

(١٨) F. Lenormant, Histoire des massacres de Syrie en 1860, Paris, 1861, pp. 75, 76.

المقارنة ان مبلغ الضرائب الاجمالي الذي جبته الخزنة من جبل لبنان في اربعينات القرن التاسع عشر قد بلغ ١٧٥٠ ألف قرش) . وقد انشأ التجار الكبار رؤوس اموالهم في نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر عن طريق الصفقات التجارية الخارجية ونظام الالتزام في جباية الضرائب والرسوم الجمركية ، وعن طريق الديون المقدمة للاقطاعيين والحاكم في لبنان وعن طريق عمليات الربا في الريف . وقد كان الاسلوب الاخير في استثمار رأس المال متطورا بشكل خاص . وليس من قبيل الصدفة ان والي سورية المصري ابراهيم باشا كان مضطرا حتى الى منع التجار من جباية الديون من سكان الريف (١٩) .

وفي الاربعينات والخمسينات من القرن التاسع عشر اصبح المجال الاساسي لاستثمار رأس المال التجاري هو شراء الخامات الزراعية المخصصة للتصدير الى اوروبا : وكان يقوم بهذه الصفقات عملاء تجار بيروت والتجار الريفيون وتجار المدن الصغيرة ، وكان هؤلاء الآخرون غالبا ما يقومون بدور وسطاء لدى كومبرادور بيروت .

كما كان تجار لبنان الداخلي يقومون ايضا بتزويد لبنان بالمواد الغذائية . فقد قام تجار رحلة مثلا بأعمال واسعة في تجارة القمح واشتروا القطعان في ولايتي حلب ودمشق (٢٠) . ولكن كومبرادور بيروت كان يستثمر جزءا من رأسماله في تجارة المفرق والجملة في الداخل ويخضع له بهذا تجار جبل لبنان . وقد كتب ك . م . بيتكوفتش يقول : « ان الذين يجنون الربح الأعظم من التجارة مع لبنان سواء في مجال الاستيراد او التصدير هم تجار بيروت الذين يستثمرون اللبنانيين بجشع ويقرضونهم الاموال لقاء فوائد باهظة » (٢١) .

وكان العديدون من تجار رحلة بشكل خاص يقومون بأعمالهم التجارية « بالنقود المستلفة من تجار بيروت » (٢٢) . ولكن كومبرادور بيروت نفسه غالبا ما كان في تبعية للشركات التجارية الاوروبية التي تشتري منه الخامات . ولم يستطع سوى

(١٩) أسرخ ، « السفارة في القسطنطينية » .

٢٠ - ك . د . بيتكوفتش : لبنان واللبنانيون ، صفحة ١٧٥ .

٢١ - المصدر نفسه ، صفحة ١٧٦ .

٢٢ - المصدر نفسه ، صفحة ١٧٥ .

القليلون ، كآل دحداح مثلاً ، أن يفتتحوا مكاتب تجارية في الخارج — في مرسيليا ولندن وباريس (٢٣) ، وأن يقوموا بعملياتهم التجارية باستقلال .

وكان تجار لبنان الداخلي ، على ما يظهر ، يوظفون الأموال في الانتاج الصناعي أكثر من تجار بيروت . فقد كان تجار زحلة يملكون ورشات المصنوعات الجلدية والصباغة ، كما كان تجار دير القمر يملكون ورشات الحياكة . ومنذ الأعوام الأربعين أخذ كبار التجار ورجال المصارف في بيروت مثل سرسق اخوان ، وجورجي تويني ، واصفر اخوان ، يعملون في مجال الصناعة وأنشأوا فبارك لغزل الحرير (٢٤) .

واستمر برجوازيو بيروت بعد سلوكهم هذه الطريق بتسليف الفلاحين النقود ولكنهم خصصوا جزءاً من هذه السلف لتحسين آبارع ولشراء بيض دودة القز من قبل الفلاحين الذين كانوا يبيعون الخامات (٢٥) لتجار المدينة . وهكذا كان التجار - اصحاب المصانع يتدخلون في شؤون تنظيم الانتاج الزراعي . ولكن الفترة التي ندرسها لم تكن سوى فترة ظهور بوادر الانتقال الى اشكال أعلى من استثمار رأس المال في الصناعة .

وقد أدى تطور العلاقات النقدية السلعية في لبنان في القرن التاسع عشر الى خراب اقتصاد الفلاحين الطبيعي . انما لا ينبغي أن ننسى أن ما كان ينزل الى السوق هو قبل كل شيء الربيع العيني الذي كان يجبيه اصحاب الاراضي ومتعهدو جمع الضرائب من الفلاحين ، وبالتالي فإن الانتاج الفلاحي نفسه في هذه الحالة لم يكن مرتبطاً بالسوق مباشرة .

وكان التبادل العيني ما يزال يلعب دوراً ليس بالهين في حياة الاسرة الفلاحية . ويرسم لنا الانتوغرافي واللغوي اللبناني المعروف انيس فريجة لوحة عن حياة القرية اللبنانية في القرن الماضي

٢٣ - يوسف الدبس ، الجامع في تاريخ المارئة المؤصل ، بيروت ١٩٠٥ ص : ٥٣٧ - ٥٣٨ .

٢٤ - ك. د. بيتكوفتش . لبنان واللبنانيون ، صفحة ١٧٩ - ١٨٠ .
٢٥ - D. Chevallier, Aux origines des troubles agraires Libanais en 1858, p. 53.

حسب المعلومات التي تعطينا آياها الانتوغرافيا ، فيصف الصفقات التجارية التي كانت تعقد على أساس التبادل العيني على الشكل التالي : لقد كان التاجر الآتي من الخارج يقف ببغاله أو بجماله في ساحة القرية ويبدأ بالتجارة . فيبادل القمح والفصولياء بزيوت الزيتون أو القضاة والفتق بالحديد والنحاس أو الاحذية والقماش والقباييب بالحبوب وزيت الزيتون أو التفاح الزبداني وخوخ قب الياس بأشياء معدنية قديمة وما شابه ذلك (٢٦) .

ان اللوحات التي رسمها لنا انيس فريجة هي لوحات ساطعة وتحول دون شك دون تضخيم دور العلاقات النقدية السلعية في القرية . ولكن مصادر أواسط القرن التاسع عشر تسمح لنا بالقول بوجود اشكال أكثر تطوراً من علاقات الاقتصاد الزراعي بالسوق . وكانت ضرورة دفع الضرائب النقدية وشراء بيوض دودة القز والقمح والقطعان المعدة للذبح تجبر الفلاحين على انزال بعض منتجات اقتصادهم الى السوق . وتذكر المصادر الى جانب بيع خامات الحرير بيع الخمر والجبن ، والخضار .

ان تصنيف خامات الحرير بشكل جيد والحاجة الدائمة الى النقود كانا يجبران الفلاحين على بيع محصولهم كله ويجعلانهم يريدون من اهتمامهم بتربية فراشات الشرائق الحريرية . وقد أدى بهم هذا الى اهمال الحياكة المنزلية ، وكانوا أحياناً يكفون حتى عن حل الشرائق وهو عمل كانت تقوم به مغازل الحرير التي ظهرت في لبنان وقد اشار د . اوركهارت ، رجل السياسة الانكليزي الذي زار لبنان في مشارف الأربعينات والخمسينات من القرن التاسع عشر ، الى ان تدهور الصناعات المنزلية قد انتشر في كل مكان (٢٧) . صحيح أن الفلاح كان لا يزال يعد بنفسه المحراث والنورج وعدة حيوانات الجر والمذاري والاطباق الجدولة لتقديم الفداء الى دود القز ، وما شابه ذلك ، ولكن كان مضطراً لابتياح الثياب والاحذية وسكة المحراث ، والادنان المعدنية (الخلاقين) ، والاجزاء المعدنية في آلة حل الشرائق وبعض الادوات المنزلية .

٢٦ - انيس فريجة ، حضارة في طريق الزوال : القرية اللبنانية - بيروت ،

١٩٥٧ ، ص ٢٢ - ٢٣ .

٢٧ - D. Urquhart, The Lebanon (Mount Souria). A history and diary, vol. I, pp. 321, 322.

ما كان يتغير طابع علاقة الفلاح بالسوق . فقد كان الفلاحون اللبنانيون ، وفقا لاقوال ك . ف فولني ، يبيعون بضائعهم بأنفسهم في اسواق المدن الساحلية . اما في اواسط القرن التاسع عشر فقد بدأ الوضع يتغير في عدد من المناطق واخذ يزداد دور الوسيط والتاجر كأداة وصل بين الفلاح والسوق . ولم يكن الامر الجديد هنا يتجلى في انقطاع الفلاح عن السوق بقدر ما كان يتجلى في تغير طابع الصفقات التجارية التي بدأت تتشابك بقوة مع عمليات الربا . وكان يساعد على هذا حالة العوز وانعدام الحقوق التي كان يعيشها الفلاح من جراء الاستثمار القطاعي الفظيع الذي كان يصل الى أبعد الحدود في الريف . وقد كتب ك . م . بازيلى يقول : في فترة جباية الضرائب من كل عام (اي في اصعب ظروف حياة الفلاحين) كان يتوجه جيش من التجار الوسطاء الى الريف في سوريا ولبنان ، فيستغلون حاجة الفلاحين الى المال ويقدمون لهم قروضا مقابل رهن المحصول القادم بفائدة تتراوح بين ٣ و ٥ بالمئة في الشهر او أنهم كانوا يشترون المحصول سلفا بثلثي السعر او بنصفه . وكان مقدار الفائدة يتعلق بنوع المزروعات كما كان من السائد ايضا أن يتعلق مقدار الفائدة بدرجة شدة الاستثمار القطاعي في هذه المنطقة او تلك (في هذه الحال كانت التبعية مباشرة) . اما في المناطق السهلية الخاضعة مباشرة للسلطة التركية حيث كان استثمار القطاعيين الانراك والعرب للفلاحين يتجلى بكل فظاعته فقد كانت الصفقات التجارية تتصف بطابع الاستعباد الاشد (٢٨) .

ولكن في مستهل الاربعينات كان عدد غير قليل من الفلاحين لا يزال مستقلا في تعامله مع السوق . وهذا ما يفسر سبب المقاومة الجماهيرية التي ابداهها سكان لبنان ضد فرض رسوم جمركية جديدة في المدن الساحلية عام ١٨٤١ .

ان التطور الفائق الذي اصاب الاستغلال التجاري الربوي في الريف والذي كان في نهاية المطاف يعرقل نمو العلاقات السلعية - النقدية، لم يثأر من علو درجة الاستغلال القطاعي فقط بل ومن الاتجاه الذي اتخذه تطور الاقتصاد في سوريا ولبنان . فقد سبب سيل السلع الصناعية المنهمر الى المنطقة بعد

اكتمال الانقلاب الصناعي في أوروبا تدهور الحرفة والمناوفاكتورة في سوريا . وتقلص الى حد بعيد عدد سكان المراكز الحرفية في البلاد - في حلب ودمشق - (٢٩) . ولم يكن الفلاحون الذين حل بهم الخراب بقادرين على مغادرة القرية الى المدن طلبا للعمل ، بل كانوا مضطرين للتمسك باستثماراتهم وللوقوع فريسة في ايدي المرابين .

وقد انهك الاستغلال القطاعي والربوي الاقتصاد الفلاحي ونشأت ظروف كانت العلاقات السلعية - النقدية فيها تتطور تطورا كبيرا نسبيا ، بينما كان نشوء وتطور العلاقات الرأسمالية يجريان بأقصى درجات البطء . وكان هذا الامر يتجلى في لبنان اواسط القرن التاسع عشر بدرجة ادنى منها في سوريا المجاورة . وقد عوض لبنان عن تدهور بعض المدن الساحلية مثل طرابلس وصيدا بنمو بيروت نموا سريعا الى حيث كان يذهب سكان الجبال بعد انتهاء الموسم الزراعي . وكانت بيروت تؤمن العمل لعدد كبير من عمال البناء (نحاتي الاحجار ، والتجارين ، والطيّانين) والحمالين ، وعمال الزوارق والمكارية والخدم والميامين . والظاهر ان انهيار الحرفة في دمشق وحلب لم يؤثر تأثيرا جديا على الاقتصاد اللبناني . ففي اواسط القرن التاسع عشر كان الانتاج الصناعي في جبل لبنان لا يزال منتعشا وكان عدد العمال المستأجرين آخذا في الزيادة .

ان آتھمار سيل الفلاحين الذين حل بهم الخراب الى بيروت قد شكل على ما يظهر ظروفًا أكثر ملاءمة في لبنان منها في سوريا لتطور الاقتصاد الفلاحي ، الامر الذي ساعد بدوره على ولادة العلاقات الرأسمالية في الريف اللبناني .

ويحدثنا معاصرو تلك الفترة عن تطبيق اسلوب العمل المأجور في اقتصاد لبنان الزراعي في اواسط القرن التاسع عشر .

٢٩ - يذكر ك . م . بازيلى ان عدد عمال آلات النسيج في دمشق قد تقلص منذ سنة ١٨٢٠ الى ١٨٤٠ من ثمانية آلاف الى الالفين ، وفي حلب من عشرة الاف حتى الالف . كما تقلص جدا عدد سكان هاتين المدينتين . فقد هبط عدد سكان حلب خلال السنوات العشرين المذكورة من ١٥٠ الف حتى الثمانين الف شخص . وهبط عدد سكان دمشق من ١٢٠ الف الى ٨٠ الف نسمة .

(أسرخ ، « السفارة في القسطنطينية ») .

فيذكر بورفيري اوسبينسكي معلومات عن استخدام العمل
الماجور في استثمار الاديرة . وقد كان دير القديس مار جرجس
الكاثوليكي في لبنان الذي يضم ٢٢ راهبا والواقع على الطريق
الكبيرة بين حلب وطرابلس يعتبر مأوى للتجار المسافرين . وكان
يتسع لقوافل كاملة ويصرف كمية كبيرة من الخبز والرز والسمن
والخمر وما شابه ذلك ، على المسافرين الذين ينزلون فيه . كما
كان يملك الكروم ، ومزارع لتربية دودة القز ، وارض مزروعة ،
وعددا من الاغنام يتراوح بين سبع مئة وثمان مئة غنمة ومثل هذا
العدد من الماعز وخمسا وعشرين بقرة وعشرة بغال وثلاث افراس
وعشرة رؤوس من الثيران . وكان يستأجر اربعين خادما ويقدم لهم
الاجور والغذاء ليقوموا بخدمة النزلاء وادارة الشؤون الداخلية في
الدير ، كما كان هؤلاء يقومون بحراثة جزء من اراضي الدير
الزراعية . وكان مجموع العمال الزراعيين الذين يستأجرهم الدير
بانتظام يزيد عن الثمانين (٣٠) .

وقد كتب د . اوركهارت يصف ميزانية اسرة فلاحية في
احدى قرى لبنان تملك قسما غير كبير من الارض ، ويعتبر العمل
الزراعي الماجور فيها اهم وسيلة للعيش : لقد كانت الاسرة تتألف
من اربعة اشخاص (رجلين وامراتين) . وكان الرجلان يعملان
كأجيرين خلال ثلثي الموسم الزراعي (اكثر من اربعة اشهر) سنويا .
وكانت مصاريف هذه الاسرة بما فيها الضرائب تعادل ١٥٧٥ قرشا .
اما دخلها فكان يتألف من ٥٠٠ قرش من بيع الحرير والخمر و ٨٠٠
قرش من عمل الرجلين الاضافي (٣١) .

وكانت الاسرة التي تعيش بمثل هذه الميزانية تشكل عددا
ليس بالقليل في الريف اللبناني ، وهذا ما جعل القنصل الفرنسي
ه . غيز يفترض ان من الممكن فوز فئة كاملة من بين اللبنانيين
« تتألف من المياومين الفقراء الذين يعيشون ثلاثة ارباع الوقت في

انتظار الفترة التي تحل فيها الحاجة الى ايديهم » (٣٢) .
ان هذه المعطيات وعدداً من الشواهد الاخرى تسمح لنا
بالحديث عن وجود عملية تباين الفلاحين في الريف . ففي ناحية
من القرية كانت تشكل ، حسب رأي ه . غيز ، « الفئة الاكبر
عددا » والمؤلفة من « انفس الناس » (٣٣) وهم الذين حل بهم
الخراب فتحولوا الى مياومين ورعاة وسائقي بغال وخطابين وعمال
في مصانع ومانوفاكتورات غزل الحرير في لبنان وعمال في شق
طريق دمشق - بيروت وما شابه ذلك .

اما في الناحية الاخرى فقد اخذت تبرز فئة الفلاحين
الموسرين المتحولين الى بورجوازيين ريفيين . وكان ممن لاحظوا هذه
العملية القنصل الانكليزي « هيوغ رويز » الذي ذكر ان المسيحيين
الاثرياء في دير القمر كانوا في الماضي « من اقنان » الشيوخ
التكدية . وقد سلف بعض هؤلاء الاثرياء الى الشيوخ انفسهم
مبالغ بفائدة قدرها ٤٠٪ (٣٤) . كما ان مطالبة الفلاح المتمردين
في شمال لبنان بالفداء الاتاوات الاقطاعية التي فرضها الاقطاعيون
على الفلاحين المشتريين الارض منهم تدل على الانتشار النسبي
لشراء الاراضي من قبل الفلاحين الموسرين . وقد لاحظ ه . غيز
ان اصحاب الاراضي من الفلاحين الاغنياء في جبل لبنان كانوا
يستأجرون « العمال المياومين الفقراء في موسم جمع الحرير » (٣٥) .
كما كانت بعض الاستثمارات الفلاحية في سهل البقاع تستخدم
العمال الاجراء ايضا . وكان بعض فلاحي لبنان الموسرين يتعاطون
التجارة والربا . وكان الفلاحون الموسرون في قرية بكفيا يتاجرون
بالتبغ والقطران والخيول والمواشي الاخرى في مناطق مختلفة من
سوريا وحتى مصر . كما كانوا يجنون المداخل من تأجير الفيلات
للموسرين من اهالي بيروت (٣٦) .

H. Guys, Relation..., t. II, p. 145.

Ibid., pp. 145-146.

W. Polk, The opening of South Lebanon, 1788-1840.
pp. 280, 281.

H. Guys, Relation..., t. II, p. 145.

٣٦ - بطرس البستاني ، دائرة المعارف ، بيروت ، ١٨٨١ ، ج ٥ .

- ٢٢

- ٢٣

- ٢٤

- ٢٥

٢٥

٣ - ارشيف الدولة المركزي في لينينغراد . ب . اوسبينسكي ، كتاب

وجودي . يوميات ومذكرات حياتية . الجزء الاول . بطرسبورغ ١٨٩٤ الصفحة
١٨٤ . ويتحدث ب . اوسبينسكي كذلك عن استئجار الاديرة لعدد كبير من العمال
(حتى الثلاثمائة) لاعمال مؤقتة غير مرتبطة بزراعة الارض (كتاب وجودي الجزء
الاول . ص ٢١٠) .

D. Urquhart, The Lebanon..., I, pp. 389-391.

- ٢١

٢٤

اما في القرى الصناعية التي سيأتي ذكرها فيما بعد فقد تشكلت أيضا فئة من الاعيان كانت تستخدم العمل المأجور في الحرفة .

بيد ان الظواهر الاجتماعية - الاقتصادية الجديدة في القرية اللبنانية خلال النصف الاول من القرن التاسع عشر كانت لا تزال ضعيفة التطور . وكانت العلاقات الرأسمالية هناك لا تزال في دور الولادة .

وكان الفلاحون لا يزالون يشكلون طبقة واحدة في مجتمع اقطاعي ، وقد تقسموا الى فئات ومجموعات حسب اشكال واحجام ملكيتهم للارض وحسب طابع التبعية الشخصية . اما تباين الفلاحين اجتماعيا واقتصاديا وظهور الفئات الجديدة بين سكان الريف (الكولاك والبروليتاريا) فلا يكادان يظهران في تلك الفترة الا بخطوطهما العامة .

وكانت العمليات الجديدة التي تحدث في الريف اللبناني هي التالية : تطور العلاقات النقدية - السلعية ، تخصص الاقتصاد الزراعي ، انهيار الاقتصاد الطبيعي ، تطور نظام الاجرة ، ظهور الاستغلال الرأسمالي ، ازدياد تباين الفلاحين . وقد بدأت هذه العمليات منذ نهاية الثلث الاول من القرن التاسع عشر تعاني من التأثير المتزايد لرأس المال الاوروبي الغربي .

وكانت العمليات الجديدة التي تحدث في الريف اللبناني مرتبطة بالتغيرات الطارئة على الحرفة والصناعة .
فحتى مستهل القرن التاسع عشر لم يكن في لبنان مدن تتمركز فيها الحرف . وكانت صيدا وبيروت وطرابلس مدنا تجارية بشكل رئيسي وطريقا لاستيراد القمح الى لبنان وتصدير الخامات الزراعية منه .

بيد انه منذ نهاية القرن الثامن عشر حدثت في لبنان بوتيرة لا بأس بها عملية انفصال الصناعة عن الاقتصاد الزراعي على اساس الحرف الريفية وعملية بروز المراكز الحرفية في المدينة والريف . ان تهدم الانتاج الحرفي والمانوفاكتوري الذي وقع في اواسط القرن التاسع عشر في دمشق وحلب تحت تأثير منافسة سلع المصانع الاوروبية لم يصاحب في لبنان بهلاك الصناعات الريفية لان هذه السلع كانت مخصصة لسوق اضييق وكان مصدرها اكثر مرونة في تقدير مطالب الفئات الواسعة من الاهالي .

وفضلا عن هذا فان الحرفي الريفي لم ينقطع عن الزراعة التي كانت تؤمن له وسائل المعيشة . ولكن منافسة السلع الاوروبية كانت تعرقل نجاح تطور اشكال التنظيم الرأسمالية العليا للصناعة داخل الحرف الريفية .

وقد ذكر ك . د . بيتكوفتش ان « سكان القرى والاماكن الصغيرة كانوا يزاولون مختلف الحرف لسد الحاجات المحلية ، ويصادف بين اللبنانيين الحجارون والنجارون والحدادون والخياطون وصانعو الاحذية والصباغون والحائكون وغيرهم من العاملين بأبسط الادوات البدائية » (٣٧) ويشترى هؤلاء الحرفيون المواد الخام بأنفسهم عادة من دمشق وطرابلس وبيروت . وقد كانت غالبية هؤلاء الحرفيين تزاول باستمرار هذه الحرفة او تلك ولكنها كانت تملك في الوقت نفسه استثمارات زراعية . وكان العمل يجري دائما تقريبا بطلب من المستهلك .

وكان من الامور المميزة لعدد من فروع الحرفة اللبنانية في النصف الاول من القرن التاسع عشر تحول الحرفيين الريفيين الى منتجي سلع صفار . وفي الوقت نفسه كان سكان قرى كاملة يتخصصون في حرف معينة . فقرية (زوق مكاييل) في شمال لبنان كانت في بداية القرن التاسع عشر مشهورة بالحياكة وصنع الاحذية . ويذكر بوركهارت ان غالبية سكان زوق كانت من اصحاب الدكاكين والحرفيين الذين كانوا يزودون كسروان بالثياب والاحذية (٣٨) . وكان سكان قرية بيت الدين (وهي مقر الامير بشير الشهابي) ينتجون الملابس لسكان الجبال . اما حرفيو مدينة زحلة فقد كانوا يصنعون الثياب القطنية والعبى (٣٩) الصوفية . وكان هناك قسم كبير من الحرف في بداية القرن التاسع عشر لا يزال يخصص منتجاته لسوق ضيقة ولسد حاجات الاقطاعيين بشكل اساسي . ويذكر بوركهارت ان حرفيي دير القمر كانوا يتفننون في صنع عبى المشايخ الموشاة بالذهب والفضة والتي يصل ثمنها الى ٨٠٠ قرش (٤٠) . وكانت منتجات الحرف

٣٧ - ك . د . بيتكوفتش ، لبنان واللبنانيون . صفحة ١٦٩ .

J.L. Burchardt, Travels in Syria..., p. 183.

- ٣٨

Ibid., pp. 6-7.

- ٣٩

٤٠ - المصدر نفسه ، صفحة ١٩٢ .

الريفية تباع عادة في الاسواق المحلية الصغيرة ، كالخان القديم الخرب قرب حاصبيا الذي كان يؤمه كل ثلاثاء سكان القرى الواقعة على بعد مسيرة يوم واحد » (٤١) .

ولكن الانتاج الاجمالي كان معروفا منذ منتصف القرن التاسع عشر ، وحتى منذ بداية القرن بالنسبة لبعض فروع الحرفة . فقد كانت قرية راشيا تباع منتوجاتها من المصنوعات الفخارية التي تخصصت في صنعها ضمن مساحة تمتد حدودها الى بعد مسيرة اربعة او خمسة ايام ، وخاصة في حوران والجولان (٤٢) أما المنسوجات الحريرية التي كانت تصنع في زوق فقد كانت مشهورة في سائر سوريا وخارج حدودها كذلك ، وكانت تصدر الى مصر وغيرها من ولايات الامپاطورية العثمانية والى اوروبا . وتدل سعة اسواق تصريف نتاج الحرفة الريفية على التطور العالي نسبيا في مجال الانتاج السلمي الصغير في القرى الحرفية المذكورة .

ان المواد التي في حوزتنا لا تسمح لنا مع الاسف بالقاء الضوء على تنظيم الحرفة الاقتصادي . ويمكننا ان نتبع احوال تباين الحرفيين ، الذي هو نتيجة حتمية لتطور الاقتصاد السلمي الصغير ، من مثال الحرف الريفية في الزورق حسب معطيات السنوات الـ (٦٠-٧٠) في القرن التاسع عشر . لقد وصف ك. د. بيتكوفتش احوال حرف الحياكة في زوق بعد خمسين سنة من وصف بوركهات لها ، اي عندما انتهى عهد الحرفة اليدوية المستقلة وحلت محلها الورشات التي يعمل فيها العمال لحساب رب العمل . ويقول ك. د. بيتكوفتش ان « اصحاب الفبارك » في زوق لم يكونوا بحاجة لرؤوس اموال كبيرة من اجل تسير انتاجهم . فقد كانوا يعملون « يوما فيوما ويبيعون نتاجهم محليا » وكانوا يوسعون الانتاج ويقلصونه حسب التصريف . وكان العامل الذي يزاول حياكة الانسجة الحريرية والمدهبة يتقاضى عشرة قروش يوميا ، اما صانع البرانس وعموم الانسجة القطنية والصوفية فقد كان يكتفي بخمسة قروش يوميا (٤٣) . و « العمال » الذين يتحدث عنهم ك. د. بيتكوفتش هم الاناس الذين يبيعون قوة عملهم ، اما

ما يسمى « باصحاب الفبارك » فيقصد بهم مالكي الورشات . ولكن « اصحاب الفبارك » هؤلاء انفسهم ليسوا اناسا مستقلين ، بل هم في تبعية للتجار الذين يشترون سلعهم محليا .

وكان طابع الانتاج في قرى بكفيا والبترون وبيت شباب يقترب من طابع الانتاج في زوق خلال الاعوام الـ (٦٠ - ٧٠) . وقد احصى ك. د. بيتكوفتش في بكفيا والقرى القريبة منها حتى الالف وخمسمئة آلة حياكة تنتج من الانسجة ما تتراوح قيمته بين مئة ومئة وعشرة آلاف ليرة تركية سنويا (٤٤) .

وقد برزت في دير القمر في اواسط القرن التاسع عشر ورشات حياكة ليست بالكبيرة ، وربما تكون قد ظهرت هناك كذلك مانوفاكشوريات صغيرة . ولا يمكننا ان نحكم على حجم العمل المأجور المستخدم فيها سوى بمعطيات عرضية فقط . فمن المعروف ان اصحاب ورشات دير القمر قد استلفوا مبلغ ٣٠ الف فرنك (٧٥٠ الف قرش) لتجديد ٤٢ ورشة كانت قد هدمت في عام ١٨٦٠ من جراء الصدمات بين الدروز والموارنة ، وكان يعمل في هذه الورشات اكثر من اربعمئة عامل وعاملة (٤٥) ، وبالتالي فقد كانت كل ورشة تضم عشرة عمال وسطيا .

والى جانب ورشات النسيج كانت توجد في لبنان المصانين وورشات صنع البارود والادوات المعدنية التي كانت على ما يظهر تستخدم العمل المأجور كذلك . ففي قرية بيت - شباب (لبنان الاوسط) كان هناك مصنع لصب النواقيس كما كان يصنع سكك الحرائة ونعال الدواب واوعية خشبية للفسيل تستعمل في مغازل الحرير .

وقد احصى ك. د. بيتكوفتش اربع عشرة مصبنة في لبنان تصدر الصابون الى مصر . وحسب الظاهر فان عدد العمال في مثل هذه الورشات لم يكن يزيد عن العشرة . ويذكر ك. د. بازيل ان عدد عمال ورشة البارود كان خمسة فقط . ان الصناعة الريفية في لبنان لم ترتفع ولم يكن بإمكانها ان ترتفع الى مستوى اعلى من مستوى التعاونية الرأسمالية البسيطة والاشكال الاولى

٤٤ - المصدر نفسه ، صفحة ١٧٢ .

٤٥ - E. Lonet, Expedition de Syrie : Beyrouth - Le Liban - Jerusalem 1860-1861, Paris, 1862, p. 346.

٤١ - المصدر نفسه ، صفحة ٢٤ .

٤٢ -

Ibid., p. 36.

٤٣ - ك. د. بيتكوفتش ، لبنان واللبنانيون ، صفحة ١٧١ .

للمانيفكتورة في ظروف استيراد السلع الصناعية الأوروبية الى لبنان بأحجام كبيرة . ومن الامور المميزة أن الباحثين في مستهل القرن التاسع عشر كانوا يذكرون كذلك تلك المراكز الحرفية نفسها وأنواع المنتجات السلعية نفسها ، وحتى انهم كانوا يذكرون عدد الآلات نفسه كما في مجال النسيج مثلا ، حيث يبلغ هذا العدد حوالي (٢٠٠٠) نولا (٤٦) .

ولم تنشأ المانوفاكطورة المتطورة والمصانع الصغيرة في البلاد الا في ذلك الفرع الصناعي المتصل بمعالجة الخامات المخصصة للتصدير . ومنذ الاربعينات من القرن التاسع عشر بدأت تظهر في سوريا مانوفاكطورات وحتى مصانع غزل الخيوط الحريرية حيث كانت تستعمل الآلات البخارية . وكانت هذه المؤسسات تظهر عادة في المناطق الريفية بالقرب من مصادر الخامات وتعود ملكيتها للرأسماليين الاجانب والتجار المحليين . وكان أصحاب المصانع الاول هم من التجار الأوروبيين (الفرنسيين والانكليز) الذين كانوا يعيشون في مدن سوريا الساحلية (٤٧) . وقد كانوا احيانا يشركون رؤوس اقطاعيين المحليين . وكان استقرار صناعة غزل الحرير نوعا ما والارباح الطائلة المتوفرة نتيجة رخص الايدي العاملة وكثرة طلب الحرير تجذب الرأسمال التجاري للعمل في هذا المجال . فحتى الستينات لم يكن في لبنان سوى خمسة او ستة مصانع من هذا النوع ، في كل منها (١٠٠) دولا ، ولكن هذا العدد بدأ يزداد بعد ذلك حتى أصبحنا نجد في الثمانينات حوالي ستين مصنعا لغزل الحرير في لبنان (٤٨) .

وكان العمل في المصانع موسميا ويستمر ثمثي يوم سنويا . وكان عدد العمال في المصانع الستين يصل الى خمسة آلاف وثمانين عامل اي بنسبة ٨٠ الى مئة عامل في كل مصنع وسطيا بأجور يعادل خمسة قروش يوميا (٤٩) ، ويذكر بورفيري أوسبينسكي ان المصانع أصبحت تفضل العمل النسموي لرخصه . وهكذا حدث في مجال الحرفة في لبنان تطور من الإنتاج

الحرفي الريفي الوثيق الارتباط بالاقتصاد الزراعي حيث الحرفي يعمل حسب الطلب الى حرف منزلية تعتمد على تصريف المصنوعات اليدوية في السوق .

وفي مشارف منتصف القرن التاسع عشر نشأت الورشات والمانفكتورات المتفرقة على اساس من الحرف المنزلية الريفية . ويمكننا الافتراض أن الرأسمال التجاري قد لعب الدور الحاسم في تنظيمها ، فارتفاع طلب السوق العالمية للحرير الخام دفع التجار والقطاعيين لتوظيف رؤوس اموالهم في انشاء اولي المصانع الصغيرة لغزل الحرير . وقد كان الرأسمال الاجنبي يشارك منذ السنوات الاربعين من القرن التاسع عشر في هذا الشكل الذي يعتبر اعلى اشكال تنظيم المصانع في لبنان . وقد الحقت العمليات الجديدة التي حدثت في الاقتصاد الزراعي والحرفة في لبنان تغيرات في نظام ملكية الارض الاقطاعية .

الملكية الاقطاعية للارض

كان نظام ملكية الارض في لبنان كما في باقي مناطق الامبراطورية العثمانية على درجة كبيرة من التعقيد . فقد كانت ملكية السلطان السامية (٥٠) لسائر اراضي الامبراطورية تمتزج هنا مع الملكية السامية لاراضي البلاد من قبل الامير الحاكم الذي كان جبل لبنان من نصيبه . وكان الامير بدوره يقدم الاراضي للاقطاعيين اللبنانيين . ومع هذا فان سائر الاراضي المستعملة كان لها ملاك مباشرين يعين لهم القانون نوع ملكيتهم للارض من (ملك او بكاك او وقف او مشاع) (٥٠) مما يخلق شبكة معقدة من اشكال

(٥٠) ملاحظة من العرب : تستخدم المؤلف هذه الكلمة بمعنى ان ملكية الارض في ظل السيطرة العثمانية كانت في النهاية واساسا تعود الى السلطان .
٥ - الملك : الملكية الشخصية التي يمكن انتزاعها بسهولة . وقد كانت الغالبية العظمى من اراضي لبنان المزروعة تدخل ضمن هذا النوع من الملكية .
بلك : (بالتركية ببليك) الاراضي العائدة للامير الحاكم .
الوقف : الاراضي والممتلكات الاخرى التي يتم التبرع بها للكائنات والمؤسسات الدينية الاخرى لاهداف خيرية ودينية .

- ٤٦ - ا. روبين ، سوريا المعاصرة وفلسطين ، صفحة ١٢٨ ، ١٢٩ .
٤٧ - ك. د. بيتكوفتش ، لبنان واللبنانيون ، صفحة ١٦٩ ، ١٧٩ ، ١٨٠ .
٤٨ - المصدر نفسه ، ص ١٦٩ .
٤٩ - المصدر نفسه ، صفحة ١٧٠ .

ملكية الارض السائدة غالباً في المجتمع الاقطاعي .
وفي منتصف القرن التاسع عشر سادت الملكية الاقطاعية
الكبيرة للارض على شكلين : فهي اما ملكية مشروطة (مقاطعة) (٥١)،
او غير مشروطة (٥٢) . (اما في باقي الامبراطورية العثمانية في

المشاع : الاراضي المشاعة . كان جبل لبنان يتميز عن سوريا ذات الاراضي
السهلية بانعدام الملكية المشاعية للاراضي الزراعية ، وكانت هذه الملكية مقصورة
على المراعي والغابات .

كما كانت توجد في لبنان اراض تسمى « الاراضي الميتة » - الموات - وهي
ارض بكر ولا تدخل في ملك احد وتبعد عن اقصى بيوت القرية بمسافة لا يتجاوزها
صوت الانسان . وكان يمكن « احياء » الارض الموات عن طريق فلاحتها وزراعتها
وبناء بيت وطاحونة وحفر بئر وما الى هذا . وفي مثل هذه الحالة كانت الارض
« الحية » في لبنان تصبح ملكا لمن احيائها . ولم يكن جبل لبنان يحتوي على
اراضي للدولة - اراضي اميرية - المرجع : عبد الله قرا علي ، كتاب مختصر
الشريعة بيروت ١٩٥٩ .

I. Aouad. Le droit privé des maronites au temps des émirs
Chihab (1697-184) d'après les documents inédits, Paris, 1933.

٥١ - لقد كان اصطلاح « مقاطعة » في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر
يستعمل ايضا بمعنى اقليم او ناحية اي وحدة مساحية . وكان هذان المفهومان
يتطابقان عادة . ولكن كان يحدث ان تشمل المقاطعة (فيوذة) قرية او قرنين
فقط لا تشكلن مقاطعة - اقليبا . وغالبا ما تخط الكتب التاريخية بين معنيي
كلمة مقاطعة . وينبغي ان ندخل في نطاق الملكية المشروطة الاراضي الخاصة -
وهي الاراضي المائدة للامير الحاكم . فقرى دير القمر وعين دارا وطبلون وغيرها
وعماطور كانت قرى خاصة .

« Zeitschrift der Deutschen morgenlandischen Gesellschaft »
Bd VI, Leipzig, 1852, S. 103, 104).

٥٢ - ينبغي الإشارة الى ان بعض الاراضي كانت تعود لملك مطلقين واخرين
خاضعين لشروط في آن واحد . فاراضي القرية كانت تدخل ضمن مقاطعة الاقطاعي
الذي كان يملك القرية ملكية مشروطة ولكن في الوقت ذاته كانت كل قطعة من
الاراضي المزروعة ملكا للفلاح او الاقطاعي (اذا كان الفلاح قد حرم من حقوق
ملكية الارض يعمل فيها بصفته شريكا) . وهكذا فقد كانت بعض اشكال الملكية
تعيش الى جانب اشكال اخرى ، وكان الاقطاعيون الملاك يؤكدون حقهم في الارض
بواسطة جبي مختلف انواع الربيع الاقطاعي .

عام ١٨٣٩ (*) فقد كانت الملكية الاقطاعية المشروطة - المقاطعات
العسكرية - ملقاة) .

وكانت المقارنة بمثابة راتب عقاري مشروط بالتزام المقاطعجي
بجبي الضرائب للخدمة . وكان المقاطعجية يؤدون الخدمة العسكرية
للامير الحاكم ، ويلتزمون بقيادة الفلاحين المسلحين استجابة لطلبه .
وكانت نسبة عائداتهم من الضرائب تبلغ ٨٪ ، ولكنهم كانوا في الواقع
يستولون على نصيب اكبر من هذا بكثير ، وهذا النصيب بالذات
هو ما يجب اعتباره الجزء الذي كان يعود للمقاطعجية من الضريبة
- الربع (٥٣) .

وكان هؤلاء يتمتعون ضمن اراضي ممتلكاتهم بالحصانة
الادارية وبالحصانة القضائية جزئيا وكانوا في الحقيقة الحكام
ذوي السلطة المطلقة . فقد كان المقاطعجي يحاكم الجرائم الجنائية
التي يعاقب عليها بالسجن او بالجلد ، على اساس القوانين العامة .
اما محاكمة الجرائم الاكثر خطورة والتي عقابها الاعدام او التشويه
الجسدي (حسب مبدأ « العين بالعين والسن بالسن ») فقد كانت
من اختصاص الامير الحاكم . وكان الفصل في القضايا المدنية
(التي تعالج على اساس الشريعة في المناطق الدرزية والاسلامية
وعلى اساس القوانين العامة والمجموعات القضائية في المناطق
المسيحية) من اختصاص القضاة او رجال الدين (القساوسة
والاساقفة والبطاركة) . وكان حكام المقاطعات يقومون بتنفيذ
احكام المحاكم المختصة بالقضايا المدنية .

وكانت أحجام المقاطعات تختلف من واحدة لآخرى . فمشايخ
جنبلات مثلا كانوا يملكون في مستهل القرن التاسع عشر خمس
مقاطعات : الشوف واقليم جزين واقليم التفاح واقليم الخروب
وجبل ريحان وكلها تقع في جنوب لبنان وتضم حوالي ٢٠٠ قرية يقطنها
اكثر من ٣٠ الف انسان . وكان المشايخ النكديون الدرزي يملكون
مقاطعة المناصف ومركزها دير القمر التي كانت في عام ١٨٣٣
خاصة الامير الحاكم ومقاطعة الشحار الواقعة في لبنان المتوسط
(وكانت تضم ٣١ قرية يقطنها اكثر من ثلاثة عشر الف انسان) .

(*) ملاحظة من المغرب : ورد في النص الروسي عام ١٩٣٩ ولا شك انه

خطا طباعي .

٥٣ - اسرخ « السفارة في القسطنطينية » .

ملكية الارض السائدة غالبا في المجتمع الاقطاعي .
وفي منتصف القرن التاسع عشر سادت الملكية الاقطاعية
الكبيرة للارض على شكلين : فهي اما ملكية مشروطة (مقاطعة) (٥١)،
او غير مشروطة (٥٢) . (اما في باقي الامبراطورية العثمانية في

المشاع : الاراضي المشاعة . كان جبل لبنان يتميز عن سوريا ذات الاراضي
السهلية بانعدام الملكية المشاعية للاراضي الزراعية ، وكانت هذه الملكية مقننة
على الراعي والغابات .

كما كانت توجد في لبنان اراض تسمى « الاراضي الميتة » - الموات - وهي
ارض بكر ولا تدخل في ملك احد وتبعد عن اقصى بيوت القرية بمسافة لا يتجاوزها
صوت الانسان . وكان يمكن « احياء » الارض الموات عن طريق فلاحتها وزراعتها
وبناء بيت وطاحونة وحفر بئر وما الى هذا . وفي مثل هذه الحالة كانت الارض
« المحيية » في لبنان تصبح ملكا لمن احيائها . ولم يكن جبل لبنان يحتوي على
اراضي للدولة - اراضي اميرية - المرجع : عبد الله قرا علي ، كتاب مختصر
الشريعة بيروت ١٩٥٩ .

I. Aouad. Le droit privé des maronites au temps des émirs
Chihab (1697-184) d'après les documents inédits, Paris, 1933.

٥١ - لقد كان اصطلاح « مقاطعة » في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر
يستعمل ايضا بمعنى اقليم او ناحية اي وحدة سياسية . وكان هذان المفهومان
يتطابقان عادة . ولكن كان يحدث ان تشمل المقاطعة (فيودة) قرية او قريتين
فقط لا تشكلان مقاطعة - اقليما . وغالبا ما تخلط الكتب التاريخية بين معنيي
كلمة مقاطعة . وينبغي ان ندخل في نطاق الملكية المشروطة الاراضي الخاصة -
وهي الاراضي المائدة للامير الحاكم . فقرى دير القمر وعين دارا وطبلون وغيرها
وعباطور كانت قرى خاصة .

« Zeitschrift der Deutschen morgenlandischen Gesellschaft »
Bd VI, Leipzig, 1852, S. 103, 104).

٥٢ - تنبغي الإشارة الى ان بعض الاراضي كانت تعود للملك مطلقين واخرين
خاضعين لشروط في آن واحد . فاراضي القرية كانت تدخل ضمن مقاطعة الاقطاعي
الذي كان يملك القرية ملكية مشروطة ولكن في الوقت ذاته كانت كل قطعة من
الاراضي المزروعة ملكا للفلاح او الاقطاعي (اذا كان الفلاح قد حرم من حقوق
ملكية الارض يعمل فيها بصفته شريكا) . وهكذا فقد كانت بعض اشكال الملكية
تعيش الى جانب اشكال اخرى ، وكان الاقطاعيون المالك يؤكدون حقهم في الارض
بواسطة جبي مختلف انواع الربيع الاقطاعي .

عام ١٨٣٩ (*) فقد كانت الملكية الاقطاعية المشروطة - المقاطعات
العسكرية - ملفاة) .

وكانت المقارنة بمثابة راتب عقاري مشروط بالتزام المقاطعجي
بجبي الضرائب للخرينة . وكان المقاطعجية يؤدون الخدمة العسكرية
للامير الحاكم ، ويلتزمون بقيادة الفلاحين المسلحين استجابة لطلبه .
وكانت نسبة عائداتهم من الضرائب تبلغ ٨٪ ، ولكنهم كانوا في الواقع
يستولون على نصيب اكبر من هذا بكثير ، وهذا النصيب بالذات
هو ما يجب اعتباره الجزء الذي كان يعود للمقاطعجية من الضريبة
- الربع (٥٣) .

وكان هؤلاء يتمتعون ضمن اراضي ممتلكاتهم بالحصانة
الادارية وبالحصانة القضائية جزئيا وكانوا في الحقيقة الحكام
ذوي السلطة المطلقة . فقد كان المقاطعجي يحاكم الجرائم الجنائية
التي يعاقب عليها بالسجن او بالجلد ، على اساس القوانين العامة .
اما محاكمة الجرائم الاكثر خطورة والتي عقابها الاعدام او التشويه
الجسدي (حسب مبدأ « العين بالعين والسن بالسن ») فقد كانت
من اختصاص الامير الحاكم . وكان الفصل في القضايا المدنية
(التي تعالج على اساس الشريعة في المناطق الدرزية والاسلامية
وعلى اساس القوانين العامة والمجموعات القضائية في المناطق
المسيحية) من اختصاص القضاة او رجال الدين (القساوسة
والاساقفة والبطاركة) . وكان حكام المقاطعات يقومون بتنفيذ
احكام المحاكم المختصة بالقضايا المدنية .

وكانت أحجام المقاطعات تختلف من واحدة لآخرى . فمشايخ
جنبلات مثلا كانوا يملكون في مستهل القرن التاسع عشر خمس
مقاطعات : الشوف واقليم جزين واقليم التفاح واقليم الخروب
وجبل ريحان وكلها تقع في جنوب لبنان وتضم حوالي ٢٠٠ قرية يقطنها
اكثر من ٣٠ الف انسان . وكان المشايخ النكديون الدرزي يملكون
مقاطعة المناصف ومركزها دير القمر التي كانت في عام ١٨٣٣
خاصة الامير الحاكم ومقاطعة الشحار الواقعة في لبنان المتوسط
(وكانت تضم ٣١ قرية يقطنها اكثر من ثلاثة عشر الف انسان) .

(*) ملاحظة من المرب : ورد في النص الروسي عام ١٩٣٩ ولا شك انه

خطأ مطبعي .

٥٣ - اسرخ « السفارة في القسطنطينية » .

وكان الامراء من آل ارسلان يملكون مقاطعة الغرب الاسفل التي تضم ٧٠ قرية ويسكنها اربعة آلاف انسان . وكانت القروى المختلفة من اسرة الامراء اللمعيين تملك مقاطعة المتن التي كانت تضم اربعين قرية كبيرة وسبعة واربعين قرية صغيرة ... الخ (٥٤) .

والى جانب المقاطعات التي كانت تضم بضع عشرات وأحيانا بضع مئات من القرى فقد كانت هناك مقاطعات تتألف من قريتين أو ثلاث قرى تقريبا .

وكانت ملكية المقاطعات تنتقل بالوراثة من الاجداد الى الاحفاد في الاسر الاقطاعية . ومما يدل على هذا طريقة منح المقاطعة بالذات . يقول المؤرخ « لقد قدم الامير المقاطعة له (للاقطاعي) ولاحفاده » (٥٥) . بيد ان ادارة المقاطعة والتصرف بالمداخل كانا في يد كبير العائلة ويرثهما منه الابن الأكبر . ونادرا ما كان يجري تقسيم المقاطعة بين الابناء . ويذكر طنوس الشدياق حادث تقسيم واحد فقط في عام ١٦٦٧ ، عندما قسم المالك مقاطعة كسروان بين أبنائه الثمانية ولم ينل الاربعة الصغار سوى حصة واحدة (٥٦) . وكانت العائلات الاقطاعية التي تملك مقاطعة كاملة غالبا ما تضم عشرات وأحيانا مئات من الرجال البالغين مع اسرهم . وكانت هذه العائلات مؤلفة من اسر تعيش في قرى مختلفة وبعض هذه الاسر كانت تملك القرى التي تعيش فيها وتتبع كبير العائلة ، وغالبا ما كان الاحفاد الشباب في العائلة الاقطاعية يخدمون عند الامراء أو البشوات الانتراك محتفظين بكل ميزات طبقتهم ، وكانوا يتصفون بالفطوسة والغرور مع انهم لم يكونوا في الغالب يفوقون والفلاحين غنى وثروة .

وكانت ملكية غالبية العائلات الاقطاعية اللبنانية للمقاطعات تستمر لعدة مئات من السنين ، دون أن يكون لها حق التخلي عنها الى ملاك آخرين . فالامير وحده هو الذي كان يستطيع تجريد مالك المقاطعة من املاكه المهداة اليه أو املاك عائلته ، كما فعل الامير بشير الثاني مثلاً مع اعدائه السياسيين . وكانت ملكية المقاطعات وفقا على الفئة العليا المتميزة التي

٥٤ - اسدخ « السفارة في القسطنطينية » .

٥٥ - طنوس الشدياق : كتاب اخبار الاعيان في جبل لبنان ، صفحة ٩٠ .

٥٦ - المصدر نفسه ، صفحة ٨٧ .

تشبه فئة النبلاء ضمن الطبقة الاقطاعية . ويميز المؤرخون بسين هذه الفئة التي تتألف من اصحاب المناصب والوجوه والاعيان والاكابر والملاك وبين افراد الشعب البسطاء من الاهالي (٥٧) .

وكانت هذه الفئة تتمتع بعدد من الامتيازات ، فالى جانب حق الامتلاك الاقطاعي المشروط كان ممثلوها يملكون الحق في اشغال المناصب العالية وحمل انواع خاصة من الاسلحة والاشتراك في العمليات الحربية على حيولهم (بينما كان الفلاحون يحاربون مترجلين) وارتداء الملابس الجيدة والزينة مما كان محظورا على الشعب البسيط . ولم يكن الاقطاعيون يتعرضون للجلد أو للاعدام (لقاء الجرائم نفسها التي كان بقية الاهالي تعمد من جرائمها) ، بل كان عقابهم هو النفي والفرامة ومصادرة الاملاك وقطع اشجارهم وهدم مساكنهم (٥٨) .

وحتى في بداية القرن التاسع عشر كان يوجد في لبنان ما يشبه « المكانية » : فقد كانت كل عائلة اقطاعية تشغل مكانا معيناً في السلم الاقطاعي (٥٩) .

٥٧ - في منتصف القرن التاسع عشر اي في فترة نمو النابيين في الملكية بين الفلاحين كان المؤرخون يطلقون على ممثلي الفئة العليا الريفية لقب الاعيان والوجوه ولكنها لم تكن تعتبر من الفئة المنازة .

٥٨ - H. Fleischer, Zur Geographie und Statistik des nördlichen Libanon, S. 100, 101.

٥٩ - كان استقبال مختلف الاقطاعيين في قصر الامير الحاكم يجري حسب رسميات صارمة . كما كانت هناك ديباجات معينة للرسائل الموجهة اليهم وما الى هذا ... فاذا دخل على الامير الحاكم احد الامراء الشهابيين ، كان الامير الحاكم ينهض وينزل عن السجادة التي يجلس عليها ويقف الى أن يقترب ذاك ويقبله في منكب . اما عند دخول احد الامراء اللمعيين أو الارسلانيين فقد كان الامير الحاكم ينهض ردا لتحيته . وكان الامراء اللمعيون يقبلون الامير في زنده فوق الكوع ، اما امراء ارسلان فتحت الكوع والشيوخ يقبلون راحته ... وهكذا ... وكان الامير الحاكم يكتب الرسائل الموجهة الى الشهابيين واللمعيين وحماده على نصف صفحة والى باقي ملك المقاطعات على ربع صفحة ... الخ .

وكان يتوجه الى الشيوخ والامراء بكلمتي « الاخ العزيز » ومن ثم يكمل حسب منصب المخاطب : « امز الاحياء » أو « حبيبنا » أو « عزيزنا » . راجع : Fleischer, Zur Geographie und Statistik des nördlichen Libanon, S. 100, 104.

وكان افراد عائلة الامراء الشهابيين يتمتعون باسمى مكانة ثم يأتي بعدهم الامراء اللمعيون فامراء ارسلان . وكانت مرتبة مشايخ لبنان المتوسط (وتعتبر المشيخة لقباً لهم) دون مرتبة الامراء وكان لهم نظامهم الخاص : ففي القمة كان مشايخ آل جنبلاط وبعدهم يأتي آل حمادة ثم النكديون وتلحق وعبد الملك وآل العيد .

وكانت المرتبة الدنيا في هذه الفئة من نصيب العائلات الاقطاعية التي لا تحوز على القاب متوارثة ، ومن نصيب اتباع المشايخ والامراء والموكل اليهم امر ادارة القرى من قبل اصحاب المقاطعات . كمائلة ابي شقرا الدرزية مثلاً (٦٠) .

وقد كان لبنان المتوسط في وقت ما مقاطعة متوارثة للامراء المعنيين وخلفائهم الامراء من آل شهاب . وكان الاعيان الاقطاعيون فيه (وغالبيتهم من ذوي العقيدة الدرزية) يشغلون المكانة الاسف ، اما اعيان الاقطاعيين في باقي مناطق جبل لبنان وسهل البقاع وغالبيتهم من المسيحيين (مشايخ خازن وحبيش ودحداح والظاهر وعازار وغيرهم) فقد كانوا اقل سطوة (٦١) .

ان هذا التباين في المراتب بين الفئات الاقطاعية يفسر لنا اسباب الصراع من أجل السيطرة السياسية في لبنان بين الاقطاعيين الدرروز والموارنة في منتصف القرن التاسع عشر .

لقد كانت الارستقراطية الاقطاعية تتصف بالانغلاق على نفسها كقوة اجتماعية . كما كان الاعيان اللبنانيون كافة يباهون بالحفاظ على نبل محتدهم ، حتى أن بعض الطوائف كانت تسبب نفسها لصحابة النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) .

وهكذا فقد كانت المقاطعة ملكاً اقطاعياً مشروطاً ، ترتبط حيازتها بخدمة الأمير الحاكم . وكانت حيازة الارض مرتبطة بالسلطة السياسية على السكان الذين يقطنونها . كما ان ملكية المقاطعات وما يشابهها من انواع الملكية كانت تتصف بانتساب المالك لفئة اجتماعية وبعدم حيازته التامة . كما كانت هذه الملكية تتصف ببنية هرمية .

٦٠- W. Polk. The opening of South Lebanon, 1788-1840, p. 59.

٦١- H. Fleischer, Zur Geographie und Statistik des nördlichen Libanon, S. 102.

اما الاراضي المملوكة بدون شروط (وهي نوع من انواع املاك الاقطاعي الخاصة) فقد كانت تحت تصرف مالكيها كلية ، ولم تكن حيازتها ترتبط بأية التزامات . ان المصادر العربية تسمي عادة هذا النوع من الممتلكات بـ « الاملاك » او العقارات ، ونادراً ما تسميها بالرزق .

وهي تتميز عن الملكية المشروطة بطابع الريع الاقطاعي . فقد كان صاحب الملكية المشروطة للارض يجني جزءاً من الريع - الضريبة . بينما كان مالك الارض المطلق يدفع للدولة عادة الريع - الضريبة (اذا كان لا يتمتع بالحصانة الضرائبية) ولكنه كان يجني ريعاً اقطاعياً من الشركاء الذين يعملون في ارضه . وكان ما يجري فعلاً ان الفلاحين الذين كانوا يعملون في هذه الارض كانوا يدفعون الريع لمالك الارض المباشر ، والريع - الضريبة للدولة اي لمالك الارض الاعلى .

وكانت الملكية الاقطاعية المطلقة للارض تقترب بصيغتها القانونية من الملكية البورجوازية وذلك لانها كانت مجردة من اكثر الوصايات والشوائب السياسية والاجتماعية « (٦٢) التي تتصف بها الملكية المشروطة للارض . ولم يكن انتساب المالك الى فئة اجتماعية معينة يلعب دوراً في شكل الملكية المطلقة للارض ، اذ كان يحق لأي شخص ان يمتلك الارض ملكية مطلقة من الناحية القانونية بغض النظر عن الفئة الاجتماعية التي ينتمي اليها ، كما ان بنية هذه الملكية جوهرياً لم تكن تتصف بالصفة السلمية المتدرجة . وكان مالك الارض لا يجني الريع بواسطة الاكراه اللااقتصادي بل بحكم تبعية الشريك اقتصادياً لهذا المالك . ومع ان هذه الملكية فقدت بهذا عدداً من السمات الهامة التي تتصف بها الملكية الاقطاعية فانها لم تكف عن كونها اقطاعية وذلك لانها بقيت كالسابق مصدراً للريع الاقطاعي .

وفي مستهل القرن التاسع عشر انتشرت في لبنان على نطاق واسع الملكية الاقطاعية المطلقة الضخمة . وتذكر لنا معطيات ك . ف فولني التي ربما كانت تعوزها الدقة انه في نهاية القرن الثامن عشر كانت الاسر الدرزية الخمس او الست الرئيسية في لبنان

٦٢ - ك. ماركس . راس المال ، ك. ماركس وف. إنجلز ، المؤلفات ، الطبعة الروسية الثانية ، الجزء ٢٥ ، القسم الثاني ، الصفحة ١٦٧ .

الجنوبي تملك عشر كافة الاراضي المزروعة (٦٣) . وكانت العقارات القطاعية تتألف من قطعات من الاراضي مبعثرة في اماكن مختلفة، ومن مساحات متجانسة كبيرة حيث كان القطاعي يملك اراضي قري كاملة مع كافة منشأتها (٦٤) .

وكان اصحاب المقاطعات يملكون عادة عقارات عديدة موجودة ضمن مقاطعاتهم . وقد كتب ر . بوكهالوت بصدد ممتلكات الشيخ بشر جنبلاط « ان الجزء الاكبر من منطقة جيسن (اي اقليم جزين على ما يظهر وهو مقاطعة لآل جنبلاط « المؤلف ») ملك له وهو لا يسمح لاحد بامتلاك اراضي في هذا المكان ، بل انه يوسع ممتلكاته الخاصة سنويا ، وبهذا تزداد سلطته باستمرار » (٦٥) .

وبالإضافة الى هذا فقد كان آل جنبلاط يملكون قري في مقاطعات أخرى وخاصة في سهل البقاع . وكان مشايخ آل الخازن يملكون مساحات كبيرة من الارض في مقاطعة كسروان ، أما ممتلكات الامراء الشهابيين فقد كانت موزعة في العديد من مقاطعات لبنان . وقد ازداد الاهتمام بالملكية غير المشروطة في فترة تطور العلاقات السلعية - النقدية عندما أصبح من السهل تصريف الربح العيني في السوق وازدادت حاجة القطاعيين الى النقود . وكان السبب الأول في هذا هو ضخامة مداخل العقارات . فالقطاعي الذي يملك الارض ملكية مشروطة كان يقبض رسميا ٨٪ من الضريبة المجنية . فاذا كانت الضريبة تعادل ٢٥ بالمئة من المحصول كان ما يقبضه القطاعي يعادل قرشين من كل مئة قرش من مدخول الارض . اما اذا كانت ملكية القطاعي للارض مطلقة فقد كان يجني من الشريك مقدارا يتراوح بين ثلث المحصول ونصفه اي من ٣٣ الى خمسين قرشا من كل مئة قرش من المدخول . وكان يدفع ثلث

٦٣ - C.F. Volney, Voyage en Egypte et en Syrie, vol. 2, p. 190.

٦٤ - في بداية القرن التاسع عشر اشترى الأمير بشر شهاب قرية بيت الدين من الشيخ أبي علي بيت الدين وبني فيها قصرا له ومنازل للشركاء الذين يعملون في أرضه .

خليل همام فايز ، أبو سمرا غانم أو البطل اللبناني ، القاهرة ، ١٩٠٥ ، ص ١٧ .

J.L. Burckhardt, Travels in Syria..., p. 197.

٦٥ -

٢٨

هذا المبلغ أو نصفه اي من ٨ قروش الى ١٢ قرشا كضريبة الى الخزينة ، اما الباقي فقد كان يدفعه الشريك ، وهكذا فقد كان يجني من مثل هذه القطعة من الارض مبلغا يتراوح بين خمسة وعشرين قرشا وثمانية وثلاثين قرشا أي أكثر مما يقبضه صاحب المقاطعة ببضع مرات . أن هذا الحساب يعطينا رغم تبسيطه صورة عن مردود الملكية المطلقة (٦٦) .

والى جانب المداخل المرتفعة كانت الملكية المطلقة تتمتع بميزات أخرى على جانب كبير من الأهمية في ظروف العلاقات السلعية النقدية الآخذة في التطور ومنها : حرية التصرف بالارض ، حرية نقل ملكيتها من يد لأخرى ، امكانية تعيين نوع المزروعات التي يجب على الفلاحين الشركاء ان يزرعوها .

ان كتب الاخبار تعكس لنا اهتمام القطاعيين بالحفاظ على الملكية المطلقة للارض وتوسيع نطاقها . ومن الامور التي لها دلالتها في هذا المجال سياسة الامراء الشهابيين الذين كانوا في القرن الثامن عشر يعاقبون اصحاب المقاطعات المذنبين لا بتجريدهم من مقاطعاتهم وانما بمصادرة املاكهم ، وبقطع اشجارهم (٦٧) معتبرين على ما يظهر ، ان هذا النوع من العقاب أكثر جدية .

ومنذ نهاية القرن الثامن عشر أصبح من الممكن ملاحظة النمو السريع للملكية المطلقة للاراضي . فاذا كان ك. ف. فولني قد لاحظ في الثمانينات من القرن الثامن عشر ان القطاعيين الدروز يملكون عشر الارض فان الشيخ الدرزي سعيد جنبلاط أصبح في الاربعينات من القرن التاسع عشر يملك بمفرده ثمن مجموع اراضي لبنان

٦٦ - ويمكن ان نصل الى نتيجة مشابهة على اساس المعطيات التالية : في

العقد الثالث من القرن التاسع عشر كان نصيب كل اصحاب مقاطعات لبنان ذوي الملكية المشروطة يصل الى ثلاثمئة الف قرش (اي بنسبة ٨٪ من مجموع ٢٧٥.٠٠٠ قرشا) بينما كان بعض ملاك الارض في لبنان يجنون من بساتينهم واحراش الزيتون والحقول مبلغا يتراوح بين المئتين والثلاثمئة الف قرش ، اي ما يعادل كل ما يقبضه جميع اصحاب المقاطعات تقريبا .

٦٧ - راجع مثلا : طنوس الشدياق : كتاب اخبار الاعيان في جبل لبنان ،

بيروت ١٨٥٩ ، صفحة ٢٧٥ .

٢٩

الجنوبي (٦٨) . اي اكثر مما كان يملكه كافة الاقطاعيين الدروز قبل خمسين سنة .

وكانت حيازة الارض تجري بطرق مختلفة : منها شراء الارض من الفلاحين الذين حل بهم الخراب (٦٩) ، واحياء الارض الموات واستعمال حق الاشتراك بالملكية ، واخيراً عن طريق الاستيلاء بالقوة على اراضي الفلاحين .

ومع تعاظم الملكية المطلقة أخذ يظهر عند الاقطاعيين الميل الى حماية ممتلكاتهم من الضرائب الباهظة . وقد استطاع اصحاب المقاطعات الدروز ذوو السطوة (والذين كانت ممتلكاتهم داخل مقاطعاتهم) ابان توزيع مقادير الضرائب بين مختلف المناطق ان يحصلوا لدى الامراء الحاكمين على تقليص الضرائب على مقاطعاتهم على حساب زيادة الضريبة المجبية من المسيحيين ، اما في داخل المقاطعات فقد كان اصحابها يحاولون توزيع الضرائب بحيث يقع العبء الرئيسي على الفلاحين والملاكين الصغار (٧٠) .

وكان من المحتم ان يقوي هذا من استياء الفلاحين وان يولد تناقضات داخلية بين الكتل الدرزية والمارونية الاقطاعية . وكانت الملكية المطلقة تتيح للاقطاعيين تكويس مقادير ضخمة

D. Urquhart, The Lebanon..., t. II, p. 190.

— ٦٨

وقد كتب ب. ادواردس في عام ١٨٦٠ عن اسر درزية تملك سدس الاراضي .
(R. Edwards, La Syrie 1840-1862, p. 55).

٦٩ — لقد ذكر الرحالة الاوروبي ج. دانديني اخباراً عن تجريد الفلاحين من الارض لقاء الديون في نهاية القرن السابع عشر ، كما يمكن ان نطلع على مثل هذه المعلومات لدى رحالة القرن الثامن عشر في

« Voyage du Mont Liban du R.P. Jerome Dandini », Paris, 1685, p. 89.

و « رحلة قيم اللير بينوس عبر ايطاليا الى مصر وجبل لبنان وارض الميعاد واورشليم . مترجم عن الالمانية ، بطرسبورج ١٧٩٣ ، صفحة ١٥٤ — ١٥٥ .
٧٠ — كتب ك. م. بازيلى في مستهل العقد الرابع من القرن التاسع عشر انه كان يوجد في لبنان « مبدأ فاسد تهمتع حسيبه اراضي الشيوخ والامراء بافضلية تامة ، وتقع كل الاعباء على الملاك الصغار من الكاچين » (اسرخ) « السفارة في القسطنطينية » .

٤٠

من النقود (٧١) جرت العادة على عدم توظيفها في الاقتصاد الزراعي . وكان بعض الاقطاعيين يحولون نقودهم المكدسة الى رأس مال تجاري وربوي ويستعملونها لبناء الدكاكين والمخازن وابنية السكن للاجرة . وقد كان الامير ملحم شهاب مثلاً يجني من البيوت والدكاكين ريعاً قدره ٤٠٠ فرنك استرليني (حوالي ٤٤ الف قرش) . وفي منتصف القرن التاسع عشر أخذ بعض اصحاب رؤوس الاموال يوظفون رؤوس اموالهم في الصناعة . وقد شارك الشيخ يوسف عبد الملك مثلاً في انشاء مصنع لفزل الحرير مع التجار الانكليز (٧٣) .

وكانت النتيجة هي تشكل فئة مرتبطة اقتصادياً بالبورجوازية الناشئة داخل الطبقة الاقطاعية . بيد ان قسماً لا يستهان به من الاقطاعيين السوريين كانوا يبذرون مداخيلهم دون انتاج ، ولم تستطع عقاراتهم التي ازدهرت ابان الاقتصاد الطبيعي ان تصمد امام ضغط العلاقات السلعية المالية ، وهذا ما ادى الى افتقارهم ثم افلاسهم . وكان هذا احد مظاهر ازمة الاقتصاد الاقطاعي . ان المصادر غالباً ما تتحدث عن الديون الكبيرة التي استقرضها الاقطاعيون من التجار والمرايين . والامر الذي ادى الى تعقيد العلاقات المتبادلة بين الفئة الاقطاعية وفئة التجار والمرايين . (ان التناقضات بين الاقطاعيين الدروز وموئنيهم من التجار المسيحيين ومرايبي دير القمر قد لعبت دورها في حوادث الاربعمينات من القرن التاسع عشر) .

وهكذا كانت تزداد قيمة واهمية الملكية الاقطاعية المطلقة بالنسبة لغيرها من اشكال ملكية الارض مع تطور العلاقات السلعية — النقدية . وكان توسع نطاقها يجري بشكل رئيسي عن طريق

٧١ — لقد بلغ مدخول احد اقوى المشايخ في مستهل القرن التاسع عشر وهو

الشيخ بشير جنبلاط مليون قرش :

(J.L. Burckhardt, Travels in Syria..., p. 196).

وقبض اقطاعي كبير آخر من بساتين الزيتون فقط ريعاً قدره ١٥ الف جنيه استرليني (١٦ مليوناً و ٥٠٠ ألف قرش) :

(D. Urquhart, The Lebanon..., vol. I, p. 183).

(D. Urquhart, The Lebanon..., vol. II, p. 285).

— ٧٢

٧٣ — اسرخ « السفارة في القسطنطينية » .

الاستيلاء على اراضي الفلاحين . واصبحت مسألة الارض قضية حيوية ولهذا فقد ظهرت لدى الفلاحين ابان الحركة الفلاحية في السنوات الاربعين والخمسين من القرن التاسع عشر نزعة استعادة الاراضي التي انتزعها الاقطاعيون منهم .

استثمار الفلاحين للارض

ان وجود ملكية اقطاعية كبيرة للارض لم يكن يعني عادة وجود اقتصاد اقطاعي ضخم . ففي لبنان ، كما في كافة بلدان الشرق كان الفلاحون الشركاء التابعون يعملون في استثماراتهم الصغيرة المبعثرة في اراضي الاقطاعيين .

وكان استثمار الفلاحين للارض في لبنان يتم بشكلين : بشكل ملكية فلاحية صورية (٧٤) وبشكل استئجار بالشراكة .

وغالبا ما كان الفلاحون في مناطق لبنان الجبلية وعلى الساحل ملاكا للاراضي المزروعة التي كانت تدخل تحت حوزتهم على اساس حق الملك في اغلب الاحوال . وكانت تنعدم هنا الملكية المشاعة للاراضي المزروعة بعكس ما كان يجري في سوريا السهلية وفي سهل البقاع حيث كانت ملكية الاراضي المفلوحة مشاعية .

ان انعدام المعطيات الاحصائية كلية لا يسمح بتحديد نسبة حجم الملك الفلاحي ونحن نعرف بوجوده من اشارات ك . ف . فولني (٧٥) و ك . م . بازيلي ، و ه . غيز و ك . د . بيتكوفتش (٧٦) .

٧٤ - تسميتنا الفلاح مالكا هي تسمية اصطلاحية اذ انه لم يكن يملك سوى حق حرية التصرف بأرضه وكان من الاصح ان نسمي هذه الملكية « بالاستعمال الحر » من نوع Freehold الانجليزي و Cens الفرنسي اذ ان الفلاح كان يدفع من أرضه الربع اقطاعي الذي يذهب قسم منه للسيد صاحب المقاطعة التي يعيش فيها الفلاح وقسم للخزينة .

٧٥ - يذكر ك . ف . فولني ان كل فلاح « يستثمر بنفسه ارضا صغيرة يمتلكها او يستأجرها » :

(C.-F. Volney, Voyage en Egypte et en Syrie, vol. 3, p. 146).

٧٦ - كتب ك . د . بيتكوفتش « ان كل قاطن على العموم يملك منزلا له وقطعة غير كبيرة من الارض يزرعها قمحا او يستعملها لزراعة انواع معينة أخرى » . « لبنان واللبنانيون » صفحة ١٥٢ .

كما انه من المتعذر تحديد الحجم الوسطي للاراضي العائدة للاقتصاد الفلاحي في لبنان اواسط القرن التاسع عشر . ان انعدام الملكية المشاعية للارض وعدم اعادة تقسيمها ساعدا على نشوء تذبذبات قوية في احجام هذه الملكية . وتشهد معطيات انيس فريحة قلى ان عددا قليلا فقط من الفلاحين اللبنانيين كان يمتلك ارضا يكفي مدخولها لاعالة الاسرة . ومن المرجح ان غالبية الفلاحين كانت لا تملك سوى قطعة صغيرة من الارض وكانت تستأجر الارض باستمرار على اساس الشراكة ، كما كان يفعل سكان منطقة بشري الكبيرة في شمال لبنان ، خاصة الذين استأجروا قطعا من الارض في البقاع (٧٧) .

وغالبا ما كانت الملكية الفلاحية مثقلة بالديون ، وقد اصبح تجريد الفلاحين الذين حل بهم الخراب من اراضيهم في القرن التاسع عشر ظاهرة شائعة . وكان من اسباب حرمان الفلاحين من الارض كذلك التقسيم المستمر للارض بين الورثة (٧٨) .

وبما ان الاستملاك الحر للاراضي القفر كان محدودا في لبنان فان المصدر الاساسي الذي ظل يعمل على تفتيت الارض الى ملكيات صغيرة هو الشراكة بالمقارسة .

وقد كان هذا الشكل من اشكال الشراكة يجري كالتالي : يقدم مالك الارض للفلاح قطعة من الارض غير المزروعة لفلاحتها وغرسها بالاشجار . وخلال مدة معينة بعد ان يبدأ البستان باعطاء الثمر يتم تقسيم الارض ويعتبر الفلاح مالكا لنصف او ثلث او ربع الارض او اي قسم آخر منها واهيانا يصبح مالكا لحصة مماثلة من المنزل الذي يعيش فيه . وكان امتلاك الفلاح للارض يجعله مرتبطا بالاقطاعي ارتباطا وثيقا بحكم صغر الارض والديون التي تراكت عليه في فترة انتظار اثمار البستان . (وقد كانت الفترة اللازمة لنضج المحصول الاول من التوت تتراوح بين ثلاث وخمس

J.F. Michaud et J.J. Poujoulat, Correspondance... vol. VI, _ ٧٧
p. 264.

٧٨ - يكتب انيس فريحة : كان الامر يصل الى حد ان ما يقسم بين الورثة لم يعد قطع الارض بل اغصان التوت الضخمة التي يتغذى دود القز على اوراقها ومحصول الزيتون : (انيس فريحة ، حضارة في طريق الزوال ، القرية اللبنانية ، بيروت . ص ١٢١) .

سنوات ومن العنب بين أربع وست سنوات ومن الزيتون بين عشر واثنتي عشرة سنة (٧٩) . ومثل هذا الفلاح يعتبر شريكاً لقطاعي في المحصول وفي ملكية الأرض .

وقد ساعد الاستئجار على أساس المفارسة في فترة تعاظم التباين بين الفلاحين على نمو ملكية كبار الفلاحين للأرض . وكان هذا النوع من الاستئجار منتشراً في أراضي الأمراء الشهابيين وقد أدى إلى زيادة ملكية الفلاحين للأرض في لبنان الغربي حيث كانت تنبسط أملاك الأمراء .

وقد لاحظ د . شيفاليه أن أسلوب المفارسة نادراً ما كان يصادف في الشمال (شمال الجبل - المغرب) حيث كانت تستخدم التناقضات الطبقيّة الصدامية بين القطاعيين والفلاحين بسبب حرمان الفلاحين من الأرض . ففي هذه المناطق بالذات حدث تمرد كسروان الذي جرى خلاله تقسيم أراضي القطاعيين (٨٠) . ولكن لا ينبغي أن ننسى أن المشاركة في الملكية نتيجة أسلوب الاستئجار بالمفارسة كانت تجعل من الفلاح مالكا غير مطلق الصلاحية . فالقطاعي الشريك في الملك كان يملك حق الشفعة (أي حق بيع الأرض وإيجارها) . وكان القطاعي في بعض الحالات يملك الحق في دفع ثمن قطعة الأرض للفلاح الشريك وطرده منها (٨١) . ولم تكن الملكية المشتركة تنتج فقط عن الاستئجار بالمفارسة الذي كان الفلاح يمتلك الأرض بواسطته بل ونتيجة عملية معاكسة، أي شراء القطاعي جزءاً من أرض الفلاح أو بالاستيلاء عليها لقاء الديون .

وقد كانت عمليات الماكية المشتركة للأرض من قبل الفلاح والقطاعي في لبنان القرن التاسع عشر شائعة نوعاً ما : ويتحدث عن هذا خاصة . بوركهارت : « كانت ولاية الشوف بأسرها تحت سلطته (سلطة الشيخ بشير جنبلاط - المؤلفة) وكان يعتبر شريكاً لكافة الدروز تقريباً الذين يملكون في هذه المنطقة » (٨٢) وقد أكد

د . اوركوارت هذه المعلومات في الأربعينات من القرن نفسه (٨٣) . وهكذا فقد أدخل ك . ف فولني وك . م . بازيلي و . غير وك . د . د . بيتكوفتش في عداد الملاك ، أصحاب الأرض الذين لم يكن باستطاعتهم أن يديروا اقتصاداً مستقلاً في أراضيهم ولذلك فقد كانوا يستأجرون باستمرار أراضي القطاعيين .

وقد كان الاستئجار شكلاً آخر من أشكال استثمار الفلاحين للأرض . فمن المعلوم أن قسماً من فلاحين لبنان لم يكن يملك أرضاً على الإطلاق . وقد ذكر د . د . بيتكوفتش أن الفلاحين الذين لا يملكون أرضاً خاصة بهم يشكلون حوالي ١٠ ٪ من سكان لبنان (٨٤) وهم الذين يدعون بالشركاء .

إن العرف اللبناني يعرف أشكالاً متنوعة من المشاركة على درجة كبيرة من التعقيد أحياناً . وكانت شروط المشاركة تتعلق بنوعية الأرض والمزروعات وبوجود أو عدم وجود البذور وأدوات العمل والحيوانات لدى الفلاح وبملكية البيت الذي يسكنه الفلاح، وكان حجم الحصة التي يعطيها الفلاح الشريك للقطاعي من المحصول يتراوح بين الثلث والنصف (٨٥) . وإلى جانب هذا فقد كان الشركاء ملزمين بتدبير واجبات أخرى ، إذ كانوا يزودون مطبخ القطاعي بالطيور والبيض والجبن والسمن والحليب والأخشاب والفحم مجاناً . كما كانوا يعملون بالسخرة في بناء بيت القطاعي وما إلى هذا (٨٦) .

٨٣ - يكتب د . اركهارت : « ليس هنا من قرية الاسعيد بك (ابن الشيخ بشير جنبلاط) فيها بعض الأملاك مهما كانت حقيرة وشريحة حصة الفلاح الذي يشاركه في ملكها . إن الهدف من هذا النظام الذي يلتفت إليه هو السيطرة التامة من ناحية السلطة والحياسة التامة من ناحية الملكية . وهذا نفس لنا الأسلوب الذي اتبعه أبوه في حيازة ممتلكاته » .

D. Urquhart, The Lebanon, vol. I, p. 252.

٨٤ - ك . د . بيتكوفتش ، لبنان واللبنانيون ، صفحة ١٥٢ .

D. Urquhart, The Lebanon..., vol. I, p. 211.

٨٥ -

٨٦ - كتب الكولونيل الانكليزي ش . تشرشل الذي كان مقبلاً في لبنان « إن الفلاحين ، والعامة منهم للشيخ خاصة ، يقدمون له الهدايا من الطيور الداجنة والسكر والقهوة في مناسبات معينة وخاصة في العيد الكبير أو عندما تحتفل أسرة

←

٧٩ - فيليس ، فلاحو سوريا ولبنان . م . ١٩٥٢ ، صفحة ١٥٥ .

٨٠ - D. Chevallier, Aux origines des troubles agraires Libanais en 1858, p. 55.

D. Urquhart, The Lebanon..., vol. I, p. 240.

٨١ -

J.L. Burckhardt, Travels in Syria..., pp. 196-197.

٨٢ -

ولم يكن الشركاء في الغالب يملكون بيوتا خاصة بهم بل كان الاقطاعي هو الذي يقدم لهم المسكن مع الارض . وكانت ظاهرة عدم توفر البيوت الخاصة ، ظاهرة منتشرة في لبنان .

وليس عبثا ان يكتب انيس فريجة قائلا : « ... اذا قالوا عن انسان ما انه يملك منزلا كان هذا بمثابة مدح واجلال له في الوقت الذي كان فيه رهن المنزل او بيعه يلحق العار بالفلاح » (٨٧). وقد كانت تبعية الفلاح الشريك للاقطاعي تجعل وضعه اكثر تعقيدا . وكانت الاتفاقية الاسمية على الشراكة المنصوص عنها كتابيا او شفويا اتفاقية مؤقتة ولم يكن للفلاح اي حق في استعمال الارض بصورة دائمة (٨٨) . وكانت العلاقات بين الشريك والمالك في الواقع اعقد بكثير مما تنص عليه الاتفاقية : فالفلاحون الذين كانوا يملكون الارض ابا عن جد على اساس الشراكة ، كانوا يكتسبون حقوقا معينة فيها . ويقول ا. م. بير كينفيم : « كان الفلاح عادة يعتبر الارض التي يعمل فيها وكأنها معطاة له من اجل استعمالها الى الابد ، وخاصة اذا كانت الارض في السابق ملكا له ثم انتقلت الى حوزة الافندي لقاء الديون كما كان يحدث غالبا . ولم يكن استئجار الارض يعتبر استئجارا مؤقتا عاديا الا عندما كان الفلاح ، مستأجر ارض اقطاعي ، يملك حصة خاصة به من الارض في القرية المجاورة ، وغالبا ما كان الاستئجار في مثل هذه الحالة يستمر لمدة

الشيخ بميلاد أو عرس أو عند عودته بعد غيبة طويلة . وهم ملزمون أيضا أن يرافقوه تحت قيادته وعندما يطالب بهم ذلك في رحلاته الى الجبال . كما انهم يقدمون له الاحجار من المقالع والاختشاب من الغابات لبناء منزله بامتياز منه . وكان الشيخ لا يقدم لهم مقابل هذا العمل الاجباري سوى وجبة العشاء » .
(Ch. Churchill, Mount Lebanon a ten years' residence from 1842 to 1852..., vol. II, London 1853, pp. 285, 286).

٨٧ - انيس فريجة حضارة في طرق الزوال : القرية اللبنانية ، بيروت

١٩٥٧ ، صفحة ٢٨ .

٨٨ - يصف لنا د. شيفالييه وصفا دقيقا كيفية عقد الاتفاقية بين الشريك

ومالك الارض بالاستناد الى الوثائق .

(D. Chevallier, Aux origines des troubles agraires Libanais en 1858, p. 45).

سنة واحدة (٨٩) .

وتشهد بعض المعطيات على ان الاقطاعي لم يكن يتمتع بحق طرد الفلاح من الارض تعسفيا ، بل كان الاقطاعي الرامي الى الاحتفاظ بحقه الكامل في التصرف بالفلاح الذي يعيش في ارضه ، يحاول ان يقوي ارتباط هذا الفلاح بالارض . ومن المعلوم ان الاقطاعيين الدروز احتجوا بشدة ضد مشروع نقل الفلاحين (الموارنة) الذين يعملون في اراضيهم الى المناطق المارونية . وكان استغلال الاقطاعي للشريك الذي يعمل عند غيره يؤدي الى نزاعات بين الاسر الاقطاعية (٩٠) .

ان هذه الوقائع الاخيرة تدل على وجود اشكال متعددة من تبعية الفلاح للاقطاعي تبعية اقطاعية .

لقد تفق اكثر المعاصرين على ان العلاقة القنينة بين الفلاح والاقطاعي كانت معدومة في سوريا ولبنان خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر . ومع هذا فان مما لا جدال فيه وجود عدم المساواة في الحقوق بين الفئات الاجتماعية كشكل من اشكال تبعية الفلاحين للاقطاعيين في لبنان ، وقد كان هذا الشكل يتجلى في انعدام حقوق الفلاحين السياسية وانعدام التساوي امام المحاكم المدنية والجنائية وفي خضوع الفلاح للحكام التي تصدرها محكمة سيده وفي ارهاقه بالضرائب الى الحد الاقصى (كان رجال الدين والاقطاعيون العلمانيون يتمتعون بامتيازات ضريبية) . وكان عدم المساواة بين فئة الفلاحين وغيرها من الفئات الاجتماعية في لبنان مدعوما بالكثير من التقييدات في الحياة العامة اليومية (من ناحية الملابس والاسلحة واسلوب التوجه الى الشخص وما الى هذا) . وقد وصف الفلاحون وضعهم في بدء الحركة الفلاحية في الخمسينات من القرن التاسع عشر على لسان العقيلي الذي كتب يقول : « واما الرعايا فأخذوا يلهجون فيما بينهم عن هذا الصنيع معتدين ذواتهم انهم صاروا كالعبيد بيد المقاطعية وما عاد لهم

٨٩ - ا. م. بير كينفيم ، الوضع الاقتصادي الراهن في سوريا وفلسطين

م. ١٨٩٧ ، الصفحتان : ١٤ - ١٥ .

٩٠ - أسرخ « السفارة في القسطنطينية » ويصف لنا ك. م. بازيلي الصدام

الذي جرى في آب عام ١٨٤٢ في قرية غزير بين المشايخ لان أحد الفلاحين ترك مسنده « لخدم سيدا آخر » .

قول ولا مشورة في شيء » (٩١) . ولكن الى جانب عدم المساواة الطبقة بالنسبة لكل الفلاحين في لبنان فقد كان هناك شكل آخر من التبعية الاقطاعية اثقل من الاول منتشر بين بضع فئات من الشركاء الذين يطلق عليهم اسم « اهل سمية » او بين غالبية الشركاء (٩٢) . وكانت هذه الفئات تؤدي الخدمة العسكرية لدى الاقطاعي فضلا عن تقديم قسم من المحصول له وتزويده بالمنتجات الزراعية والقيام بأعمال السخرة . كما كانت هذه الفئات تخضع كلية لراي الاقطاعي في اختيار نوع المزروعات وتنظيم الاستثمار . وكان الاقطاعي هو الذي يحاكم هؤلاء الشركاء . كما ان حريتهم الشخصية كانت محدودة : إذ أن من الصعب عليهم ان يفادروا الارض ولا يحق لهم الزواج الا باذن من الاقطاعي . وكانت اوضاع التبعية الاقطاعية تنتقل بالوراثة (٩٣) ولم تكن مدعومة بالقوانين بل كانت تعتمد في وجودها على حكم العادة .

وهكذا فقد كان الفلاحون في لبنان يمثلون ككل فئة منقوصة الحقوق في المجتمع الاقطاعي . وكان ما يجعل اوضاع الفلاحين داخل هذه الفئة متباينة هو ان بعض الفلاحين كانوا يملكون الارض التي يعملون فيها وبعضهم يعمل كمستأجر-شريك عند الاقطاعي . وكان الفلاحون المالكون للارض اسما لا يتمتعون بكامل الحقوق التي تتمتع بها الفئات الأخرى ولكنهم لم يكونوا مستبعدين شخصيا، اما الفلاحون الشركاء فقد كانوا لا يزالون تابعين لشخص الاقطاعي . في حين كان الفلاحون المالكون لقطع من الارض ليست كبيرة والمستأجرون لاراضي الاقطاعيين ، يشغلون مكانا متوسطا بين هاتين الفئتين . . وكان وضعهم الحقوقي على ما يظهر يجمع بين

٩١ - ثورة وفترة صفحة مجهولة من تاريخ الجبل من ١٨٤١ الى ١٨٧٣ بيروت ١٩٢٩ ، ص ٧٢ .

٩٢ - المصدر نفسه ٥٢ - ٥٤ .

I. Aouad, Le droit prive..., pp. 130-133.

- ٩٣

كانت العادات القديسة في لبنان تقضي أن يدهن الطفل بعد ثلاثة ايام من ولادته بالزيت والاس (رمز الوداعة والقوة) وكان الامراء اصحاب المقاطعات يبعثون بالزيت والاس الى اسرة الشريك التي ولد فيها الطفل كناية عن ارتباط هذا الطفل بالقطاعي .

عدم المساواة في الحقوق مع بقية الفئات وبين سمات التبعية الشخصية .

الضرائب والريع العقاري

كان الريع الاقطاعي في لبنان طبقا لاشكال ملكية الارض يتخذ اما شكل الريع - الضريبة التي تجبها الدولة بصفتها المالك الاعلى للارض - والتي يعفي اصحاب المقاطعات منها جزئيا او شكل ريع يأخذه المالك من الشريك .

وكان نظام الضرائب في لبنان يتصف بسمات خاصة تميزه عن نظام الضرائب في سوريا وبقية مناطق الامباطورية العثمانية . اما الاصلاحات التي اجرتها الحكومة العثمانية في نظام الضرائب خلال فترة التنظيمات فلم تمس في الواقع لبنان ، ولم تحدد الحكومة فيه سوى المقدار العام للجزية المجبية منه . ويرجح ان مقادير الضرائب التقليدية في لبنان قد بقيت على حالها حتى عام ١٨٦١ .

وكانت الضريبة الاساسية في البلاد هي المفروضة على الاشجار المثمرة أو الارض المزروعة وتدعى الاموال الاميرية او الميري واحيانا تدعى المال ونادرا جدا ما تدعى الخراج .

وكانت الاموال الاميرية تحدد بأشكال مختلفة .

ويخبرنا ك . ف . فولني ان الميري كلن يجبي من البساتين والكروم حسب عدد الاشجار بينما كان يجبي من الاراضي المزروعة حسب مساحة الحقل . ويذكر ك . ف فولني أن ضريبة كسل شجرة (٩٤) توت في لبنان كانت تعادل ثلاثة مجيديات بينما كانت ضريبة المئة دالية قرشا واحدا . وقد لاحظ بوركهاردت بعد خمسين سنة وجود اسلوب مشابه في تقدير الضريبة المفروضة على الكروم في رحلة (٩٥) . بيد أن الضريبة المفروضة على اشجار التوت (وكان يطلق عليها اسم بزرية) كانت تتناسب مع كمية ما يتم الحصول عليه من خامات الحرير واوراق التوت . وكانت

٩٤ - C.-F. Volney, Voyage en Egypte en Syrie, vol. 2 pp. 192-193.

J.L. Burckhardt, Travels in Syria..., p. 29.

الأوراق تقدر بالاحمال ويتشكل الحمل الواحد عادة من أوراق ثماني أو عشر اشجار . وكانت اصفر المزارع والتي تنتج من ١٠ الى اثني عشر حملا توفر الغذاء ليرقات اوقية من البيوض . ويقدر د . شيفاليه ان الميرى الذي كان يجبى في اواسط القرن التاسع عشر من اصحاب مزارع التوت التي يتراوح مدخلها من عشرة احمال الى اربعين حملا كان يتراوح بين قرشين وتسعة قروش سنويا (٩٦) . وقد وصف ه . غيز بالتفصيل اسلوبا آخر من اساليب تقدير الميرى بما يتناسب مع مدخول الأرض : « تدفع الضريبة على الأرض المزروعة حسب مساحة الأرض من الدراهم ويساوي الدرهم قطعة من الأرض تتسع لبدر مد من القمح (حوالي تسعة كيلو غرامات) . وتوزع تبعا لنوعية ومدخول الأرض فيفرض قرش واحد على مساحات تتراوح بين سبعة دراهم وعشرين درهما . وقد ازدادت هذه الضريبة في الوقت الحاضر الى ثمانية امثال ما كانت عليه في البدء وهي ترتفع الى الستة عشر مثالا اثناء الماشقات » (٩٧) .

وقد لاحظ ك . م . بازيلى ايضا كيف كان يزداد الميرى عمليا عما كان عليه في البدء . وكتب يقول : « تبعا للعادة القديمة في لبنان كانت الضريبة عبارة عن حجم الميرى الذي فرض لأول مرة والذي يعتبر اساسا لنظام الضرائب مضاعفا عددا ما من المرات » (٩٨) . وخلال ذلك كانت المناطق المختلفة في لبنان تدفع احماسا مختلفة من الضرائب في الوقت نفسه . (ففي بدء القرن التاسع عشر كانت زحلة تدفع مالا اميريا مضاعفا ومنطقة بعلبك تدفع ثلاثة امثال الحجم الاول للميرى) (٩٩) .

٩٦ — D. Chevallier, Aux origines des troubles agraires en 1858, p. 50.

٩٧ — H. Guys, Relation..., t. II, p. 141.

وهكذا فان حجم الضريبة في رأي غيز يتحدد لا بالنسبة للحبوب فقط بل وبالنسبة للأشجار المثمرة ايضا . ويذكر ك . د . بيتكوفتش ان الضريبة المفروضة على الأرض ظلت تتحدد حسب نظام الدراهم حتى خلال الثلث الاخير من القرن التاسع عشر « لبنان واللبنانيون » صفحة ١٥١ .

٩٨ — اسرخ « السفارة في القسطنطينية » .

٩٩ — J.L. Burckhardt, Travels in Syria..., p. 61.

وقد كان حجم الميرى في لبنان اقل منه في سهول سورية ومع ذلك فقد كان يكلف الفلاح ٢٥٪ من محصوله وربما كلفه احيانا نصف المحصول . كتب بوركهارت يقول : « لقد كانت نسبة حجم الضرائب المفروضة على خامات الحرير في لبنان تتراوح بين ٢٠ و ٢٥٪ من اصل المحصول — اما نسبة الضرائب المفروضة على الحبوب فتزيد عن خمسين بالمائة » (١٠٠) ويرى غيز ان نسبة ضريبة الميرى في لبنان كانت تتراوح بين ١٥ بالمائة و ٢٥ بالمائة من اصل محصول الفلاحين (١٠١) .

وكان الميرى في لبنان يجبى نقدا و احيانا كضريبة عينية حسب دفاتر الضرائب الريفية ، التي كانت توضع على اساس الاحصاءات المتكررة خلال فترات زمنية مختلفة . وكانت الضريبة المفروضة على الاشجار المثمرة تجبى عادة نقدا ، اما ضريبة الحبوب فتجبى عينا .

ويقوم الشيخ المحلي بتوزيع الضريبة على القرية ، ويجبىها له اعوانه ليقدمها لصاحب المقاطعة او لجباة الضرائب الحكوميين . وفي حالة تأخر الدفع كانوا يرسلون الى القرية فصيلة من الجنود لتعيش عند الفلاحين وتفقرهم .

ويقول ك . م . بازيلى ان الضريبة في لبنان ظلت مقتصرة على الأرض حتى اناية القرن الثامن عشر (١٠٢) ، عندما فرض الامير يوسف الشهابي الجزية التي يدعونها في لبنان (الجوالي) . وكان مقدار الجزية التي تؤخذ من الرجال يتراوح بين خمسة وتسعة قروش وذلك حسب الوضع العائلي ومكان السكن (١٠٣) . وليس لدينا مواد تثبت وجود ضرائب كانت مفروضة على المواشي في لبنان . ومن المعلوم ان الامير الحاكم قد فرض في نهاية القرن

Ibid., p. 169.

١٠٠ — H. Guys, Relation..., t. II, p. 143.

١٠١ — ك . م . بازيلى يقول « في لبنان ، كما في سائر البلدان الاسيوية

لم يكونوا قديما يعرفون سوى الضريبة المباشرة التي تفرض على مزارع توت القز والزيتون وهما النوعان الوحيدان من الاشجار المثمرة في لبنان . وحتى الخراج لم يكن يفرض على المسيحيين من اللبنانيين ... فقد فرض الامير في البدء جزية على بكرة دود القز ثم فرض الخراج ثم فرض الضرائب على المواشي والمطاحن وما شابه ذلك » « سوريا وفلسطين » ص ٦٣ .

١٠٢ — H. Guys, Relation..., t. II, p. 140.

الثامن عشر ضرائب على المواشي . وتشير وثائق لبنان الشمالي في القرن الثامن عشر إلى وجود ضريبة على سوق المواشي إلى المراعي الصيفية وضريبة على أيوائها في أماكن معينة في الشتاء .

وعدا الضرائب النظامية كانت تفرض كذلك رسوم فوق العادة ، كتلك التي تذكرها كتب أخبار القرن الثامن عشر مثل جمع الأغذية والعلف للجنود (١٠٤) ، والضرائب المفروضة على العمائم والأخفاف والأقمشة المعدة من أجل المكاور (العمائم) (١٠٥) . والضريبة المفروضة على روث الماعز (كسماد) والمذكورة في شكوى أهالي شمالي لبنان في عام ١٨٤٤ وما شابه ذلك .

ومن آونة لأخرى كان أهالي لبنان ملزمين بالقيام بأعمال السخرة لصالح الدولة أو لصالح الأمراء اللبنانيين . وقد تضخمت هذه الأعمال في فترة السيطرة المصرية في الثلاثينات من القرن التاسع عشر ، وأصبحت تستغل في بناء الطرق والتحصينات وقنوات تحويل مجرى الماء والقصور وفي استخراج الثروات المعدنية . وكان يدخل ضمن أعمال السخرة تزويد المناجم بالأخشاب والأكياس ونقلها إلى مكان بناء القلاع . وأحيانا يدفع مبلغ ضئيل من المال لقاء هذه الأعمال .

كما كانت الضرائب تفرض كذلك على فروع الصناعة المنزلية التي تحولت إلى إنتاج حرفي فقد فرض الأمير بشير الضرائب على عجلات حل شرانق الحرير وعلى الطواحين وبيوض دود القز والمصانع (١٠٦) .

وعلاوة على الاتاوات والضرائب المباشرة كانت توجد رسوم غير مباشرة كالرسوم الجمركية والرسوم المفروضة على الموازين وعلى أسواق البيع والشراء (البازار) . الخ . .

كما كانت هناك فئة خاصة من الرسوم تتشكل من الغرامات والمبالغ التي تجبى لقاء فصل المحاكم في القضايا (فقد كان الحاكم يقبض لقاء الفصل في قضية مدنية نسبة خمسة بالمائة من أصل المبلغ المختلف عليه) ، والمبالغ المجبية لصالح رجال الدين الاسلام والمسيحيين (لقاء القيام بطقوس الختان والاعراس والدفن وما

١٠٤ - أسد رستم ، بشير بين السلطان والعزیز ، بيروت ١٩٥٦ ، ص ٨ .

١٠٥ - طنوس الشدياق كتاب أخبار ... صفحة ٤١٠ .

١٠٦ - أسرخ « السفارة في القسطنطينية » .

شابه ذلك ...) كما كان الاساقفة يفرضون ضرائب باهظة خاصة (١٠٧) . وقد تحولت هدايا العيد التي كان الشيوخ يجبرون الفلاحين على تقديمها إلى نوع مرهق جداً من أنواع الرسوم (١٠٨) . وهكذا فقد كان نظام الضرائب في لبنان يتناسب تماماً مع طابع اقتصاده الاقطاعي : انعدام وحدة النظام الضرائبي ، سيادة الاشكال والاساليب التقليدية في جبي الاتاوات ، تغلب الرسوم المباشرة وعلى رأسها ضريبة الأرض المزروعة (وبتعبير أدق ضريبة الأشجار المثمرة والأرض المزروعة) التي تتراوح بين ربع ونصف المحصول ، التعسف في تحديد حجم الضرائب . وكانت الصفة التي تميز نظام الضرائب هذا هي عدم التساوي الطبقي في دفع الرسوم . فقد كتب ك . م . بازيلي يقول « ان الشيوخ ، والأمراء ، والأشخاص الذين يخدمون لدى الدولة هم أشخاص ذوو امتيازات ، معفيون من الضرائب » (١٠٩) . وكان الحكام اللبنانيون يمنحون الإقطاعيين أحيانا حق الحصانة الضرائبية (١١٠) . كما كان رجال الدين معفيين من الجزية والسخرة الحكومية وعدد من الرسوم (١١١) .

وقد أدت التغيرات الاقتصادية التي حدثت في البلاد منذ النصف الثاني من القرن الثامن عشر إلى نمو الضرائب .

ففي السبعينات من القرن الثامن عشر بلغت الجزية التي كان يأخذها البشوات الأتراك من لبنان مئة وخمسين الف قرش وارتفعت في نهاية القرن نفسه إلى ٦٠٠ الف (١١٢) ، أما في نهاية العشرينات من القرن التاسع عشر فقد وصلت إلى مليونين وخمسمئة الف قرش . وقد جبت السلطات المصرية من لبنان حتى نهاية حكمها

١٠٧ - يذكر بوركهاردت ان ضرائب الاساقفة كانت تعادل نصف قرش عن كل رجل بالغ : (J.L. Burckhardt, Travels in Syria..., p. 28).

١٠٨ - « ثورة وفئة ... » صفحة ١٧٨ .

١٠٩ - ك . م . بازيلي : سوريا وفلسطين ، أوديسا ١٨٦٢ ، الجزء الثاني ، الصفحة ١٤١ .

١١٠ - طنوس الشدياق « كتاب ... » صفحة ٣١٤ .

١١١ - I. Aouad, Le droit prive..., pp. 27, 29.

١١٢ - ك . م . بازيلي : سوريا وفلسطين في ظل الحكم التركي ، م ١٩٦٢ ، صفحة ٦٥ .

هناك حتى الثمانية ملايين وسبعمئة وخمسين ألف قرشا (١١٣) . وهكذا فمنذ النصف الثاني من القرن الثامن عشر وحتى عام ١٨٣٠ ازدادت الضرائب في لبنان بمعدل المرة ونصف المرة ، اما في عام ١٨٤٠ فقد ازدادت بمقدار خمس مرات مع اعتبار انخفاض سعر القرش . كما ان هناك شواهد اخرى على استفحال الاضطهاد الضرائبي في النصف الثاني عشر وبدا القرن التاسع عشر . وقد تجلى هذا في تقوية العسف والاكراه لدى جباية الضرائب . وقد ادى الارتفاع الكبير في مقادير الاتاوات في الثلاثينات من القرن التاسع عشر اي في فترة السيطرة المصرية الى اقمار الاهالي فافقرت عشرات من قرى ولاية صيدا واضطر سكان المناطق الواقعة بين طرابلس وحماه الى الهجرة واصبح سكان عكار(شمالي لبنان) يعيشون في فقر وضنك (١١٤) .

ومنذ الثمانينات من القرن الثامن عشر تتكاثر الانباء في كتب الاخبار عن مقاومة اهالي لبنان لجباية الضرائب . اما في عام ١٨٢٠ فقد هبت في لبنان انتفاضة فلاحية مسلحة ، كما كان من اسباب انتفاضة الفلاحين في عام ١٨٤٠ ثقل عبء الضرائب المرهق . وغالبا ما كان الاقطاعيون يساندون هذه الحركات عندما كانوا يمتلكون اكثرية الاراضي ملكية مطلقة وكان تخفيض الضرائب يعود عليهم بالفائدة .

اما الشكل الثاني للربيع في لبنان فقد كان عبارة عن المبلغ الذي يجنيه الاقطاعي من الشركاء الذين يعملون في ارضه . وكان هذا الربيع يدفع عادة على شكل منتجات زراعية ، مع أنه كان يلاحظ ميل بعض الاقطاعيين لاستبداله بربيع نقدي او حتى بربيع عمل وذلك بتأثير تطور العلاقات السلعية النقدية آنذاك .

ويذكر ك . اوركهارت بهذا الصدد ان رهبان دير مار حنا كانوا يرتدون سابقا ثيابا صوفية وقطنية من النسيج المنزلي يقدم الفلاحون موادها الخام للدير كربيع اقطاعي . وقد وجد ك . ف فولني في هذا الدير فنا حرفيا متطورا وأشار الى هذا بقوله « يزاول الرهبان انواعا من المهن الضرورية او المفيدة للدير . فأحدهم يعمل حائكا ويجهز الانسجة والثاني يعمل خياطا ويخيط

الثياب والثالث يعمل اسكافيا ويصنع الاحذية والرابع — ينحت الاحجار ويدير البناء » ثم يأتي على ذكر الطباخين والخبازين والطباعيين والمجلدين وغيرهم (١١٥) . بيد ان الدير اصبح في الاربعينات يشتري الثياب المصنوعة من القطن الاميركي ثم يقوم الرهبان بصنفها باللون المناسب . والى جانب اعراض الدير عن الحرفة المنزلية التي تعتبر احدى دعائم الاقتصاد العيني ، فقد حول الدير فلاحيه الى الربيع النقدي . ويشير ك . اوركهارت الى « ان الفلاحين كانوا مستعدين لتقديم القطن والصوف بكل رحابة صدر ولكن الرهبان كانوا يفضلون القروش » (١١٦) . بيد ان تغيير ربيع المنتجات الزراعية لم ينتشر في لبنان وسوريا انتشارا واسعا: فقد ظلت الشراكة كالسابق تقوم على الربيع العيني .

ان الطلب المتزايد على المنتجات الزراعية في السوق الخارجي وتدهور الاقتصاد الفلاحي قد جعل بعض الاقطاعيين يميلون لاجاد اقتصادهم السلعي بالاستفادة من عمل السخرة . ان ك . م . بازيللي قد تحدث اكثر من مرة عن تطبيق ادخال السخرة . وقد كتب يقول : جرت العادة على ان يعمل الفلاحون في مزارع المشايخ والامراء والاديرة حسب مبدأ المناصفة « لكن العديد من النبلاء ذوي النفوذ المتوارث منذ القديم فرضوا عادة استغلال عمل الفلاحين في اراضيهم دون مقابل » . وقد ذكر في مكان اخر ان « الفلاحين مضطرون لتقديم عملهم في ارض الاسياد بالمجان تقريبا » (١١٧) .

ولكن ربيع العمل ، شأنه شأن الربيع النقدي ، لم يكن واسع الانتشار في لبنان .

وقد أخذت المشاركة بشكلها المجرد تكتسب معنى اجتماعيا جديدا بالتدريج في الظروف الاقتصادية الجديدة . واخذ الشريك يتحول بالتدريج الى عامل زراعي .

ولكن هذه العملية كانت تجري ببطء شديد ، وليس بين ايدينا للأسف مواد كافية عن المشاركة لكي نرصد هذا التحول

١١٥ — C.-F. Volney, Voyage en Egypte et en Syrie, vol. 2., p. 326.

١١٦ — D. Urquhart, The Lebanon..., vol., II, p. 7.

١١٧ — اسرخ « السفارة في القسطنطينية » .

Adel Ismail, Histoire du Liban, t. IV, pp. 47-48.

Ibid., p. 45.

وليس باستطاعتنا سوى الإشارة الى بعض سماته .

تدل كتابات هـ . غيز وك . د بيتكوفتش وأم . بيركينغفيم على أن نوع المشاركة الذي أخذ ينتشر أكثر من غيره في القرن التاسع عشر هو الاستئجار لمدة قصيرة والذي لا يعطي الشريك أي حق في امتلاك الأرض بل يتركه معرضاً للطرد من الأرض متى أراد مالكيها ذلك . ولم يقتصر الأمر على حرمان الفلاح من حق ملكية الأرض في فترة تهدم الفلاحين وترديهم في هوة العوز في القرن التاسع عشر بل كان الفلاحون يفقدون أدوات العمل الزراعي وحيوانات الجر كذلك . وكان الاقطاعي اللبناني يقدم لمثل هؤلاء الفلاحين الأرض والأدوات وغالباً ما يضيف إليها الحيوانات والبذور . وعلاوة على ذلك فقد كان الاقطاعي يقدم للفلاح الغالب منزلاً للسكن ويسلفه مبلغاً من المال . ولقاء هذا كان الفلاح مضطراً للرضى بالحصة الدنيا من المحصول المجنى . وبهذا كانت تتداخل وتتسبك أشكال الاستثمار الاقطاعي والاستثمار الرأسمالي .

بيد ان تغيرات اشكال الربيع بقيت ظواهر مفردة ، وكان السبيل الرئيسي لزيادة دخل الاقطاعي هو الاستيلاء على ارض الفلاح وتحويله الى شريك .

وضع الفلاحين

كانت القرى في لبنان تتمركز في الجبال بالقرب من منابع المياه حيث توجد الأراضي الصالحة للزراعة . وكانت بعض القرى تتألف من خمسة أو ستة بيوت ، ويصل عدد بيوت البعض الآخر حتى الثمانين بيتاً . وكانت القرى الكبيرة تنقسم الى احياء تربط بين سكانها قرابة الدم ، وتشغل كلا منها اسرة ابوية كاملة تدعى بالبيت . واحياناً كانت تحتل الحي عشيرة مؤلفة من اقارب تجمعهم صلة قرابة واسعة .

وكانت الأراضي المشتركة ، والنظام الموحد للاستفادة من الأرض ومنشآت العمل العامة ، وعادة التعاون المتبادل تربط بين سكان القرية ربطاً وثيقاً .

وقد كانت تلحق بكل قرية مساحة معينة من الأرض . وتصادف في كتب الاخبار عبارات مثل « في ارض قرية يارون »

« قرب ارض السعديات » وما شابه ذلك (١١٨) .

وكانت الأرض تستعمل حسب نظام تقليدي يتناسب مع المصلحة الاقتصادية .

كما كانت مقسمة الى مدرجات أو جلول (الجبل عبارة عن قطعة من الأرض مفلوحة بعمق وجيدة التسميد ومحاطة بحيطان حجرية ، وعادة ما تكون متمركزة قرب القرية وتزرع بأشجار التوت والتبغ) وكروم (وهي اراض قليلة السماد وغير مروية ويزرع فيها العنب والأشجار المثمرة) وسليخ (وهي اراض عذراء أو بور بعيدة عن القرية وتزرع بالحبوب) وقلع (وهي اراض صخرية غير مستوية وصعبة المنال على الزارع ينبت فيها الصنوبر الايطالي وشرابة الراعي والصنوبر البري وتستعمل للرعي أو الاحتطاب ولغرس الأشجار المثمرة التي لا تحتاج الى عناية كبيرة . وكان اصحابها يزرعونها بالزيتون اذا توفرت لديهم الوسائل اللازمة) . وكان القسم الاعظم من هذه الأرض ملكاً لافراد معينين .

والقسم الباقي ملك للقرية بأجمعها وهو ما يسمى بالمشاع اي الأراضي المشاعة ، وكان يدخل ضمنها الأراضي الصخرية الموات ، والأراضي المغطاة بالأعشاب والمراعي والغابات وكلها تستعمل تحت اشراف مجلس القرية . وكانت مراعي القرية تستغل من قبل اهلها انفسهم لرعي مواشيهم فيها ولكنهم كانوا احياناً يتخلون عنها لقاء مبلغ معين للغرباء من اصحاب قطعان الماعز الذين يسوقون قطعانهم في الصيف الى الجبال . وكانت القرى التي تملك المشاع والفنية بأشجار الصنوبر البري تباع الأخشاب لاهالي المناطق الأخرى مرة واحدة خلال مدة تتراوح بين العشر سنوات والثلاثين سنة . أما مداخل المشاع فقد كانت تعود على سكان المنطقة (ولا يذكر انيس فريحة كيف كان يجري التوزيع) .

وكان فلاحو القرية يستعملون جماعياً بيدرس القمح الذي الذي ربما كان ملك واحد منهم كما كانوا يبنون المنحل ويستعملونه جماعياً - وهو مكان دافئ من أجل تفقيس بيوض دودة القز . وكانت عادة التعاون المتبادل في بعض الأعمال منتشرة بين سكان القرية (مثلاً عند جمع وتصنيف شرائق الحرير) .

وليس باستطاعتنا سوى الإشارة الى بعض سماته .

تدل كتابات هـ . غيزوك . د بيتكوفتش وأم . بيركينغفيم على أن نوع المشاركة الذي أخذ ينتشر أكثر من غيره في القرن التاسع عشر هو الاستئجار لمدة قصيرة والذي لا يعطي الشريك أي حق في امتلاك الأرض بل يتركه معرضاً للطرد من الأرض متى أراد مالكا ذلك . ولم يقتصر الأمر على حرمان الفلاح من حق ملكية الأرض في فترة تهدم الفلاحين وترديهم في هوة العوز في القرن التاسع عشر بل كان الفلاحون يفقدون أدوات العمل الزراعي وحيوانات الجر كذلك . وكان الاقطاعي اللبناني يقدم لمثل هؤلاء الفلاحين الأرض والأدوات وغالباً ما يضيف إليها الحيوانات والبذور . وعلاوة على ذلك فقد كان الاقطاعي يقدم للفلاح في الغالب منزلاً للسكن ويسلفه مبلغاً من المال . ولقاء هذا كان الفلاح مضطراً للرضى بالحصة الدنيا من المحصول المجنى . وبهذا كانت تتداخل وتتسبك أشكال الاستثمار الاقطاعي والاستثمار الرأسمالي .

يبد أن تغيرات أشكال الربح بعيت ظواهر مفردة ، وكان السبيل الرئيسي لزيادة دخل الاقطاعي هو الاستيلاء على أرض الفلاح وتحويله الى شريك .

وضع الفلاحين

كانت القرى في لبنان تتمركز في الجبال بالقرب من منابع المياه حيث توجد الأراضي الصالحة للزراعة . وكانت بعض القرى تتألف من خمسة أو ستة بيوت ، ويصل عدد بيوت البعض الآخر حتى الثمانين بيتاً . وكانت القرى الكبيرة تنقسم الى احياء تربط بين سكانها قرابة الدم ، وتشغل كلا منها اسرة ابوية كاملة تدعى بالبيت . واحياناً كانت تحتل الحي عشيرة مؤلفة من اقارب تجمعهم صلة قرابة واسعة .

وكانت الأراضي المشتركة ، والنظام الموحد للاستفادة من الأرض ومنشآت العمل العامة ، وعادة التعاون المتبادل تربط بين سكان القرية ربطاً وثيقاً .

وقد كانت تلحق بكل قرية مساحة معينة من الأرض . وتصادف في كتب الاخبار عبارات مثل « في أرض قرية يارون »

« قرب أرض السعديات » وما شابه ذلك (١١٨) .

وكانت الأرض تستعمل حسب نظام تقليدي يتناسب مع المصلحة الاقتصادية .

كما كانت مقسمة الى مدرجات او جلول (الجبل عبارة عن قطعة من الأرض مفلوحة بعمق وجيدة التسميد ومحاطة بحيطان حجرية ، وعادة ما تكون متمركزة قرب القرية وتزرع بأشجار التوت والتبغ) وكروم (وهي أرض قليلة السماد وغير مروية ويزرع فيها العنب والأشجار المثمرة) وسليخ (وهي أرض عذراء او بور بعيدة عن القرية وتزرع بالحبوب) وقلع (وهي أرض صخرية غير مستوية وصعبة المنال على الزارع ينبت فيها الصنوبر الايطالي وشرابة الراعي والصنوبر البري وتستعمل للرعي او الاحتطاب ولغرس الأشجار المثمرة التي لا تحتاج الى عناية كبيرة . وكان اصحابها يزرعونها بالزيتون اذا توفرت لديهم الوسائل اللازمة) . وكان القسم الأعظم من هذه الأرض ملكاً لافراد معينين .

والقسم الباقي ملك للقرية بأجمعها وهو ما يسمى بالمشاع اي الأراضي المشاعة ، وكان يدخل ضمنها الأراضي الصخرية الموات ، والأراضي المغطاة بالاعشاب والمراعي والغابات وكلها تستعمل تحت اشراف مجلس القرية . وكانت مراعي القرية تستغل من قبل اهله انفسهم لرعي مواشيتهم فيها ولكنهم كانوا احياناً يتخلون عنها لقاء مبلغ معين للغرباء من اصحاب قطعان الماعز الذين يسوقون قطعانهم في الصيف الى الجبال . وكانت القرى التي تملك المشاع والفنية بأشجار الصنوبر البري تبيع الاخشاب لاهالي المناطق الأخرى مرة واحدة خلال مدة تتراوح بين العشر سنوات والثلاثين سنة . أما مداخيل المشاع فقد كانت تعود على سكان المنطقة (ولا يذكر انيس فريحة كيف كان يجري التوزيع) .

وكان فلاحو القرية يستعملون جماعياً يدرّس القمح الذي الذي ربما كان ملك واحد منهم كما كانوا يبنون المنحل ويستعملونه جماعياً . وهو مكان دافئ من أجل تفقيس بيوض دودة القز . وكانت عادة التعاون المتبادل في بعض الأعمال منتشرة بين سكان القرية (مثلاً عند جمع وتصنيف شرائق الحرير) .

وقد كتب د . اوركهارت الذي زار جبل لبنان في الاربعينات من القرن التاسع عشر في معرض وصفه لاقتصاد الفلاح اللبناني: «... أن كل بيت يملك عددا من الاغنام وحيوانات للجر ويستأنس للثمار (يربي فيه دودة القز - ملاحظة من المؤلفة -) وحديقة وكرما ومسكبة على الاقل ان لم يكن لديه حقل . ويوجد في كل مبنى معصرة للزيتون ومحراث ، ومعصرة للعنب ومقص لجز الاغنام وسكين للبستنة وآلة نسيج ومفزل ورفش . كما يوجد خاوية لللبس في المطبخ ووعاء نحاسي للصباغ » (١١٩) وبالإضافة الى هذا يجب أن نذكر عدة الكدن والرحى والمذراة ... وما الى هذا .

وكانت الاعمال الزراعية تبدأ مع انقطاع الامطار الشتوية في شهر شباط اما في القرى الجبلية فبعد ان يذوب الثلج الذي يتراكم في الشتاء على ارتفاع يزيد عن الف ومئتي متر فوق سطح البحر . وكان الموسم الزراعي يبدأ عادة بتشذيب الكروم والاشجار المثمرة ، وبفلاحة الكروم والاراضي المزروعة باشجار التوت والمزروعات الربيعية فلاحه ثانية (الفلاحة الاولى تجري في الخريف بعد الامطار الاولى) وفي اذار ونيسان تبذر المزروعات الربيعية (الفرة والذرة الشامية والفول وما شابه ذلك) وتفرس الخضار وتعشيب ارض المزروعات الشتوية (القمح والشعير) . وفي النصف الثاني من نيسان وخلال شهر ايار يفرخ دود القز ويبدأ العمل الشاق لطعام اليرقة ويستمر هذا حتى حزيران - تموز حيث تتشكل الشرانق . ثم يجري ري المزارع وحقول القمح . ومنذ نهاية ايار وحتى تموز كان يجري الحصاد والدراس والتذرية بمقدار نضج المزروعات الخريفية . وفي تموز يبدأ جمع الثمار والعنب ، ثم يبدأ في اب جني الثمار الربيعية . وبعد الامطار الخريفية الاولى في تشرين الثاني تجري الفلاحة الاولى وبذر المزروعات الخريفية . اما في الشتاء فيقوم الفلاحون باصلاح الصواوين ومجاري المياه .

ان المستوى العالي (بالنسبة للقرية الاقطاعية) لاساليب الزراعة التكنيكية وبنية الاقتصاد المعقدة نسبيا واستعمال الارض بحذق وتعقل الى حد لا بأس به قد جعلت استثمار الفلاح اللبناني احسن حالا من استثمار الفلاح السوري الذي يعتمد على زراعة

الحبوب . وقد انعكس هذا على وضع الفلاح في لبنان . فقد كان وحالة القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر يلاحظون ثبات دعائم الوضع الاقتصادي في القرية اللبنانية وكانت الظروف السياسية احد العوامل المساعدة على هذا .

منذ نهاية القرن الثامن عشر بدأت اوضاع الفلاح اللبناني بالتدهور بسبب تطور العلاقات - السلعية النقدية وتعاضم الضرائب . وقد اصبح الفلاح نتيجة خراب الاقتصاد الطبيعي في تبعية للسوق وتذبذباته وفريسة للاستغلال الربوي - التجاري . ويحدثنا د . اوركهارت عن ضنك العيش الذي كانت تعاني منه غالبية الفلاحين اللبنانيين ، كما يصف لنا البيت الذي اضطر الى قضاء ليلته فيه ، بأنه بناء ضيق كبيت للسكن ولا يوجد فيه سوى الاواني الفخارية وليس فيه طيور داجنة او مواشي . ويتغذى اهل القرية « بالزيتون والخبز ... وتتألف جارية الانسان البالغ من عشر زيتونات وهم يرتدون الاسمال ويعيشون كلهم في فقر وعوز ما عدا بعض المشايخ . » ويستطرد د . اوركهارت قائلاً ان بقية القرى في تلك المنطقة ليست احسن حالا من هذه القرية ان لم تكن اسوأ منها (١٢٠) .

وماكاد يهل منتصف القرن التاسع عشر حتى كانت اكثرية استثمارات الفلاحين في لبنان على شفا الانهيار والافلاس . ان فرض الضرائب الاضافية والقحط وارتفاع اسعار بيض دود القز قد كانت في تلك الظروف سببا في انتشار الجوع والافلاس وافقار القرى .

وهكذا فان تحليل التطور الاقتصادي - الاجتماعي في لبنان منذ نهاية القرن الثامن عشر وحتى السنوات الستين من القرن التاسع عشر يدل على ان أسلوب الانتاج الاقطاعي المسيطر في البلاد قد بدأ يتفكك تحت تأثير العلاقات السلعية - النقدية الآخذة في التطور والعلاقات البورجوازية الناشئة . وقد رافق تفكك النظام الاقطاعي احتداد التناقضات الداخلية .

واخذت الحكومة الاقطاعية والطبقة الاقطاعية الساعيتان للتكيف مع الظروف الاقتصادية الجديدة بتشديد استثمار الفلاحين اما عن طريق تقوية الاضطهاد الضرائبي او عن طريق الاستيلاء على أراضي الفلاحين وتحويل أصحابها الى شركاء . ان ازدياد الاضطهاد

الاقطاعي واستفحال الاستثمار الربوي — التجاري كانا سببا في تدهور أوضاع الفلاحين في لبنان .

وقد أدت الخطوات التي خطاها الاقتصاد اللبناني الى الامام الى تغيرات في بنية السكان الطبقية . فقد تشكلت فئات اجتماعية جديدة وتحول التجار والمرابون واصحاب الورشات الحرفية والمانيفاكتورات في ظروف نشوء الرأسمالية الى بورجوازي ريف ومدينة . وكان العمال المياومون والاجراء الزراعيون وعمال المانيفاكتورات يشكلون الفئات التي ستتشكل منها البروليتاريا فيما بعد .

وكان التطور الحر للعلاقات السلبية النقدية والبورجوازية يتطلب الحرية في انتقال السكان والمبادرة في المجال الاقتصادي وضمن الملكية والحقوق الشخصية والمساواة الاجتماعية وتشريعات جديدة ونظاما قضائيا جديدا ثم في النهاية اشكالا ديمقراطية جديدة للحياة الاجتماعية . ولم يكن لكل هذه الامور وجود فعلي في لبنان . فقد كانت الفئات الاقطاعية هي المسيطرة سياسيا واقتصاديا في البلاد ، اما بقية الفئات من السكان فقد كانت منقوصة الحقوق طبقيا ، وكان قسم من الفلاحين في تبعية للاقطاعي اما شخصية او بسبب الارض وكان اعيان الريف والتجار والحرفيون واصحاب المانيفاكتورات في زحلة ودير القمر في تبعية للاقطاعيين الذين يعيشون في اراضيهم من الناحية الادارية والقضائية والضرائبية . ان كل هذه الامور كانت سببا في نشوء تناقضات طبقية حادة ومقدمة للحركة الشعبية المناوئة للاقطاعية في لبنان منتصف القرن التاسع عشر .

الفصل الثاني

المقدمات السياسية لنهوض الحركة المناوئة للاقطاعية

* عصيان عام ١٨٤٠ في لبنان

* إعادة الحكم التركي الى سوريا

المقدمات السياسية لنهوض الحركة المناوئة للاقطاعية

أن الحركة الشعبية المناوئة للاقطاعية التي ابتدأت منذ نهاية القرن الثامن عشر في لبنان بلغت أوجها ما بين السنوات الأربعين والخمسين من القرن التاسع عشر .
كان لبنان في نهاية القرن الثامن عشر عبارة عن إمارة شبه مستقلة ضمن الامبراطورية العثمانية . وكانت أراضيه تضم جبل لبنان والساحل في منطقة جبيل وسهل البقاع ولبنان الشرقي (١) . وكان الأمير الحاكم تابعا للسلطان ويستلم خلع الولاية التي تخوله حق الحكم (وهي عبارة عن قفطان يقدم للأمير كهدية كما يذكر ك . م . بازيل) من باشا صيدا . وكان الباشا يحدد مقدار الجزية

١ - كان لبنان المتوسط عبارة عن مقاطعة الأمراء الحاكمين الأصلية التي أعطيت لهم منذ عهد الحروب الصليبية . وقد أعطاهم باشا طرابلس شمال لبنان ومنطقة جبيل وأعطاهم باشا دمشق سهل البقاع . ولهذا كان أقطاعيو لبنان الشرقي يعترفون بتبعيةهم للأمراء اللبنانيين .

المفروضة على لبنان . ولم يكن هناك اية اتفاقيات فعلية بين البشوات والامراء . وكانت اوضاع البلاد ضمن رقعة الامبراطورية - حجم المساحة الخاضعة لحاكم لبنان ودرجة استقلال الامراء في السياسة الداخلية والخارجية ومقدار الجزية - تتحدد حسب توزيع القوى بين الامراء الحاكمين والبشوات الاتراك .

وفي بداية القرن السابع عشر ، اي في فترة حكم الامير فخر الدين الثاني المعني (١٥٩٠ - ١٦٣٥) كاد لبنان ان ينال الاستقلال ، وكان اميره يطبق سياسة مستقلة في الداخل والخارج . ولكن بعد سقوط فخر الدين الثاني تدهورت الاوضاع في البلاد تدهورا كبيرا . وكانت منطقة لبنان المتوسط (الشوف) تكاد لا تخضع لسلطة الامراء الحاكمين . ولكن مع ازاحة الاسرة الحاكمة (٢) وانتصار الامراء الشهابيين المدعومين من القيسية الاقطاعية في المعركة التي جرت قرب عين دارة عام ١٧١١ ، بدأ الحكم الذاتي في جبل لبنان يتوطد بالتدريج . واخذت تتوسع من جديد رقعة الارض الخاضعة لسلطة الامراء . وقد طبق اخر الامراء الشهابيين بشير الثاني (١٧٨٨ - ١٨٤٠) سياسة داخلية مستقلة وقام بمحاولات لانتهاج سياسة خارجية مستقلة .

وكان التنظيم السياسي في داخل لبنان يقوم على اساس البنية الهرمية في ملكية الارض . فعلى رأس الادارة كان يقف الامير الحاكم من آل شهاب وتوكل السلطة المحلية الى اتباعه من اصحاب المقاطعات الذين يخضع لهم حكام القرى - أي المشايخ الريفيون . ولم يكن يوجد في لبنان جهاز خاص بالسلطة الحكومية . فقد كان موجه الامير أو الكيخيا (※) (وهو بمثابة رئيس الخدم) يقوم بدور الوزير الاول وكان الامير يوكل شتى الاعمال في ادارة البلاد الى اقاربه او اتباعه .

ولم يكن لدى الحاكم اللبناني جيش دائم سوى حرسه الخاص . وكان في حالات الضرورة يستدعي فرقة شعبية من

٢ - في عام ١٦٩٧ مات اخر ممثل لال وعن وورثه امير من آل شهاب تبعه به صلة قرابة من ناحية الام .

(※) - او من كان يسمى بمديتر الامير - ملاحظة من المعرب .

المتطوعين مؤلفة من فصائل الفلاحين المنتمين لشتى المقاطعات (٣) وكان نظام الدعوة يتيح جمع عدد من المحاربين في دير القمر يصل حتى الخمسة عشر الفا خلال ثلاثة ايام .

ان هذه السمات وامثالها التي اتصف بها التنظيم السياسي داخل لبنان قد طبعت بطابعها تطور الحركات الشعبية في هذا البلد . وان مساهمة الفلاحين في الذود عن الحكم الذاتي في لبنان تفسر لنا احتفاظ جبل لبنان حتى في القرن الثامن عشر بتلك الظاهرة السياسية التي لم تكن معروفة في مناطق سوريا وفلسطين السهلية المجاورة وهي الدعوة لعقد الاجتماعات الشعبية (٤) .

ومع ان هذه الاجتماعات قد فقدت اهميتها في مشارف

٣ - يكتب ك. ف. فولني بهذا الصدد « لا الامير الاكبر ولا بقية الامراء يملكون جيشا : وليس لديهم سوى اناس للخدمة البقية وبعض عبيد سود . فاذا ما نشبت الحرب فان كل رجل ، شيئا كان أم فلاحا ، قادر على حمل السلاح يستدعي للقتال . وعندها ياخذ كل واحد كيسا صغيرا من الدقيق وسلاحا ويضع طلقات وقليل من البارود المصنوع في القرية ويتوجه الى المكان الذي عينه له الحاكم » :

(C.-F. VOLNEY, voyage en Egypte et en Syrie, vol. 2. pp. 194, 196).

٤ - يقول فولني : كان الامراء في حالة اعلان الحرب او السلام وزيادة الضرائب يدعون لاجتماع شعبي عام يستعرضون فيه الاوضاع . ويعتقد ك. فولني : ان حق التصويت في هذه الاجتماعات كان يتمتع به كل شيخ وكل فلاح يتمتع بالاحترام بفضل عقله وشجاعته . وربما كان فولني يبالغ في تقدير اهمية هذه الاجتماعات ودور الفلاحين فيها . ولا يذكر طنوس الشدياق في كتاب اخباره مثل هذه الاجتماعات سوى مرة واحدة عندما « جمع الامير منصور امراء البلاد واعيانها واکابرها وباقي اهلها » لكي يعلن تحيته عن السلطة (طنوس الشدياق ، كتاب صفحة ٣٨٦) . واستنادا الى هذا الخبر الذي يذكره طنوس الشدياق يمكن الحكم بان الحاضرين لم يكن لهم اي دور فعال في الاجتماع . ان ك. م. بازيلي يتحدث ايضا عن اجتماع شبيه بهذا عقد لاسباب اخرى . وقد استقى الكاتب معلوماته في هذا المضمار من تاريخ آل شهاب وبسترس (ك. م. بازيلي ، سوريا وفلسطين ، صفحة ٦٣) .

القرن التاسع عشر فانها عملت على توطيد اهتمام الفلاحين بالحياة الاجتماعية مما ساعد فيما بعد على تطور وعيهم السياسي . وبفضل اشتراك الفلاحين اللبنانيين في فرق المتطوعين الشعبية اصبحوا يملكون سلاحا وتكونت لديهم خبرة في القتال المسلح مما جعل الانتفاضات الفلاحية على درجة كبيرة من التنظيم .

وقد اتصفت سنوات حكم بشير الثاني ببعض التغيرات في حياة لبنان السياسية ، انعكست بدورها على الحركة الشعبية . لقد قام الامير بشير الثاني باولى المحاولات لمركزة الادارة في البلاد . ووجد بعض اصحاب المقاطعات من السلطة السياسية واستبدلهم بموظفين (كانوا عادة من اقاربه) وعين القضاة وأوكل اليهم جزءا من الاعمال القضائية التي كانت سابقا من اختصاص اصحاب المقاطعات ومع ان نزعة المركز في سياسة الامير بشير لم تؤد الى تنظيم الجهاز الحكومي لادارة لبنان فان الامير الحاكم قد خطا رغم ذلك الخطوات الاولى نحو نفس نفوذ الارستقراطية الاقطاعية الامر الذي خلق الظروف المؤاتية لتطور الحركة المناهضة للاقطاعية .

وقد عمل الامير بشير على تطوير الزراعة وبنى الطرق ووجه الاهتمام لضمان سلامة التنقل داخل البلاد ، مما سهل تطور العناصر البورجوازية في المجتمع اللبناني من تجار ومرابين واصحاب ورشات ومانوفاكتورات ، وقد قام هؤلاء في نهاية حكم الامير بشير باولى محاولاتهم للاشتراك في حياة البلاد السياسية . لم ينهج الامير بشير الثاني السياسة الدينية التقليدية التي كان عليها اسلافه . فقد كان الامراء الشهابيون يعتقدون الدين الاسلامي . وكان الاقطاعيون الدروز طوال مدة حكم آل شهاب يتمتعون بمركز السيادة (٥) ، بينما احتاج الامير بشير الثاني في نضاله ضد النزعة نحو التكتل والاستقلال لدى الارستقراطية الدروزية (بصفتها الطائفة الاقوى) الى مساندة الاقطاعيين ورجال الدين الموارنة (٦) .

وقد تحولت الكنيسة المارونية في بداية القرن التاسع عشر الى مالك اقطاعي ضخم للارض وانتشر نفوذها انتشارا كبيرا بين

٥ - بشكل الدروز فرقة من الفرق الاسلامية .

٦ - الموارنة مسيحيون ذو عقيدة خاصة قريبة من الكاثوليكية .

الاهالي الموارنة الذين يفوقون الدروز عددا . بيد ان دورها السياسي في البلاد لم يكن يتناسب مع وضعها . فالرتبة الدينية العليا لم تكن تعطي حقا في الملكية الاقطاعية المشروطة ولم يكن رجال الدين (باستثناء الحالات التي يكونون فيها من الارستقراطيين) يتمتعون بامتيازات اصحاب المقاطعات : السلطة الادارية على السكان والحق في جباية الضرائب . وغالبا ما كان رجال الدين انفسهم في تبعية لصاحب المقاطعة تجعلهم يضيقون ذرعا بهذا الوضع مما دفعهم لتأييد سياسة بشير الثاني الرامية الى الحد من نفوذ الارستقراطية الضخمة .

وبما ان اقتصاد الاديرة كان عادة يرتبط بالسوق ارتباطا وثيق من ارتباط اراضي الاقطاعيين به فان رجال الدين كان من مصلحتهم خلق ظروف مناسبة لتطور التجارة دونما عائق ، الامر الذي لا يمكن تحقيقه الا عند جعل السلطة في البلاد مركزية .

وقد عمد الامير بشير لاعتناق المسيحية واعطاء امتيازات للسكان المسيحيين وذلك لتوطيد الكسب الذي حققه في نوال تأييد رجال الدين والسكان الموارنة . وقد دفعه الى هذا ايضا العلاقات الاقتصادية والسياسية المتنامية بين لبنان وأوروبا . وكان من نتيجة هذا ازدياد الوزن السياسي لرجال الدين والاقطاعيين الموارنة في البلاد مما اثار صراعا حادا بين فئتي الدروز والموارنة داخل الطبقة الاقطاعية . وقد لعب هذا دورا في استفحال الصدام بين الدروز والموارنة وخلق الوضع السياسي الذي تطور فيه النضال المناهض للاقطاعية ما بين السنوات الاربعين والخمسين من القرن التاسع عشر .

وقد كان المسبب المباشر للتحركات الفلاحية الاولى هو السياسة المالية التي كان يتبعها البشوات الاتراك والامراء الحاكمون في وقت ساءت فيه حالة الفلاحين الاقتصادية من جراء ازدياد الاستثمار الربوي - التجاري والحرمان من الارض .

ومنذ الربع الاخير من القرن الثامن عشر تتواتر بكثرة انباء حركات فلاحية لبنان ضد الاقطاعية .

فضمن حوادث عام ١٧٨٢ يكتب طنوس الشدياق ما يلي : « وفيها » اي في هذه السنة - العرب « احدث الامير الحاكم (يوسف شهاب - المؤلفة) مالا على التوت فجعل على كل مطعم اوقية بذر من القز خمسة غروش فهبج اخواه الجنبلاطية ضده

فحضر الجنبلاطية الى السمقانية (قرية قرب دير القمر — المؤلفه)
 واجتمع اليهم جماعة واطهروا عدم القبول بذلك . ثم حضروا اتجاه
 دير القمر عازمين على طرد الامير من الولاية وقتل مدبره الشيخ
 سعد فجعلوا يطلقون البارود ويكثرون العجيج والضجيج — فأرسل
 اليهم الامير يعدهم بإبطال هذا الطلب ويسكن هياجهم فخدمت
 نارهم وانفضوا كل الى مكانه « (٧) » .

وفي عام ١٧٨٤ فرض الامير يوسف على كل رجل غرشين
 كضريبة على شاشية العمامة (ووجه لجبايتها الامير مراد منصور
 فأنفت الناس من دفعها واجتمعوا في خان الحصين واتفقوا على
 عدم دفعها وطردها الامير مرادا من الشويفات (قرية كبيرة —
 المؤلفه) (✽) واهانوا خدمه (٨) .

وقد كان عام ١٧٩٠ عام صدامات جديدة بين الشعب
 والاقطاعيين . وتحديثا كتب الاخبار عن طرد جباة الضرائب من
 القرى وعن المعارك بين الشعب وعساكر الجزار باشا المدعوم من
 قبل الامير الحاكم (٩) . وقد حدثت حوادث مشابهة في اواخر
 العقد العاشر من القرن الثامن عشر .

ولكن العصيان الفلاحي الذي يفوق ما سبقه اهمية هو الذي
 اندلعت شرارته في عام ١٨٢٠ (١٠) . ومنذ بداية القرن التاسع
 عشر خيم الاستقرار بعض الشيء على لبنان ضمن الامبراطورية
 العثمانية وتوطدت السلطة المركزية داخل البلاد .
 وقد بنى الامير بشير قصرا فخما في بتدين (بيت الدين)
 وشق طريقا الى هناك واحاط نفسه بحاشية كبيرة وأخذ يجتذب

٧ — طنوس الشدياق كتاب صفحة ٤٠٥ . الأوقية : ١٢ درهما او ٣٧،٤٤
 فراما .

(✽) وهي تقع جنوب شرقي بيروت (ملاحظة من المغرب) .

٨ — المصدر نفسه ، صفحة ٤١٠ .

٩ — يكتب الشدياق في « كتاب أخباره » اما أهل المتن فاتفقوا برأي واحد مع
 باقي أهل البلاد على قتال عساكر الجزار . (صفحة ٤٢٩) .

١٠ — راجع بهذا الصدد « كتاب أخبار ... » لطنوس الشدياق ٤٩٨ —
 ٥١٢ . ونبذة تاريخية لقصور الحنوني صفحة ١٩٩ — ٢٠٤ . والعاميات الشعبية
 في لبنان ليوسف خمار الحلو ، بيروت ١٩٥٥ .

الى بلاطه الشعراء المداحين والادباء والمؤرخين وينعم عليهم (١١) .
 وقد كان بناء القصر والاحتفاظ بفرق مسلحة وحاشية يحتاج
 الى اموال كثيرة . ولهذا بدأ الامير باستغلال عمل الفلاحين
 الاكراهي على اوسع نطاق وازيادة الضرائب . وقد تعززت فسي
 زمانه جباية ضريبة المال الاميري (✽) عدة مرات في العام .

وفي عام ١٨٢٠ فرض الباشا التركي حقي عبد الله على لبنان
 جزية اضافية بمقدار الفكي كيس . ووجه جيشا الى حدود لبنان
 وأمره بالقبض على اللبنانيين الذين جاؤوا لبيع خامات الحرير
 وشراء الاغذية في المدن الساحلية وابقائهم كرهائن . وبعد
 المحادثات والمفاوضات الفاشلة اضطر الامير بشير لارسال جباة
 الضرائب الى المناطق المسيحية الوسطى (المتن) والشمالية من
 البلاد لجمع المال الاميري مرة ثانية .

فرفض أهالي المتن دفع الضريبة وأرسلوا الخيالة الى كسروان
 لدعوة أهله الى أن يحذوا حذوهم . وانعقد في انطلياس اجتماع
 فلاحي أقسم حاضروه على أنهم لن يدفعوا الجزية والمال الاميري
 سوى مرة واحدة في العام (مال واحد وجزية واحدة) .

وقد انتخبت كل قرية وكيلا لتنسيق الاعمال ، وتوجه
 الخيالة الى جميع المقاطعات لدعوة الفلاحين الى رفض دفع
 الضرائب والى ارسال وكلاء منهم الى انطلياس . وقد استجاب
 للدعوة أهالي كافة المناطق الشمالية تقريبا واجتمع في انطلياس
 ما يقارب الستة الاف شخص . وقد اختار العاصون الشيخ
 فضل البدوي الخازن ليكون شيخا عليهم ولكنه سرعان ما غادر
 معسكر المتمردين .

وكتب الفلاحون الى عبدالله باشا يخبرونه ان سبب عصيانهم
 هو ظلم الامير بشير اياهم بطلب المال منهم دون غيرهم (اذ انه
 في هذه المرة لم يطالب المقاطعات الدرزية بالضرائب) وتوسل
 الفلاحون الى الباشا كي يحميهم من تعسف الامير .

وقد كان عبدالله باشا يرغب في التخلص من هذا التابع الذي

١١ — ففي بلاط الامير بشير كتب الشاعر والمؤرخ نقولا الترك (مات عام
 ١٨٢٨) مؤلفاته التاريخية . وألف الشيخ ناصف البازجي بواكير قصائد مديحه
 (١٨٠٠ — ١٨٧١) في بلاط الامير بشير منذ عام (١٨٢٨) .
 (✽) — والمعروف باسم المري . (ملاحظة من المغرب) .

يتمتع باستقلال أكثر من اللازم فاستغل استياء الفلاحين وأجباب المجتمعين في انطلياس بأنه ، تمشياً مع العادات اللبنانية ، لن يطالب الفلاحين سوى بمال واحد . ولكنه مع ذلك لم يلغ الجزية الإضافية .

وعندما لم يترك الأمير بشير أي تأييد له لا من طرف باشا صيدا ولا من طرف الفئات الاقطاعية (إذ أن القسم الأعظم من الأمراء والمشايخ الموارنة والدروز كان في تلك الفترة يقف موقف المعارض لبشير بسبب سياسته المركزية) فر هارباً من لبنان . فأنعم عبدالله باشا بخلعة ولاية لبنان على أميرين من الشهابيين هما الأمير حسن والأمير سلمان وأرسل إليهما بعميله الشيخ المسلم محمود الدسوقي .

وقد رضى فلاحو لبنان بجواب الباشا وتنحي بشير عن الحكم وتفرقوا إلى بيوتهم . ولكن ما أن أرسل حسن وسلمان جياة الضرائب إلى جبيل وكسروان حتى طردهم الفلاحون وسرت نار التمرد من جديد في كافة لبنان الشمالي وعندها نحى عبدالله باشا الأميرين حسن وسلمان عن السلطة لأنهما لم يقدرأ على إطفاء جذوة العصيان وعين الأمير بشير من جديد والياً على لبنان . فوجه الأمير بشير ابنه الأمير قاسم إلى منطقة جبيل لجباية الضرائب بعد أن وثق هذه المرة من تأييد باشا صيدا والاقطاعيين اللبنانيين له . كما أرسل جياة إلى منطقة كسروان وقد اصطدم الأمير قاسم بمقاومة الفلاحين المسلحة في لحفد وبعث إلى أبيه برسالة مع خيال يقول له فيها « أن الرعايا أظهروا العصيان » (١٢) فأمر الأمير مشايخ وأمراء لبنان بالحضور مع رجالهم والتوجه بسرعة لنجدة ولده . وقد حاولت الفرق الفلاحية أن تقطع الطريق على الأمير بشير ولكنه أخذ ينثر الوعود تارة ويلجأ إلى التهديد تارة أخرى حتى استطاع النفوذ إلى لحفد .

ولم يقر رأي الأمير بشير على مهاجمة المتمردين بسبب وصول فرق فلاحية من كسروان والبترون وجبة بشري إلى لحفد . وبينما كان في انتظار وصول فرق أخرى تقوي صفوف عساكره دخل في مفاوضات مع المتمردين فقدم الفلاحون له مطالبهم وعلى رأسها دفع « ميراً واحداً » و « جزية واحدة » .

وما أن وصل رجال الاقطاعيين لمساعدة الأمير ، حتى أوقف هذه المفاوضات وشنت شمل المتمردين . ان استعراض بواكير الحركات الفلاحية ، حتى عندما يكون هذا الاستعراض سطحيًا ، يرينا أنها كانت تتصف بسمات عامة : فقد كانت تنشأ بشكل احتجاج عفوي على الإرهاق بالضرائب (وهذا شكل مميز من أشكال نضال الفلاحين في العهد الاقطاعي) . وكان الذين يترأسون الحركات هم الاقطاعيون المعارضون للحكومة لهذا السبب أو ذاك .

وبالرغم من شدة التشابه بين هذه الحركات فإن هناك فرقاً جوهرياً بينها : فإذا كانت حوادث ١٧٨٢ و ١٧٨٤ يمكن أن توصف بالتمرد فإن عصيان ١٨٢٠ قد تميز بظهور عناصر التنظيم فيه . فعقد اجتماعات فلاحية غفيرة وكتابة العريضة إلى الباشا واختيار الوكلاء وتشكيل قوى مسلحة من العاصين ، كل هذا كان دليلاً على درجة النضج الأكبر التي كانت عليها هذه الحركة ، وعلى سمات التنظيم التي كانت معدومة في حوادث السنوات الثمانية والتسعين من القرن الثامن عشر والتي كانت الحركة الشعبية في سنوات ٤٠ - ٥٠ من القرن التاسع عشر تطويراً لها .

بعد مضي عشرين عاماً من التطور الاقتصادي والسياسي السريع على عصيان عام ١٨٢٠ قامت في لبنان حركة مناهضة للاقطاعية في السنوات الأربعين من القرن التاسع عشر وخلال هذه الأعوام العشرين انجر الاقتصاد اللبناني بسرعة إلى السوق الاقتصادية العالمية مما ساعد على نفوذ الأخبار إلى لبنان وانتشار الأفكار السياسية الجديدة فيه . كما حدثت خلال هذه الأعوام انتفاضة التحرر الوطني في اليونان (١٨٢١ - ١٨٢٩) التي هزت شرق البحر الأبيض المتوسط ووجدت صدى لها في لبنان وسوريا ، وحدثت أزمات سياسية في الإمبراطورية العثمانية كان سببها الصدام الذي وقع بين السلطان محمود الثاني واليه المصري محمد علي ، كما جرى كذلك احتلال سوريا من قبل المصريين . وقد انتهت هذه الفترة بالعصيان المناهض للمصريين في لبنان والذي كان بمثابة « خمرة » عملت على تقوية الغليان الشعبي حسب تعبير د. شيفاليه .

قبيل استيلاء جيوش محمد علي على سوريا كان الهيـاج
يمعم مختلف المناطق في سوريا وفلسطين . ويقول ك.م. بازيـلي
انه كان يجري « تخريب تدريجي للسلطة القانونية » ولهذا فقد
استقبلت مناطق عديدة من فلسطين وسوريا « المصريين
كمخلصين » (١٣) .

وقد اقترن تثبيت سلطة المصريين في سوريا بعدد من التغييرات
الجوهرية داخل البلاد .

فقد كانت سوريا في ظل حكم الاتراك مقسمة الى ثلاث
ولايات ، وكان البشوات الذين تعينهم اسطنبول حكاما مطلقي
السلطة ، لا يخضعون الا لحكومة السلطان وليس عليهم اية
رقابة فعلية . وقد ركزت السلطات المصرية السلطة العليا في
سوريا بيد واحدة وهي يد ابراهيم باشا ابن محمد علي . وكانت
الادارة العسكرية والمالية منفصلتين عن الادارة المدنية ، مما ساعد
على جعل جهاز الادارة مركزيا . وقد كان الموظفون المصريون
يختلفون عن موظفي الامبراطورية العثمانية بأنهم كانوا يستلمون
رواتب ، ومنعت حوادث الرشوة والاعتصاب . وقامت الحكومة
المصرية ببعض المحاولات للحد من تعسف وجور الحكام الاقطاعيين
المحليين . ومع ان محمد علي لم يمس الاسس الاقتصادية التي
ترتكز عليها سطوة الارستقراطية الاقطاعية في سوريا ولبنان
وفلسطين ، فانه كان في بعض الحالات يلغي بعض الامتيازات
السياسية التي يتمتع بها ممثلو الطبقة الاقطاعية الاكثر نفوذا .
وقد ظل لبنان بعيدا عن التغييرات المصرية ، ولكن الامر
بشمر استفاد من سياسة محمد علي واستولى نهائيا على اراضي
خصومه السياسيين .

وقد اتخذت الحكومة المصرية بعض التدابير التي ساعدت
على تطور التجارة ، مما أفسح المجال امام تجار الولايات السورية
للوصول الى الادارة البلدية . وقد تشكلت في المدن التي يزيد عدد
سكانها على الالفين مجالس بلدية مؤلفة من أغنى سكان المدينة
من المسلمين والمسيحيين ، وكانت هذه المجالس تفصل في الدعاوى
التجارية وتناقش قضايا الادارة البلدية . وقد ساوت الحكومة

المصرية بين حقوق المسلمين والمسيحيين لصلحة التجار في الدرجة
الاولى (فالقسم الاعظم من التجار السوريين كانوا يعتنقون
المسيحية .) وفتح الطريق امام المسيحيين لاشتغال المناصب
الحكومية والمشاركة في المجالس والفيت شتى القيود التي كانت
تحط من قدرهم (ولكن الخراج لم يلغ) . وقد اثرت كل هذا التدابير
تأثرا حسنا على تطور التجارة . وقد كتب ك.م. بازيـلي يقول
« مهما كانت السيطرة المصرية مرهقة لسوريا ، فقد تضاعفت
تجاريتها بمقدار عشر مرات في خلال بضع سنوات من هذه
السيطرة » (١٤) . وتسارعت نتيجة هذا عملية تفسيح
العلاقات الاقطاعية ونشوء الرأسمالية .

وقد ادخلت السلطات المصرية بعض التغييرات على نظام
الضرائب ونظمت جبايتها وألغت نظام الالتزام جزئيا . ولكن
احجام الضرائب ظلت كما كانت عليه ، بل وفرضت رسوم مرهقة
جديدة : كالفردة وهي ضريبة تجبى من كل السكان الذكور بغض
النظر عن دينهم (من سن السادسة عشرة وحتى الستين ، اما
في الواقع فمن سن الثانية عشرة — الخامسة عشرة) (١٥) وبما
يتناسب مع مداخيلهم . ثم « الشونة » وهو ضريبة عينية من أجل
الجيش . وكانت الضرائب تجبى بكل صرامة وبطبق مبدأ الكفالة
التبادلية على نطاق واسع . وقد أعيد احصاء السكان الذكور
من أجل تدقيق قوائم دافعي الضرائب (١٦) وخفف القضاء على
تعسف الاتراك في جباية الضرائب من مشقة وضع الفلاحين في
البداية . كما ساعد على هذا ايضا حماية الدولة المصرية للقوى
السورية من غارات البدو . وأعلن عن تخفيض الضرائب المفروضة
على الفلاحين الذين يعملون في الاراضي المهملة او الذين يزرعون
في مزارع جديدة . وكانت النتيجة زيادة مساحة الاراضي المزروعة

١٤ - اسرخ « السفارة في القسطنطينية » .

١٥ - F. Perrier, La Syrie sous le gouvernement de Mehemet-

Ali jusqu'en 1840, Paris, 1842, pp. 99-100.

كانت المفروضة تشكل جزءا من اثني عشر جزءا من المدخول تقريبا . وكان الموظفون
والضباط معينين من هذه الفريضة . كانت أمور جباية الضرائب تفوض الى اشخاص
عن طريق المزايمة ويسمى هؤلاء بالملتزمين للالتزامهم بدفع مقدار معين من المال
للدولة .

زيادة ملموسة .

وقد تميزت كل هذه التدابير تميزا كبيرا عن سياسة الاتراك مما ساعد على ايقاظ الوعي السياسي لدى اهالي سوريا ولبنان .

بيد ان الحكومة المصرية بدأت بعد عام ١٨٣٣ تشدد من الاضطهاد الضرائب بسبب استعداداتها الحربية . واصبحت الضريبة على الاشخاص تجبى من اسر الاموات او المقتولين ، وغالبا ما كانت السلطات تطالب المزارع المضحلة او التي لم تكد تأثني اكلها بعد بدفع ضريبة المري . وقد طبق مبدأ الجندية الاجبارية لأول مرة على الاهالي المسلمين (بلغ عدد الجنود من الذكور ما بين عامي ١٨٣٣ و ١٨٣٨ خمسة وثلاثين ألف جندي من أصل تسعمئة ألف شخص من الاهالي) (١٧) .

وقد اثر تجنيد العمال الاكثر قدرة على العمل تأثرا سيئا على اقتصاد الفلاحين واعمالهم الحرفية . وكان الرجال الذين بلغوا السن القانونية يهربون الى الجبال والصحاري في كل مرة يجري فيها السوق الى الجندية . واغلقت الورشات والدكاكين واقفرت اسواق البيع والشراء . وكانت فصائل ابراهيم باشا تضرب الحصار على الناس في الشوارع والاسواق وحتى في المساجد . وانقلب التجنيد الى كارثة مغزعة لدى الاهالي واصبحوا يسمونه « سفح الدم » لقلة عدد الذين كانوا يعودون من الجيش الى منازلهم وكانت غالبية الجنود تموت في مصر لعدم اعتيادها على مناخها الغريب .

كما كان الفلاحون السوريون يعانون الولايات من بناء المنشآت العسكرية التي كان يبنيها الفلاحون بصورة رئيسية ، ومن نقل المشحونات للجيش المصري مما كان يضطر الفلاحين للانقطاع عن العمل في استثماراتهم لمدة شهرين او ثلاثة (١٨) .

وكان عبء الاتاوات والتجنيد يرهق أكثر ما يرهق كاهل

١٧ - المصدر نفسه ، صفحة ١٣٦ .

١٨ - ا.س.ر.ع. « السفارة في القسطنطينية » . كانت اعمال البناء تجري بشروط شبه قتيبة : فقد كانوا يدفعون للعامل ربع أجرته فقط ، وكان اللبنانيون ملزمين بتقديم الجير اللازم للبناء بأسعار مخفضة .

الفلاحين والفئات اندنيا في المدينة ، وكان سببا في قيام عدد من العصيانات .

وفي ربيع عام ١٨٣٤ نشب العصيان الاول في فلسطين كردة فعل لطلب الاسلحة والجنود ، واستلزم لآخامده استدعاء الجيوش في مصر (١٩) وفي السنة نفسها أعلن العصيان متاولا (اي الشيعة - العرب) المناطق الشرقية الشمالية في لبنان ، ثم جرى عصيان النصيرية في خريف العام نفسه . وقد أخذت هذه العصيانات بعنف شديد . وفي خريف عام ١٨٣٧ أعلن دروز حوران عصيانهم الذي كلف الجيوش المصرية جهودا كبيرة الى ان قضت عليه اخيرا في صيف العام التالي . وقد اثر النجاح الذي احرزه الدروز تأثرا كبيرا على مجرى حوادث عام ١٨٤٠ .

ففي ربيع هذا العام نشب العصيان في لبنان (٢١) .

٢١ - Asad I. Rustum, The royal archives of Egypt and the disturbances in Palestine, Beirut, 1938.

٢٠ - ك. م. بازيلى ، سوريا وفلسطين ... من الصفحة ١٣٣ الى الصفحة ١٣٦ .

٢١ - لدراسة هذا العصيان يمكن أن نرجع الى الوثائق التي جمعها البارون اي. نيسن في « مجموعة معاهدات الباب العثماني مع الدول الاجنبية » . (Recueil des traites de la Porte Ottomane avec les Puissances étrangères) , t. III, Paris, 1868.

وقد نشر اسد رستم الوثائق المصرية عن العصيان ، ولكننا للأسف لم نتح لنا امكانية الاطلاع عليها . ان الوثائق العربية المشورة « مجموعة المحررات السياسية والمفاوضات الدولية عن سوريا ولبنان من سنة ١٨٤٠ الى سنة ١٩١٠ جونية ١٩١٣ » هي بشكل رئيسي ترجمة عربية للوثائق التي نشرها اي. نيسن والكتب الانكليزية الزرقاء . ومن اهم المصادر بهذا الصدد « كتاب اخبار الاميان في جبل لبنان » لطئوس الشدياق الذي كان ينتمي للفة الاجماعية التي دعمت العصيان وكان ذا اطلاع واسع على حوادث النضال الشعبي . ولكن انعدام التواريخ في الكتاب انعداما تاما يجعل من الصعب الاستفادة منه . وليس من المستبعد أن يخطئ الشدياق نتيجة لهذا في تسلسل بعض الحوادث . وقد حاولت في هذا الكتاب ان أعيد تاريخ حوادث العصيان على اساس التواريخ المذكورة في محررات ك. م. بازيلى ومقارنة هذه المعطيات مع محررات يوريه : القصل الفرنسي في بيروت .

وفي عام ١٨٤٠ لعبت الاحداث السياسية دورا كبيرا في توتر الوضع في الولايات السورية ، ولم تكن معاهدة كوتاهية التي عقدت بين السلطان محمود الثاني ومحمد علي في عام ١٨٣٣ لترضي آيا من الطرفين (٢٢) . وقد استطاع محمد علي الحصول على حق الحكم المتوارث لا في مصر فحسب بل وفي سورية ايضا . ولم يستطع محمود الثاني ان يرضى بفقدان سورية من يده . وبالإضافة الى هذا فان تمرد الوالي المصري انزل ضربة بسياسة محمود الثاني الداخلية التي كانت ترمي الى مركزة الحكم في ارجاء الامبراطورية . وقد حرصت أنكلترا محمود الثاني على الحرب مع محمد علي ، لانها كانت ترى في حكومة علي القوية عائقا امام خططها للتوسعية في الشرق الادنى ، وقد أخذت تبحث عن السبل

كما يستحق الاهتمام كذلك كتاب خليل همام فايز « ابو سمرا غاتم أو البطل اللبناني » وقد استعمل خليل فايز أرشيف أسرة أبو سمرا والقصص المؤلفة عنه . بيد اننا يجب أن ننظر الى معلومات خليل فايز بحذر ، إذ أنه يهول دور أبي سمرا في الحوادث وينظر الى الحوادث نفسها في اغلب الاحيان بعين أبي سمرا وجماعته . وهناك شك كبير في دقة العديد من تفاصيل الحياة اليومية وأقوال المشاركين في الحوادث التي وصلنا عن طريق القصص الشفوية أو الكتب .

وأخيرا فان تحت تصرفنا شهادات الأوروبيين الذين كانوا انذاك في بيروت . وهي عبارة عن المحررات القصلية وكتاب ك. م. بازيلي ومواد من محررات القنصل الأفرنسي بوريه المذكورة في كتاب عادل اسماعيل

(Adel Ismail, Histore du Liban..., t. IV).

وقد اعتمدت المؤلف في وضع كتابها على أرشيفات القنصلية الفرنسية .

٢٢ — كانت معاهدة كوتاهية التي وقعت في الرابع من ايار عام ١٨٣٣ خاتمة لازمة المصريين الاولى التي هزموا خلالها الجيش التركي واحتلوا فلسطين وسوريا وقسما كبيرا من اسيا الصغرى واقتربوا من القسطنطينية . وقد عقدت المعاهدة بين محمد علي والسلطان محمود الثاني بوساطة من الدول الكبرى بعد انزال الجيوش الروسية في القسطنطينية بهدف مساعدة محمود الثاني (وكانت روسيا تخاف من ازدياد نفوذ الفرنسيين في الامبراطورية العثمانية فيما اذا استولت جيوش محمد علي على القسطنطينية) . وقد تولى الباشا نتيجة المعاهدة ادارة فلسطين وسوريا وكيليكه وسحب جيوشه من اسيا الصغرى . ؟

(*) يشير اسد رستم في كتابه « بشير بين العزيز والسلطان » الى أنه لم تكن هناك معاهدة بالمعنى الدقيق ، بل كان ذلك « اعلان » من السلطان باعطاء محمد علي ادارة المناطق المشار اليها بالإضافة الى مصر . (ملاحظة من المغرب)

التي تمكنها من اكراه محمد علي على التخلي عن نظام الاحتكارات المطبق في مصر والذي يعرقل نفوذ أنكلترا الى هذه البلاد . وربما كان العامل الرئيسي المحدد لخطوات أنكلترا السياسية تجاه محمد علي هو عدم الرضى عن تأثير فرنسا على الحاكم المصري .

وكانت الحكومة الانكليزية تهدف من وراء تأييدها لمحمود الثاني الى افساح المجال امامها لتؤثر بشكل فعال على سياسة السلطان ، وكانت ترى في هزيمة محمد علي السبيل الى وضع حد للتفلفل الفرنسي في مصر وسوريا او الى تضيق ابعاده .

وفي ربيع عام ١٨٣٩ بدأت على الحدود السورية صدامات مسلحة بين جيوش السلطان ومحمد علي . وزادت حدة الهيجان داخل سوريا . وكانت دمشق وحلب وطرابلس وغيرها من مدن الولايات السورية حسب رأي ك. م. بازيلي في وضع يمكن ان يؤدي الى العصيان فيما لو انهزم الجيش المصري . (٢٣) ولكن المصريين استطاعوا ان يحرزوا النصر الحاسم في موقعة نصيبين . وفي تموز عام ١٨٣٩ سلم امير البحر التركي الذي شارك في العمليات الحربية أسطوله الى محمد علي .

وتدخلت الدولة الاوروبية علانية في الخلاف القائم بين الباب العالي وحاكم مصر وأصدرت أنكلترا والنمسا وروسيا وروسيا في ٢٧ تموز من عام ١٨٣٩ بيانا مشتركا يطالب الباب العالي بعدم اتخاذ اية تدابير مستقلة بخصوص القضية المصرية الا بعد ان تقدم هذه الدول حلولها .

وقد أخذ محمد علي يستعد بقوة للحرب محاولا الاستفادة من التناقضات الواقعة بين الدول الاجنبية وكسب تأييد فرنسا له . وأكره المعمرين (المعرجية-المعرب) من كافة المدن السورية على العمل لتعزيز اسوار عكا . وأصبح التجنيد يشمل اعدادا كبيرة من الرجال (٢٤) . وانتشرت اشاعة تفيد بأن المسيحيين سيساقون الى الجيش فكف هؤلاء عن الذهاب الى الكنائس خوف الوقوع ضمن طوق الحصار .

واخذت السلطات المصرية التي تعاني من وطأة الماشقات المالية تتشدد جدا في تحصيل الضرائب . وقد كتب ك. م. بازيلي في محرراته في كانون الثاني عام ١٨٤٠ ما يلي : « وأخيرا اقفر العديد

٢٣ — ك. م. بازيلي ، سوريا وفلسطين ... صفحة ١٧ .

٢٤ — اسرخ « السفارة في القسطنطينية » .

من القرى في نواحي اورشليم وعكا ويافا وغزة بعد ان قر منها فلاحوها الى الجبال وقد استولى عليهم اليأس بالرغم من اقتراب موسم الاعمال الزراعية . اذ انهم لم يعودوا يصدقون وعود السلطات المحلية التي تحاول ان تعيدهم الى قراهم » (٢٥) . وفي ستاء عام ١٨٤٠ نشبت العصيانات في شتى اجزاء سورية في منطقة انطاكية ومقاطعة عكار (شمالي لبنان) وقرب طرابلس وفي بعلبك ومنطقة صور وجبال الجليل والخليل وهوران (٢٦) . وقد لاقت الجيوش المصرية مشقة كبيرة في اخماد هذه الانتفاضات .

وفي شهري نيسان وايار من عام ١٨٤٠ الحق المسيحيون اللبنانيون الذين يدرسون الطب في المدرسة التي افتتحها المصريون بالجيش اسوة بالمسلمين مما اثار اشاعة فرض الجندية على المسيحيين . ووصلت الى بيروت باخرة تحمل ملابس عسكرية ودار الحديث عن انها مخصصة لاهالي لبنان . فازداد (المسيحيون اضطرابا وتقمقعا ودار بينهم وبين الدروز لسان العصيان على ابراهيم باشا « كما يقول طنوس الشدياق . وكان الدروز يهيجونهم بايراد اخبار ظفر طائفهم في عصيان حوران (٢٧) . وقد كتب الامير بشير حاكم لبنان الى قائد الجيش المصري سليمان باشا بتاريخ ٢١ ايار ١٨٤٠ : « كان اهالي لبنان أشبه بالنار تحت الرماد : فما أن تلمسها حتى يندلع من هذه الشعلة حريق عام » (٢٨) وكان الامر الذي اصدره ابراهيم باشا بجمع الاسلحة بمثابة الشرارة التي اشعلت نار العصيان (٢٩) . كان

٢٥ - المصدر نفسه .

٢٦ - المصدر نفسه .

٢٧ - طنوس الشدياق ، « كتاب اخبار الاميان ... » صفحة ٥٨٩ .
Adel Ismail, Histoire du Liban..., t. IV, p. 42.

٢٨ -

٢٩ - كانت هذه الاسلحة قد وزعت على المسيحيين اثناء عصيان حوران في عامي ١٨٣٧ - ١٨٣٨ عندما كان المصريون يملكون بكسب تايد الموازنة لسحق العصيان . ويفسر بولك قرار ابراهيم باشا الذي اصدره عام ١٨٤٠ بحاجة الحكومة الى اسلحة اضافية بمناسبة الاعداد للحرب .
(W. Polk, The opening of South Lebanon, 1788-1840, p. 199).

ويرى طنوس الشدياق ان الهجانات في لبنان قد اطلقت ابراهيم باشا ولذلك قرر اللجوء الى تجريد هذا الاقليم من السلاح . والارجح ان اعادة المبرمة قد قدرت هذين الامرين معا عندما امرت بجمع الاسلحة .

السكان ينظرون الى جمع الاسلحة كبداية لسوق الناس الى الجيش) .

وقد وجه طلب جمع الاسلحة اول الامر الى دير القمر والمناطق القريبة . ويقول طنوس الشدياق في كتابه « فلما سمع اهل دير القمر بذلك (الامر) كتبوا الى (مختلف) مقاطعات البلاد يسألونهم (اي سكان المقاطعة - ملاحظة من المؤلفة) في امر تسليم السلاح فاجابوهم « لا نسلم » (٣٠) . بيد ان بعض القرى بدأت بجمع الاسلحة مما جعل اهالي دير القمر يعجلون في القيام بحركتهم . ويرجع انهم ارسلوا بتاريخ ٢٤ ايار فرقة من مئة رجل الى قرى مقاطعتي المناصف والشحار (لبنان المتوسط) لعرقلة نزع السلاح . فاستولى الهلع على قلوب جامعي السلاح ولاذوا بالفرار ، واعيدت الاسلحة الى اصحابها وانزلت العقوبة بمشايع القرى الذين قاموا بالجمع (٣١) .

وفي غضون ذلك انتشر نيا دخول فصيلة مصرية بقيادة سليمان باشا من صيدا الى دير القمر . فاتخذ اهالي دير القمر قرارا فوريا يقضي بارسال مئتي انسان لصد القوى المصرية . وسرعان ما تحركت الفرقة الى صيدا لكي تقطع الطريق على سليمان باشا عبر الجبال . بيد ان اهالي دير القمر لم يشتبكوا في صدامات مسلحة بل اقتصر على القيام بأعمال الاستخبارات ، مع ذلك فقد حرصوا بظهورهم اهالي قرية معلقة الدامور وصاحب الخان في جسر الذين اجبروا طلائع الفرق المصرية المتمركزة في جسر الاولي على الفرار .

وفي الصباح وصلت فرق من الجيوش المصرية تضم الفين

٣ - طنوس الشدياق « كتاب اخبار الاميان ... » صفحة ٥٨٩ . وقد أورد عادل اسماعيل في كتابه جزءا من رسالة اهالي دير القمر يقولون فيه : « هذه هي المرة الثانية التي يطلب منا محمد علي فيها السلاح . كما انه يريد ايضا جمع الاتوات قبل مواعدها لكي يسهل عليه بعد تجربتنا من المال والسلاح اخذ دمانا واولادنا دون جزاء ولهذا يجب علينا ان نتحد ونرفض طلبه الجائر ... وليقاتل الشعب الدرزي والشعب المسيحي من اجل هدف واحد في هذه المرة » .
(Adel Ismail, Histoire du Liban..., t. IV, p. 55).

٢١ - راجع :

W. Polk, The opening of South Lebanon 1788-1840, pp. 200, 201.

حسب قول (طنوس الشديان) الى جسر الاولي ونهبت الخان ثم عادت بسرعة الى المدينة لشعورها بعدم الاطمئنان خارج أسوارها. اما الفصائل اللبنانية فقد انسحبت بدورها الى الجبال . وقد طهر في الوقت نفسه مركز اخر للمقاومة في مقاطعة المتن قرب بعبداء . وهاجم الفلاحون اللبنانيون جماعة من الجنود المصريين المتقدمين في طريق دمشق وسلبواهم اسلحتهم . وظلت مسألة تسليح المتمردين (بالرغم من توفر السلاح المصري الموزع على المسيحيين والذي كان يعد سبعة الاف بندقية حسب تقدير ك . م . م . بازيلى) (٣٢) . مطروحة بالحاح طوال مدة العصيان . وكان المتمرّدون يحصلون على السلاح اثناء المعارك ويجمعون الاموال لشراء البنادق والمتفجرات (٣٣) .

وقد تشكل مركز ثالث للعصيان في سهل بيروت وفي احرار المدينة وبساتينها الكثيفة الاشجار (حيث تمركزت في شهر حزيران قوى المتمردين الرئيسية) (٣٤) . وكان على رأس الحركة في احاش بيروت ابو سمرا غانم وهو ماروني ومدير أحد القريين من الامير بشير الثاني وسليل اسرة عامل في قطع الاحجار ، واحمد داغر وهو متوالي (شيعي - المعرب) وسليل اسرة غير ارسطراطية على الارجح . وبعد فترة قليلة وقف على رأس الحركة الشيخ فرنسيس الخازن . ويذكر خليل فايز ان نبأ اشتباك اللبنانيين في معركة في منطقة صيدا دفع ابو سمرا غانم للعمل قطفق يجول في

٣٢ - ك . م . بازيلى : سوريا وفلسطين ... صفحة ١٩ . وكان باقي

الاسلحة محفوظة في مستودعات الامير بشير .

Adel Ismail, Histoire du Liban..., t. IV, p. 57.

٣٣ -

٣٤ - يحدد عادل اسماعيل مراكز خمسة هي اهم مراكز العصيان معتبدا في ذلك على معطيات القنصل الفرنسي بوريه : ١ - دير القمر حيث تمركز متمردو الشوف والغرب الاعلى والجرد والشحار والمناصف . ٢ - جزين ولبنان الجنوبي مع معسكر منطقة صيدا . ٣ - بيروت وهي اهم مراكز العصيان وتضم متمردى سهل بيروت والغرب السفلى والمتن وبيت شباب وكسروان . ٤ - البقاع مع معسكري بعلبك وزحلة . ٥ - لبنان الشمالي ومركزه قرب طرابلس . ان معطيات بوريه في جملتها تتطابق مع ما يذكره طنوس الشديان الا فيما يتعلق ببعلبك حيث كانت تتمركز الجيوش المصرية منذ بدء العصيان حسب رأي الشديان .

(Adel Ismail, Histoire du Liban..., t. IV, pp. 60, 61.

القرى الساحلية محرضا السكان على شق عصا الطاعة (٣٥) . فالتف حوله سكان القرى الواقعة في منطقة سهل بيروت كما انضم اليه فلاحون من المتن وبيت مري وبرمانا وغيرها من القرى الجبلية التي يعمل اهلها في تربية دودة القز في سهل بيروت . (وهم على الارجح من الشركاء الجبلين الذين يعملون في اراضي الشهابيين اصحاب الاراضي الواسعة في سهل بيروت) . فاختار ابو سمرا قرية الطيونة معسكرا لفرقة وبدأ بنهب الاغذية الموجهة الى الفرق المصرية في بيروت . وحاول ان يضرب الحصار حول المطاحن البنية على نهر الكلب ونهر ابراهيم حيث كانوا يطحنون القمح من اجل الجيش .

وقد عقدت في الوقت نفسه الاجتماعات في كافة قرى لبنان وكان المجتمعون يقسمون على عدم التخلي عن اسلحتهم (٣٦) .

وقد اشتهر بهذا الصدد نص القسم الذي اداه المسيحيون والدروز والمتاول والمسلمون في كنيسة القديس مار الياس في محلة انطلياس حيث تعاهدوا على العمل كيد واحدة وصف واحد (٣٧) .

ومع ان العمليات الحربية كانت موجهة ضد المصريين الا ان الحوادث اخذت تبعث القلق المشروع في نفس الامير بشير فبعث الى دير القمر بعملائه الذين اقترحوا على اهالي المدينة ايقاف القتال وذلك في محاولة منه لايقاف تطور الحوادث . ولكن متمردى دير القمر ظلوا بعد تردد قصير مخلصين للانتفاضة .

وفي تلك الاثناء انتقل مركز الحركة التي شملت عددا من مناطق جبل لبنان الى سهل بيروت ، وحاول الامير بشير ان يتفاوض مع قادة الحركة فارسل الى محلة سن الفيل الامراء اللمعيين ثم

٣٥ - خليل فايز ، ابو سمرا غانم ، صفحة ٤٤ .

Adel Ismail, Histoire du Liban..., t. IV, p. 56.

٣٦ -

٣٧ - ورد النص في كتاب خليل همام فايز « ابو سمرا غانم او البطل اللبناني » ، صفحة ٤ ، وهو يؤرخه بالسابع من حزيران فاذا قبلنا هذا التاريخ وجب علينا ان نوافق على ان سكان لبنان قد انجروا الى الحركة شيئا فشيئا . فقد انتفضت بعض المناطق في ايار ، ثم انضمت مناطق اخرى الى الحركة في حزيران عندما جرت الاصطدامات المسلحة في سهل بيروت .

اتباعهم بآبائه أمين . وكان المفاوضون من طرف المتمردين هم وجوه العامية .

وقد استعمل الشدياق اصطلاح « عامية » (جماعة المتمردين) (٣٨) في معرض حديثه عن المحلات والمناطق التي اشتركت في العصيان . وكتب عن عامية حرش بيروت وعامية دير القمر والتمن وغزير .

ويبدو ان نظام انتخاب وكيل عن كل قرية قد طبق ايضا في عصيان ١٨٤٠ كما كان الامر في عام ١٨٢٠ ، وكان الوكيل فلاحا يقوم بدور حلقة الوصل بين القرية ومركز العامية . وكانت العامية تأخذ قراراتها في الاجتماعات العامة التي كانت تتسع لبضعة الاف انسان (كالاتحاد الذي عقد في انطلياس عام ١٨٣٠) .

ويبرز طنوس الشدياق من بين صفوف العامية جماعة القادة ويكتب عن « وجوه » العامية و « قادتها » الذين يؤلفون مجلس المتمردين (٣٩) . ويذكر خليل فايز ان هذا المجلس كان يتألف من الشعب فقط ولم يكن يضم أي شيخ او امير . وكان يعقد جلساته في دكان في محلة الطيونة (٤٠) . وقد تشكلت مجالس مشابهة لمجلس بيروت في مراكز اخرى للعصيان ، ويمكن ان نجد وصفا

٣٨ - طنوس الشدياق « كتاب اخبار ... » الصفحات : ٥٩٠ - ٥٩٢ - ٥٩٤
٥٩٥ - ٥٩٧ - ٥٩٨ وغيرها . اما عادل اسماعيل فيستعمل بدل هذا الاصطلاح التعبير الفرنسي « Le rassemblement » بمعنى اجتماع أو حشد (Adel Ismail, Histoire du Liban..., t. IV, pp. 60, 61).

وتجد كلمة عامية تؤولا اوسع لها لدى يوسف خمار الحلو الذي يكتب قائلا : ان كلمة عامية تعني كل حركة شعبية يذود الشعب بواسطتها عن حقوقه من الاضطهاد والاستغلال . وهي تقابل كلمة « كومونة » الفرنسية التي اطلقوها على الحركة الثورية في فرنسا ١٨٧١ ، يوسف خمار الحلو العامية ... صفحة ٩ . كما ان م. كير يترجم اصطلاح عامية بكلمة « كومونة » وتعبر « ثورة العامية - الكومونة الثورية » .

(« Lebanon in the last years of feudalism 1840-1868 », p. 33).

٣٩ - يعرف خليل فايز اصطلاح « عامية » تعريفا ضيقا ومحددا فيطلق عليها اسم « مجلس شورى الشعب » مما يتناقض مع تفسير طنوس الشدياق ولا شك ان اقوال طنوس الشدياق هي المرجحة عندنا بصفته معاصرا للحوادث .
٤٠ - خليل فايز « أبو سيرا غانم » .

لاحدها - وربما كان مجلس دير القمر - في كتاب عادل اسماعيل لقد كان هذا المجلس يتألف من اثني عشر عضوا من المسلمين والمسيحيين . وقد قام هذا المجلس بتجنيد المتطوعين وانشأ صندوقا عاما لشراء البارود والرصاص ومن الجدير بالذكر انه اتخذ قرارا بتحويل العجلات الرصاصية في ورشات قتل الحريز الى طلاقات نارية ، وعين موعدا شهريا لجمع الاموال من السكان بما يتراوح بين ٢٠ باره وثلاثة قروش . وهكذا نرى ان مثل هذا المجلس كان يقوم في منطقة العصيان بوظائف الحكومة .

وفي بداية حزيران انتشر في منطقة العصيان بيان يقول فيه ناشروه :

« لكي نعمل بشمم وقوة لائقين بمثل هذه الاحداث الجلييلة ولاكي تكون قراراتنا موضوعة على ضوء حكمة وتأني اناس احرار، لا بد من ايجاد اتحاد يضم ابرز الناس واكثرهم ثقافة من بيننا . وسيتألف هذا الاتحاد من خمسة زعماء تنتخبهم الاكثرية في كل منطقة انتخابية . ثم يشكل كلهم او بعضهم مجلسا يقام في المكان الملائم للتوصل الى تنظيم رائع » (٤٢) .

وتدل هذه الدعوة على ميل المتمردين لتوحيد قواهم وتشكيل مركز موحد للقيادة . وليس لدينا أية معلومات عن تشكيل مجلس لكافة لبنان . ويرجح ان مثل هذا المجلس لم يقدر له ان يوجد .

وفي نهاية ايار أصبح سهل بيروت اكثر مناطق العصيان نشاطا ، وكان الامير بشير يجري مفاوضات مع مجلس هذه المنطقة بالذات وقد استمرت المفاوضات لمدة اسبوع ولعب فيها الامراء اللامعون دورين مختلفين ، فهم من ناحية هددوا المتمردين علانية وامروهم بالتوزع الى قرأهم والقاء السلاح ، ومن ناحية اخرى كانوا يدعمونهم بغية استقلال العصيان لتنفيذ مآربهم . وقد قدم المتمردون الشروط التالية : « اولاً اننا لا ندفع الا مالا واحدا فقط ثانياً - وأن يرفع (بشير - المؤلفة) بطرس كرامة من ديوانه . ثالثاً - أن يضع في ديوانه من الطوائف (الدينية) . من كل طائفة اثنين . رابعاً - ان يرفع عنهم السخرة وحفر المعدن ، خامساً - ان

وقد أيد الاقطاعيون هذه المطالب وسرعان ما انضمت اليه معسكر المتمردين فئة كبيرة من الاقطاعيين ومن بينهم الامراء اللعيون والشهابيون (اقرباء الامير الحاكم) ومشايخ الخوري ، وآل عيد آلتشرون في المفاوضات . وكانت غالبيتهم من الاحفاد الصغار للعائلات الاقطاعية اللبنانية . وعلى الأرجح ان التفاهم قد جرى بين العامة والامراء اللعيون ، عندما كان هؤلاء في سن القبل بصفتهم ممثلين للامير بشير بينما كان هو يتفاوض مع المتمردين .

لا شك ان مطالب المتمردين الاساسية وهي : إلغاء السخرة وجمع السلاح وكل الضرائب ما عدا المال الواحد كانت تعكس مصالح الجماهير الشعبية الواسعة .

اما اراحة كرامه فقد كانت من مصلحة الاقطاعيين اللبنانيين . فقد كان بطرس كرامه ، سكرتير الامير بشير ويؤثر عليه تأثيرا كبيرا ، وكان يحارب بحزم وقسوة ضد معارضي توطيد سلطة الامير (٤٤) . اما البند الذي يطالب بادخال ممثلين عن الجماعات الدينية الى الديوان فهو على الأرجح من املاء رجال الدين المسيحيين المؤيدين للعصيان .

ولم يضع المتمردون هدفا لهم اذاحة بشير عن الحكم فقد ورد في رسالة موجهة الى الامير امين (في ١٢ حزيران) ما يلي : « اذا اتجهت السلطات نحو جادة العدل وخلصتنا من الطغيان فاننا مستعدون لاداء السمع والطاعة ، لان عصياننا لا يهدف الى اقامة

٤٣ - طنوس الشدياق : كتاب اخبار ... صفحة ٥٩١ . يورد عادل اسماعيل في كتابه نصا اكثر تفصيلا لمطالب المتمردين معتدا في هذا على محررات القتل بوريه ومواد الارشيفات المصرية التي نشرها اسد رستم . والفقرتان الاوليتان من هذه المطالب تتطابقان مع معطيات طنوس الشدياق وهما : ١ - إلغاء الفردة والعودة الى النظام المالي الذي كان ساريا قبل الاستيلاء . ٢ - دفع الضرائب مرة في السنة بعد جمع الحريز . ثم يذكر عادل اسماعيل إلغاء الكفالة المتبادلة بين الاقارب في دفع الضرائب ، ورفع مصاريف رجال الامير عن السكان . (Adel Ismail, Histoire du Liban..., t. IV, pp. 57-58).

٤٤ - اسرخ « السفارة في القسطنطينية » .

حكم بل الى التخلص من هذا الطغيان المرهق فقط » (٤٥) .
وفعلنا لم يقف المتمردون ضد الامير بشير طوال مدة العصيان ولم يتخذ الامير بشير بدوره اية خطوات حاسمة ، بل كان يترقب الموقف ولم يبدأ بالعمل الفعلي الا عندما دخلت الجيوش المصرية الى لبنان .

وقد خلق موقف الامير بشير في البدء وهما بين صفوف المتمردين بأن الامير يمكن ان يؤيدهم في نضالهم ضد محمد علي . حتى ان ك . م . بازيلى كان يفترض ان الامير كان ينفخ في نار العصيان عمدا كي يستغله في علاقاته المعقدة مع محمد علي (٤٦) . ولكن ك . م . بازيلى لم ينتبه الى ان برنامج المتمردين كان يمس مصالح بشير بالذات . ومهما كان الامر فان الامير لم يكن في ظروفه تلك بقادر على جمع فرقة متطوعين اقطاعية وكان مضطرا للركون الى الهدوء .

وسرعان ما جمعت الحكومة المصرية قواتها حول لبنان وارسلت من حلب الى بعلبك فرقة ضخمة تعد ثمانية الاف انسان . فانخذ الامراء المنضمون الى معسكر المتمردين والمعتادون على قيادة العمليات الحربية قرارا مشتركا مع العامة بالتوزع الى فرق واحتلال المناقل الى لبنان في منطقتي صيدا وسهل البقاع للحوول دون نفاذ المصريين الى جبل لبنان . وكان على ابي سمرا ان يتوجه الى منطقة طرابلس لدعم العصيان في شمالي لبنان .

وفي التاسع والعشرين من ايار ضربت السلطات المصرية حول بيروت حجرا صحيا خوفا من انتشار وباء الطاعون الذي تفشى في دمشق حسب زعمها (٤٧) . ولكنها على الأرجح كانت تهدف من وراء هذا التدبير عرقلة نقل القمح الى البلاد التي أعلنت العصيان . وقد اصدرت في اوائل حزيران امرا بمنع نقل القمح الى الجبال عموما (٤٨) .

وقد تلقى سكان الجبال نبا الحجر المتحي على أنه تنكيل بهم من جانب المصريين . وفي الاول من حزيران هاجمت فصيلة ابي

٤٥ - I. de Testa, Recueil des traités..., t. III, p. 80.

٤٦ - ك . م . بازيلى ، سوريا وفلسطين ... ، صفحة ١٩٠ ، ١٩١ .

٤٧ - اسرخ « السفارة في القسطنطينية » .

٤٨ - ك . م . بازيلى ، سوريا وفلسطين ... ، صفحة ١٩٠ .

سمرا مكان الحجر ، وبعد مضي اربع ساعات من البدء بتبادل اطلاق النار ، حسب قول القنصل الفرنسي بوريه « وصل خمسة الاف نسمة الى اشجار الصنوبر (الحرش - المؤلفة) قرب بيروت ... وقد جاءت النساء هائجات ليأخذن الرجال من أعمالهم وحملن اليهم الاسلحة والفتوس والوتاد » (٤٩) محرضات اياهم على القتال .

ومنذ ذلك الوقت اخذ نطاق النضال في لبنان بالاتساع وقد كتب ك . م بازيلي بعد شهر : « لقد وقعت عدة اصطدامات بين المتمردين في الجبال والجيوش المصرية ، وكانت هذه الاخيرة تتقهقر باستمرار . ولا تزال ضواحي مدينتنا (بيروت - المؤلفة) مسرحا لاقتتال الاعداء . وقد انهزمت افواج كاملة من الجيوش النظامية بشكل مخز أكثر من مرة أمام أعيننا من قبل خمسين انسان من الجبلين » (٥٠) .

وقد توزعت عامية بيروت الى خمس فرق ، بقيت احداها في حرش بيروت وتوجهت الفرق الاخرى بقيادة الامراء الشهابيين واللمعيين وابي سمرا غانم نحو صيدا والبقاع وطرابلس ومزرعة الحازمية . وكان من نتيجة هذا تفتت قوى العامية الشعبية وانتقال القيادة الى أيدي الاقطاعيين .

وفي العاشر من تموز بدأ الجيش المصري المؤلف من ثلاثين الف جندي بالهجوم على البقاع من جهة الساحل وكانت فرق المتنيين المسلحة اول من تلقى الضربة من الجيش النظامي الذي انزل بهم الهزيمة وقتل منهم حوالي مئتي نسمة وقد تغفل المصريون في لبنان بالرغم من مقاومة المتمردين ، واخذت القيادة المصرية تجري مفاوضات مع عامية بيروت بغية اشاعة الفوضى بين صفوف اللبنانيين دون ان تتوقف عن الهجوم . واستطاع الامير بشير ان ييذر بذور الشقاق في صفوف المتمردين . وقد خانت غالبية المشايخ والامراء العصيان عند اول فشل واستسلمت للامير . وظلت بعض فرق الفلاحين تقاوم المصريين دون ان يكون لديها قيادة عسكرية . وقد حاربت فرقة ابي سمرا بعناد في شمالي لبنان ولكن الحركة ككل كانت محكوما عليها بالفشل .

Adel Ismail, Histoire du Liban..., t. IV, p. 59.

٤٩ -

٥ - أسرخ « السفارة في القسطنطينية »

٨٦

وكان المتمردون اللبنانيون في بدء العصيان قد أرسلوا ممثلين عنهم الى حوران ونابلس والخليل والى مناطق فلسطين حتى الاردن داعين الاهالي للاتحاد معهم . وقد هب المتأولة في بعلبك بقيادة الامير خنجر حرفوش ، ودب الهياج في صفوف حوران . واخذ المستأثرون ينصبون من الجليل والسمرة الى الكرك عبر نهر الاردن ، حيث كان الورك الدائم للتمرد . ولكن لم تظهر حركة على شيء من الجدية في اي مكان: فقد كانت مناطق الخليل وحوران ونابلس وشمالي لبنان في حالة ترقب وانتظار (٥١) . وقد أتت أكلها سياسة شق اهالي سوريا التي اتبعتها السلطات المصرية : حتى ان أكثر من خمسة آلاف شخص من سكان نابلس مدوا يد العون للجيوش المصرية لسحق العصيان في لبنان وانتقموا من اللبنانيين الذين شاركوا في اخماد العصيانات الفلاحية في نابلس .

وفي هذه الاونة الحرجة كان العملاء الانكليز الذين نزلوا في معسكر متمرد في حرش بيروت منذ بدء العصيان يحرضون قادة العصيان للتوجه الى الباب العالي والدول الكبرى في طلب المساعدة . ولم يكن هذا سوى تمهيد دبلوماسي من نوع خاص للتدخل الانكليزي العثماني المقبل في سوريا . وفي بداية حزيران بعث المتمردون برسائل مناسبة الى السلطان عبد الحميد والسفراء الانكليز والفرنسيين . بيد ان مساعدة الانكليز لم تعد ارسال بضعة صناديق من الذخائر الحربية . ولم تتخذ الدول الكبرى قراراً بمطالبة محمد علي بسحب جيورشه من سوريا الا في الخامس عشر من تموز « اي عندما كان قد قضى على العصيان » . وقد نكلت فرق الامير بشير وجيوش محمد علي تنكيلا قاسيا بالتمردين : وكانت فرق القمع تنهب وتحرق اي مكان نزلت فيه وارسل الامر بشير على الفور رجاله لجمع السلاح من القرى (٥٢) . وألقي القبض على بعض الاهالي في العديد من المقاطعات . وكتب ك . م . بازيلي وهو أحد مشاهدي هذه الحوادث :

« لقد عم الذعر سوريا بأجمعها عندما شاع نبأ اخماد التمرد اللبناني . واصبح الحكم المصري مخيفا في فترة انتصاره الاخير

٥١ - المصدر نفسه ، ك . م . بازيلي ، سوريا وفلسطين ... صفحة ١٩٢ .

٥٢ - طنوس الشدياق « كتاب أخبار ... » صفحة ٦٠٠ ، ٦٠١ .

أكثر من أي وقت مضى . وبالمقابل فإن قلوب السوريين لم تمتلئ
قبل الآن بمثل تلك الكراهية التي أصبحوا يضمرونها للباشا
المنتصر ، ولم تحدث العواطف الشعبية قبل الآن بمثل هذه القوة
وهي مكرهة على الهدوء والسكون » (٥٣) .

لقد كان للعصيان اللبناني (من أيار إلى تموز ١٨٤٠) أهمية
كبيرة بالنسبة للتطور التاريخي في لبنان وسائر الولايات السورية .
فقد كان هذا العصيان أول عصيان يشمل ألبلاذ بأسرها .
وهو من ناحية تركيبه الاجتماعي فلاحى بقسمه الرئيسي وتشكل
نواته من أفقر الفئات الاجتماعية : الشركاء ، والمياومين ، والفلاحين
ذوي الأراضى الصغيرة المسلحة بالآلات والعصى والفؤوس . ولم
يكن جيش المتمردين يتصف بقوام دائم بحكم طابعه الفلاحى . فقد
كان الفلاحون مضطرين في فترة زخمة الأعمال الزراعية في شهري
حزيران وتموز للعودة إلى أعمالهم في الحقول .

وقد أشرك في العمليات الحربية عدد من المتمردين يتراوح
بين خمسة وسبعة آلاف نسمة (٥٤) وبالتالي يكون عدد سكان
المناطق المشتركة في العصيان بين الخمسة عشر والعشرين ألف
نسمة على الأقل ، يتوزعون أثناء القتال إلى جماعات تتألف الواحدة
منها من خمسين أو مئتي مقاتل ، باستثناء الفرق التي كانت تقاتل
في ضواحي بيروت وسهل البقاع حيث كانت تتمركز أضخم فرق
المتمردين التي يزيد أفرادها عن ألف مقاتل .
ومما يستحق قدراً كبيراً من الاهتمام بهذا الصدد كيفية
تكوين القوى المسلحة من المتمردين .

٥٣ - ك. م. بازيلي : سوريا وفلسطين ، صفحة ١٩٥ .

٥٤ - يذكر طنوس الشدياق في معرض تعداده لاشتباكات المتمردين بالمصريين
أن عدد المشتركين في هذه الصدامات يصل إلى الألفي شخص . وقد قدر القنصل
الفرنسي عدد المتمردين في سهل بيروت فقط بخمسة آلاف متبرّد تقريباً . ويكتب
ك. م. بازيلي عن بضعة آلاف من الجبلين المشتركين في معارك سهل بيروت .
وحسب أقوال بوريه فإن النساء قد اشتركن اشتراكاً فعالاً في العصيان مع آتبن
لم يدخلن في صفوف الفرق المسلحة . (طنوس الشدياق ، كتاب ... الصفحات
٥٨٩ ، ٥٩٠ ، ٥٩١ ، ٥٩٥ ، ٥٩٢ ، ٥٩٩) ك. م. بازيلي : سوريا وفلسطين ...

صفحة ١٩١ .

Adel Ismail, Histoire du Liban..., p. IV, 59.

من المعروف أن فرقة مدينة دير القمر كانت تتألف من فئات
التجار والحرفيين والفلاحين من سكان المدينة . أما فرق سهل
بيروت فقد تشكلت بشكل عفوي كما كان الحال أثناء عصيان عام
١٨٢٠ . وكانت تتألف من فلاحى وحرفي وتجار بيروت الذين جاؤوا
إلى مركز العصيان .

بيد أن هذه الفرق كانت قليلة العدد نسبياً . ومما له دلالة
في هذا المجال أن سكان دير القمر كانوا يشكون من عدم تأييد
أناس المقاطعة (أي الفلاحين) لهم (٥٥) . وقد اضطروا سمرأ
إلى دعوة إقطاعي شمالي لبنان لجمع فرق مسلحة من المتطوعين
من أجل النضال ضد المصريين . وكان نفوذ الفئات الإقطاعية
والأساليب التقليدية في تنظيم القوى المسلحة لا يزال قوياً في
المجتمع اللبناني آنذاك . مما جعل أمراء أبي المصعب وآل شهاب
المنضمين إلى العصيان يجمعون فرق المتطوعين في مقاطعاتهم (٥٦)
ولكن مما له دلالة كذلك واقع ظهور فرق من المتمردين إلى جانب
فرق المتطوعين الشعبية (٥٧) .

٥٥ - طنوس الشدياق : كتاب ... صفحة ٥٩٠ .

٥٦ - المصدر نفسه ، الصفحات ٥٩٢ ، ٥٩٤ .

٥٧ - يورد خليل فايز في كتابه ، الحدث الذي جرى ، على حد زعمه ،
بين الأمير أمين وأبي سمرا غانم . فقد عبر الأمير في سورة غضبه أبا غانم بوضاعة
نسبه وقال له أن هؤلاء الذين تراهم حولك من أمراء ومشايخ لهم نفوذ بين الناس
فيحاربون بأموالهم ومزارعهم وخدمهم وأما أنت يا أبا سمرا فباي شيء تحارب
الدولة المصرية « أبرجالك ، أم بأموالك ؟ » أن خليل فايز يكتب هذا وكأنه يشاطر
الأمير الآراء الملائمة للنفسية الإقطاعية التي ترى أن معارضة الدولة مقصورة على
الإقطاعيين مع فرق من الفلاحين . فأجابه أبو سمرا غانم : أنني لست بفاكر أصلي
وفصلي ولكن أما تعلم أن « البارود يصطنع من الزبل ولكنه يحطم الصخور » .
ثم يصف خليل فايز بعد ذلك كيف دعا أبو سمرا المتمردين إلى القتال ضد المصريين
فاستجاب هؤلاء لدموته . وبهذا أشار خليل فايز إلى القوى الجديدة التي دخلت
الحياة السياسية في البلاد والتي هدمت الصلات والتصورات القديمة . (خليل
فايز ، أبو سمرا غانم ، صفحة ٥٢) .

وتجدر الإشارة هنا إلى الدور المتناقض الذي لعبه أبو سمرا غانم في الحوادث
اللاحقة ، عندما ساعد على توتر العلاقات بين الدروز والموارنة في سنوات
١٨٤١ و ١٨٤٥ .

واذا كان عصيان عام ١٨٢٠ يتيح لنا امكانية تعيين المراحل الاولى من عملية تحرر الفلاحين من نفوذ الفئات الاقطاعية فان عصيان عام ١٨٤٠ يعتبر تطورا لتلك العملية التي هي نتيجة لحركة مناهضة الاقطاعيين الصاعدة والتي ساعدت بدورها على تطوير وتعميق النضال ضد الاقطاعية .

واذا كانت بعض الفئات الاقطاعية قد شاركت في عصيان ١٨٤٠ فان ايا من هذه الفئات لم تكن المبادرة الى العصيان ولم تكن تقوم بكل ما يترتب على القائد السياسي للنضال . وليس من قبيل الصدف ان يكون عدد المشايخ والامراء الذين اعتقلوا بسبب مشاركتهم النشطة في العصيان اثني عشر شخصا فقط من اصل سبعة وخمسين معتقلا . فالى اي الفئات كان ينتمي الخمسة والاربعون شخصا الباقون ؟

ان ما يمكننا فعله في هذا المجال هو للاسف تقديم الافتراضات فقط .

من المعروف ان المبادرين الى العصيان هم سكان دير القمر الذين دعوا سكان المقاطعات المجاورة الى حمل السلاح وضغوطا على مشايخ القرى . وليس من قبيل الصدف ان يحتوي بيان الثامن من حزيران على الكلمات التالية : « ان سكان دير القمر هم اول من حمل السلاح في سبيل هدفنا العادل المقدس ، قتلوا دعوتهم الوطنية في كل مكان » (٥٨) . وقد تشكلت في المدينة اثناء ذلك قوى من اوساط الحرفيين التجار (من تجار وحرفيين وملاكين وعمال مانيفاكچورات) وبدأت بعد بضعة اشهر بالنضال ضد اسيادها - المشايخ النكدية . وربما كان قواد العصيان في المدينة والضواحي قد خرجوا في صيف ١٨٤٠ من هذه الاوساط بالذات .

اما المركز الرئيسي الثاني للعصيان فقد كان الاقليم القريب من بيروت . ومما يدل على صلة تجار بيروت بالتمردين هو انهم كانوا يسألون القنصليات الاوروبية عن موقف دولها من العصيان بايعاز من المتمردين انفسهم (٥٩) . ومن المعروف ان نعيم طراد وهو احد بورجوازي بيروت كان

I. de Testa Recueil destraités..., t. p. 76.

— ٥٨

٥٩ — اسرخ « السفارة في القسطنطينية » د. ٧٠١ ، ل ٣٦ .

٩٠

من المساهمين في العصيان (٦٠) . وكان مجلس متمرد سهل بيروت المؤلف من افراد الشعب يتمتع بتأييد التاجر الريفي (وكان المجلس يعقد جلساته في دكانه) ثم ان احد القادة العسكريين في هذا الاقليم كان ابو سمرا غانم وهو ابن حجار ومن متهني التجارة سابقا .

كان هذا يجعلنا نرجح مشاركة العناصر البورجوازية في العصيان وفي قيادته . وربما كان يوجد الى جانبهم في قيادة العصيان اقطاعيون صغار من اتباع المشايخ والامراء وفلاحون اغنياء ورجال من مختلف الفئات الاجتماعية اتخذوا من الخدمة العسكرية مهنة لهم (مثل يوسف الشنتيري) .

ويحوز دارسو عصيان ١٨٤٠ في لبنان على وثائق تمكنهم من تكوين فكرة عن ايدولوجية قادة العصيان وتعطيهم مواد اضافية لتحديد وجه هؤلاء القادة الاجتماعي . ونقصد بهذا تلك الرسائل التي وجهها المتمردون للاهالي والامير امين والدول الاوروبية (٦١)

Adel, Ismail, Histoire du Liban..., p. 158.

— ٦٠

يقول ب. اوسبينسكي عن نعيم طراد ، المترجم الرسمي في القنصلية الانكليزية انه « وكيل الارثوذكس في جبل لبنان : يدبر لهم اعمالهم ويتلقى منهم الهدايا مقابل ذلك » . وقد كان يأخذ لنفسه مداخيل الاديرة بفويض من الحكومة (ب. اوسبينسكي : كتاب « حياتي » . الجزء الثالث بطرسبرغ ١٨٩٦ الصفحات : ١٩٢ ، ٣٩٦ ، ٤٤٠ ، ٥٩٨) . وقد كانت اسرة طراد مشهورة في بيروت « بفناها وتجارتها وكذلك بادبائها وشمرائها » جرجي زيدان : تراجم مشاهير الشرق ، الجزء الثاني الصفحة ٢٢٢ .

٦١ — لقد وصلنا النص الكامل لنداء الثامن من حزيران ، ثم ان هناك عرضا موجزا لرسالة اخرى في كتاب ك. م. بازيلى (« سوريا وفلسطين » ... صفحة ١٩١) ويورد عادل اسماعيل فقرة من منشور اهالي دير القمر كما يتحدث عن نشرات دورية كان يصدرها سكان المدينة .

Adel Ismail, Histoire du Liban..., t. IV, pp. 55, 58).

ان توجه المتمردين برسائل الى الدول الاوروبية كان بتعريض من عملاء هذه الدول لاستخدام العصيان لصلحتهم . ومن المعلوم ان ملحق السفارة البريطانية في استامبول اللورد بونسونبي قد جاء سرا الى معسكر المتمردين في سهل بيروت . اما ريتشارد ود الذي كان يقوم بدور رجل الاستخبارات الانكليزية في لبنان (اسرخ « السفارة في القسطنطينية » فقد كان يقوم بالدعاية الى جانب العصيان

٩١

ولكن اسماء مؤلفي هذه المنشورات والرسائل غير معروفة لدينا ، وكل ما نعرفه بهذا الصدد هو ان اكثرية هؤلاء كانت موجودة في عامية بيروت (٦٢) .

وقد كتب ك. م. بازيلى وعادل اسماعيل عن مساهمة المبشرين الكاثوليكين في الدعاية للعصيان وصياغة المناشير (٦٣) . بيد أن تحليل منشور الثامن من حزيران ، المقعم بالروح الوطنية يجعلنا نشك في صحة هذه الآراء .

ومن جملة ما جاء في هذا المنشور : « يا ابناء وطننا الاعزاء . لقد بدأت الحكومة بتطبيق سياسة شريرة ومحقرة لبلدنا بتفريقها ايانا عن طريق الكذب والوعود الفارغة ... فلنعلن العصيان دون خوف لان الطغيان الذي دفعنا الى التطرف يريد ان يهدم وطننا . واعلموا سلفا ان الندم لن ينفعنا بعد ذلك اذا نحن انقسمنا على بعضنا لا سمح الله في أي وقت كان أو فوتنا فرصة جمع قوانا من أجل انتزاع حريتنا » .

وقد كان التوجه للاله في المنشور عملا تقليديا قبل أي شيء آخر . إذ أن مؤلفيه لم يلجأوا الى العقائد اللاهوتية لاقامة الحجة على سلامة موقفهم ، مما ينسجم تماما مع آراء الثوريين السوريين في نهاية السنوات الأربعين . وقد ورد في مقدمة اعمال الجمعية

وأعدا المتمردين بدعم مسلح من انكلترا) .

وبالرغم من التعاليمات الرسمية التي كانت تصدرها الحكومة الفرنسية (خليفة محمد علي) الى قتلها بان يعمل على تهدئة البلاد ، فان القنصل الفرنسي كان أيضا « في علاقات وثيقة ومشبوهة مع المتمردين وكان يساعدهم بشتى الوسائل » (أسرخ « السفارة في القسطنطينية ») .

٦٢ - لقد كتبت الرسائل الموجهة الى الباب العالي والدول الأوروبية ، حسب أقوال طنوس الشدياق ، في مجلس عامية بيروت (كتاب ... صفحة ٥٩٥) وهناك ، على الأرجح ، كتبت كذلك الرسالة الموجهة الى الأمير أمين والتي كانت تحتوي على الاسباب الداعية لوضع المطالب التي قدمتها العامية للأمير بشر أثناء المفاوضات . ان العلاقة الوثيقة بين هذه الرسالة ومنشور ٨ حزيران وطابع المطالب والاستشهاد بهوقف دير القمر تجعلنا نميل الى الرأي القائل بان هذا المنشور قد صدر من بين صفوف المتمردين البيرونيين .

٦٣ - ك. م. بازيلى ، سوريا وفلسطين ... صفحة ١٩٢ .
— Adel Ismail, Histoire du Liban..., 87.

السورية ان « المسائل الخلافية في الاديان والاحكام لا تتعلق بهذه الجمعية (٦٤) .

ان الاستشهاد بما جرى في اليونان هو وحده ما يجعلنا نؤمن ان المنشور قد كتب في وسط مسيحي . بيد أن المنشور يحتوي أيضا على فقرة مكتوبة تحت تأثير الدين الاسلامي وايمانه بالقتل المكتوب ، وهي : « ان الموت يصيب الجميع على السواء فمن ينتظره بجبن في منزله ومن يتمرد في سبيل التحرير من نير الاضطهاد » . وتدل كل الشواهد على أن مؤلفي المنشور من الناس المثقفين ثقافة شرقية ومن اللبنانيين الذين لديهم تصورات ضبابية عن تاريخ أوروبا (وخصوصا فرنسا) . فالمفاهيم المأخوذة من قاموس أوروبا السياسي يضافي عليها معنى ضيق جيدا بتطبيقها على الواقع السوري ، ولهذا نجد ان مفهوم الحرية مثلا يمكن أن يطبق برأيهم سواء على حالة فرنسا المعاصرة او على وضع سوريا السياسي قبل الغزو المصري ، والمنشور مقعم بروح العداء للظلم وبشجب نزعة انزال الطوائف الدينية وانفلاقها . كما ان هذه الافكار منتشرة في نداءات المتمردين الاخرى .

« وقد جاء في الرسالة الموجهة الى الأمير أمين :

لقد وصل الاضطهاد بنا الى الحد الأقصى ونحن مضطرون للتمرد كي نتحرر من الظلم وننال الطمأنينة والحرية (٦٥) كما جاء في الرسالة الموجهة الى السفير الفرنسي :

« ان ابشع اشكال الظلم قد اجبرتنا على حمل السلاح للحد عن حياتنا وشرف أسرنا ضد قسوة الجنود المصريين ... ان قضيتنا عادلة » (٦٦) .

بيد أن البرنامج السياسي في وثائق المتمردين متناقض وغير محدد . فقد جاء في منشور ٨ حزيران « اما من جهتنا فقد عزمنا على نيل استقلالنا او الموت دون ذلك » . ويقسم المتمردون في منشورات أخرى « على الاخلاص للسلطان وشرحون شكواهم ضد المصريين ويصورون بعبارات توراتية محمد علي وابراهيم كخلفاء اكفاء للفراعة مضطهدي رعايا الله (٦٧) . وفي تموز كتب افراد

٦٤ - أعمال الجمعية السورية ببيروت (١٨٥٢) .

٦٥ - I. de Testa, Recueil des traites..., t. III, pp. 79, 80.

٦٦ - Ibid., p. 83.

٦٧ - ك. م. بازيلى ، سوريا وفلسطين ، صفحة ١٩١ .

عامية بيروت رسالة للسلطان يلتمسون منه العون وجاء في الرسالة الموجهة لسفير فرنسا « انا نرغب في ان يسمح لنا بالعودة الى حظيرة سلطاننا » (٦٨) ان كل هذا يدل على وجود شتى الاراء والنزعات السياسية بين قادة العصيان وعلى عدم نضج نظراتهم السياسية .

آن الشعور الوطني وشجب الانعزال الطائفي ومناهضة الظلم هي من الامور المميزة لدى الثوريين السوريين - اللبنانيين . ومن المعروف ان المثقفين اللبنانيين الوثيقي الصلة بالوسط البورجوازي الناشئ كانوا ينشرون ويطورون افكار ومثل التنوير . ثم ان هناك شاهداً ثالثاً يقنعنا بأن كاتبى الوثائق كانوا من ممثلي الفئة الثالثة (٦٩) في المجتمع ، فقد عرض اصحاب الرسالة الموجهة الى السفير الفرنسي شروطهم لعودة سلطة الباب العالي الى سوريا كالتالي : « انا نطالب فقط بامتيازات وحقوق الخط - الشريف الذي منحه حاكمنا العالي الهمة الى جميع اتباعه الامناء دون استثناء او تمييز » (٦٩) .

لا شك في ان مثل هذا الطلب يمكن ان يصدر بالدرجة الاولى من الاوساط التجارية - الصناعية المسيحية .

ان كل هذا يؤكد الفرض القائل باقتراب العناصر البورجوازية من مركز قيادة العصيان . وقد أدى اشتراك هذه العناصر اشتراكاً نشيطاً في حياة لبنان السياسية الى تعميق الحركة المناهضة للاقطاعية والى ولادة التنوير في المجال الايدولوجي . وكان هذا هو الحصلة الهامة التي أسفر عنها عصيان عام ١٨٤٠ .

اعادة الحكم التركي الى سوريا

في الخامس عشر من تموز عام ١٨٤٠ عقدت بريطانيا العظمى وروسيا والنمسا وبروسيا في لندن معاهدة مع تركيا تضمنت لحمد

I. de Testa, Recueil des traités..., t. III, p. 82.

- ٦٨

(*) نسبة الى التقسيم التقليدي للمجتمع الاوروبي ما قبل الثورة الفرنسية حيث يمثل النبلاء الفئة الاولى والاكليروس الفئة الثانية وبقية المجتمع الفئة الثالثة (البرجوازية فيما بعد) (ملاحظة من العرب) .

Ibid., p. 83.

- ٦٩

٩٤

علي الحكم المتوارث في مصر وولاية فلسطين طوال مدة حياته ، وتلزمه بسحب جيشه من سوريا وشبه الجزيرة العربية خلال عشرة ايام وأرجاع الاسطول الذي استولى عليه الى الاتراك ، والا فانه يحرم من حقه في فلسطين بعد عشرة ايام من فوات الموعد الاول . وقد اعلنت الدول الكبرى عن انها ستعمل على تنفيذ المعاهدة بالقوة اذا اقتضى الامر .

ولقد كانت معاهدة لندن نصراً دبلوماسياً كبيراً لانكلترا التي استطاعت ان تعزل سياسياً منافستها فرنسا عن الشرق الادنى وان تحصل كذلك على امتناع روسيا عن الانفراد بأي خطوة تجاه تركيا وذلك خلافاً لما كانت تنص عليه معاهدة (خنكيار اسكله سي) .

وكانت انكلترا تتمتع بملء الحرية في القيام بأي عمل فسي سوريا في حالة وقوع الحرب . ولم تكن حكومة بريطانيا العظمى لتتورع عن استعمال هذا الحق .

وفي الرابع عشر من اب عام ١٨٤٠ وصلت الى بيروت طليعة اسطول الحلفاء بقيادة (الاميرال) الانكليزي نيبير ، « فارتجت البلاد » (٧٠) لهذه الحادثة حسب تعبير طنوس الشدياق . وبما ان نجاح العمليات الحربية كان يتوقف على دعم سكان سوريا ولبنان لجيش الحلفاء فقد توجه نيبير بدعوة للجنود الاتراك والسوريين الخادمين في الجيش المصري ولاهالي لبنان واخبرهم ان الدول الاوروبية تنوي البدء بالحرب ضد محمد علي ودعا الجنود الى الانضواء تحت لواء « والي السلطان الشرعي » (٧١) ودعا الاهالي الى النهوض ضد الحكومة المصرية . وقد جاء في النداء « يا سكان لبنان ... انهضوا والقوا ، فقد آن الاوان ، بالنير الذي ترزحون تحته » (٧٢) .

وقد رفض محمد علي الاعتراف بالمعاهدة لانه كان يعلق الامل على مساعدة فرنسا له . فحاصرت المراكب الانكليزية الساحل السوري واعلنت الحكومة المصرية في السادس والعشرين من اب عام ١٨٤٠ حالة الحرب في سوريا .

٧٠ - طنوس الشدياق ، كتاب ... صفحة ٦٠٢ .

٧١ - ك. م. بازيلى : سوريا وفلسطين ... صفحة ١٩٦ .

٧٢ - M. Jouplain, la question du Liban, Paris, 1908, p. 227.

وقد ارسل الامير بشير فرقا من رجاله الى المناطق الشمالية والمركزية في الساحل اللبناني ليمنع السكان من الاتصال برجال الاسطول . فأخذت هذه الفرق تنتقم من الرعايا بجمع السلاح والخيول والغرايم (٧٣) . وفي السادس والعشرين من اب اصدر قائد الجيش المصري سليمان باشا امرا يقضي باعدام كل من يحمل الى سوريا او يوزع فيها « مؤلفات أو منشائر هدفها التحريض على شق عصا الطاعة والعصيان » . وكان الاحتفاظ بمثل هذه المؤلفات يودي بصاحبه الى السجن . ووجهت السلطات دعوة الى كافة السكان لتسليم « جميع المؤلفات او المنشائر التي يوزعها المحرضون على العصيان » (٧٤) الى السلطات المحلية . ان هذا كله يدلنا على انتشار المطبوعات المعادية للحكم انتشارا واسعا في البلاد .

وقد توجه الامير بشير كذلك بأمر مشابه لسكان لبنان (٧٥) . وكان المرسومان يمنعان ايضا توزيع الاسلحة تحت طائلة الاعدام .

وفي العاشر من ايلول وصلت الى ميناء بيروت مفرزة بحرية متحدة اشتركت فيها انكلترا بأحد عشر مركبا وست قرقاطات وخمس سفن شراعية حربية وخمس بواخر وبطارتين من مدفعية الانزال والنمسا بفرقاطتين وثلاثة سفن اخرى وتركيا ببضعة سفن بقيادة الانكليزي فوكر المجند في الجيش التركي . وقد اوكلت مهمة قيادة المفرزة البحرية وكل العمليات البرية للادميرال الانكليزي ستوبفورد (٧٦) . وكانت القوى المتحدة البرية ضئيلة جدا وتتألف من لواء تركي يضم خمسة الاف واربعمئة انسان ، وفصيلة انكليزية للانزال تضم ألفي شخص وسرية نمسوية تتألف من خمسمئة انسان . واما جيش الباشا فقد كان يتألف من خمسة وسبعين ألف

٧٣ - طنوس الشدياق ، كتاب ... صفحة ٦٠٣ .

٧٤ - اسدخ « السفارة في القسطنطينية وقد جاء نص الامر كذلك في كتاب

عادل اسماعيل .

Histoire du Liban..., p. 92.

- ٧٥

I. de Testa, Recueil destruite..., t. III, p. 83.

٧٦ - ك . م . بازيلى - سوريا ولبنان ... صفحة ١٩٩ .

جندي مما جعل توازن القوى بعيدا كل البعد عن التساوي . بيد ان الدفاع عن سوريا كان امرا صعبا وشاقا بالنسبة للجيش المصري اذ ان قطع الاسطول كانت تستطيع المناورة بسهولة على طول الساحل السوري واختيار مكان وزمان انزال الجنود من البحر .

وفي صباح الحادي عشر من ايلول عام ١٨٤٠ نزل الجنود الاتراك والانكليز الى جونية وهي بلدة ساحلية صغيرة واقعة في سفوح جبال لبنان شمالي بيروت . وقد جعلها موقعها مكانا مناسباً للاتصال برجال الجبال . وفي غضون بضعة ايام تم تشكيل معسكر محصن (٧٧) واطلقت المراكب قذائفها من البحر فخربت الطريق المؤدي الى بيروت كما صبت نيرانها على المدينة نفسها .

وفي الشهر التالي انزل الحلفاء الى البر جنودا جددوا واستولوا على منطقتي البترون وجبيل الساحليتين وعلى مدينة صيدا . ولكنهم لم يقوموا بأية عمليات برية للتوغل الى داخل البلاد ، واقتصروا على تسليح السكان .

وقد كان ظهور المفرزة البحرية الاتحادية عند شواطئ سوريا سببا في هياج الكسروانيين على اعوان الامير الأموريين بردع الناس عن أخذ السلاح فولى هؤلاء هاربين (٧٨) . واخذ الفلاحون يأتون الى معسكر جونية جماعات ووحدانا . وقد أبلغ ك . م . بازيلى في ايلول « ان اكثر من خمسة الاف جبلي قد اتى الى المعسكر هذا اليوم طلبا للسلاح . ولكن هؤلاء الناس يخافون من وجود الجيش المصري » (٧٩) . وفي تلك الاثناء بلغ عدد الجيش المصري في لبنان اثني عشر ألف جندي .

وقد اتى الى جونية كذلك الاقطاعيون المنحازون الى جانب الاتراك . وظهر ابو سمرا غانم من جديد على مسرح السياسة بعد ان حصل على اربعة الاف بندقية لتسليح رجاله . وبلغ عدد الاسلحة التي وزعت حتى منتصف تشرين الاول

٧٧ - ك . م . بازيلى كان في المعسكر بعد عشرة ايام من نزول الجنود وقد ذكر ان المعسكر كان محصنا تحصينا جيدا .

٧٨ - طنوس الشدياق في كتاب ... (٦٠٣) .

٧٩ - اس د خ « السفارة في القسطنطينية » د . ٧٠١ ، ل ٦٤ .

حدود الثلاثين ألف بندقية (٨٠) . وكانت فرق الفلاحين المسلحة تهجم على فرق الجيش الامامية وعلى قوافل العربات وتقطع الطريق على المراسلات وتلقي الذعر في صفوف الجيش المصري باستمرار، مما أدى الى لجم نشاط الجيوش المصرية .

وكان الوضع الداخلي في لبنان يقلق القيادة المصرية اشد القلق . وقد اقترح الامير بشير والمقربون من ابراهيم باشا فسي الاجتماع الذي دعا اليه هذا الاخير أن ينزلوا عند مطالب الاهالي، ولكن الباشا أصر على اتخاذ تدابير قمع قاسية . وقال ، حسب تعبير طنوس الشدياق ، « الرأي عندي أخراب السواحل لمنع الناس عن الافرنج » (٨١) وأخذ جيش ابراهيم باشا يعمل لاختماد العصيان والحؤول دون اتصال السكان بمعسكر جونية . وتحقيقا لهذا الهدف وزع قائد الجيش المصري جنوده الموجودين في لبنان الى أجزاء وبعث جزءا منها الى الشمال الغربي لمنع اللبنانيين من الاتصال بجونية ، وامسك الجزء الاخر بمفتاح الساحل اللبناني - مدينة بيروت ، وشرع الجزء الثالث بعمليات القمع . وظل ابراهيم باشا في محاولات مستمرة لاختماد العصيان حتى بداية تشرين الاول دون أن تسفر جهوده عن نتيجة .

وفي الرابع من تشرين الاول هاجم الكسروانيون بدعم من فصائل الجيش التركي جيوش ابراهيم باشا . فاعلن السر عسكر انه ينعم عليهم « لبسالتهم وثبوتهم » بترك مال كسروان على ثلاث سنين (٨٢) وذلك لكي يشدد من نشاط اهالي لبنان . وانتشر مرض الزحار بين جنود ابراهيم باشا حتى انهم اصبحوا يشكون من قلة الاطباء والمعدات الطبية والاغذية ، وانتشر

M. Jouplain, la question du Liban, p. 233.

- ٨٠ -

قامت فرقة الجنود النازلين على شواطئ لبنان بتوزيع الاسلحة في ولاية صيدا ومعلقة الدامور بهدف نشر العصيان الى جنوب ووسط لبنان . وبذكسر طنوس الشدياق ان القيادة التركية ارسلت الى مقاطعة الشحار الامراء الشهابيين من عيه « لتثديد الرعايا » . (طنوس الشدياق كتاب ... صفحة ٦٠٨) .

٨١ - طنوس الشدياق . كتاب ... صفحة (٦٠٥) .

٨٢ - طنوس الشدياق صفحة ٦٠٦ . راجع ايضا

(British and Foreign state papers, 1846-1847), vol. XXXV, London 1860, p. 869.

الفرار من الجندية على نطاق واسع . واضطر ابراهيم باشا للتراجع الى بعلبك وما لبث هذا التراجع أن تحول الى فرار مشحون بالذعر والفرع . وترك الجيش المصري كل ما معه من عربات في ضواحي بيروت . وفي التاسع من تشرين الاول سقطت بيروت . واضاع المصريون حكمهم في لبنان .

وقد ظلت فرنسا حتى شهر تشرين الاول تقف بالسلح وتبعث الامل بتدخلها المسلح في نفس محمد علي في مصر والامير بشير في لبنان . ولكن لم يكن هناك ميل لدى لويس فيليب او البورجوازية الفرنسية الكبيرة باشعال نار حرب اوروبية . وفي الثامن من تشرين الاول ارسل تيير بضبط من الملك مذكرة الى لندن أعلن فيها ان فرنسا لن تجعل من القضية السورية Casus belli واعقبت هذا استقالة تيير ، واوكل منصب وزير الخارجية في حكومة المارشال سولت الجديدة الى ف . غيزو وهو من انصار الاتحاد الوثيق مع انكلترا . وفي التاسع والعشرين من تشرين الاول عام ١٨٤٠ اعلنت الحكومة الفرنسية في بيانها للبرلمان عن املها بحل المشكلة حلا سلميا (٨٣) .

وقد اجبرت هزيمة الجيش المصري في لبنان وموقف فرنسا الامير بشير على الكف عن المقاومة . وفي الرابع عشر من تشرين الاول قدم الامير بشير الى صيدا بصحبة العديد من اعوانه ، ثم غادر لبنان باذن من القائد التركي الى منفاه في جزيرة مالطا .

وقد حاول ابراهيم باشا أن يعيد تنظيم جيشه في بعلبك . ولكن سكان الجبال كانوا يعرقلون تحقيق هذا الهدف بهجماتهم المستمرة . واصبح لبنان يملك فرقة منظمة من المتطوعين بقيادة احد اقرباء الامير بشير الثاني البعدين وهو الامير بشير قاسم ملحم الذي دعاه الاتراك الى جونية واعلنوه حاكما للبنان في الثالث من ايلول بعد أن رفض الامير بشير الانحياز الى جانب الحلفاء . وفي الايام الاولى من تشرين الثاني استولى الحلفاء على عكا بعد ضربها بالقنابل فأدى هذا الى نشوب العصيان في فلسطين ثم في لبنان الشرقي وحاصر الفلاحون والبدو يافا والرملة واللد

والقدس وانتقموا من بقايا الحامية في عكا (٨٤) .

وفي نهاية تشرين الثاني تراجع ابراهيم باشا من بعلبك الى دمشق ، وسرعان ما غادر الجيش المصري شمال سوريا . وفي التاسع والعشرين من كانون الاول غادر المصريون دمشق ، ولم تحل الايام الاخيرة من كانون الثاني عام ١٨٤١ حتى نظفت البلاد من القوى المسلحة المصرية (٨٥) . ودخل الجيش التركي الى سوريا دون ان يجد امامه اية مقاومة .

ولم تمر الاشهر الاربعة الاخيرة من عام ١٨٤٠ على لبنان دون ان تترك اثرا فيه . فاذا كان عدد المشتركين في عصيان صيف ١٨٤٠ بلغ ما بين السبعة الاف والثمانية الاف انسان فان عدد البنادق التي وزعت في هذه المرة بلغ ما بين العشرين الف والثلاثين الف بندقية . مما يجعلنا نستنتج ان عدد المشتركين الفاعلين في العصيان المناهض للمصريين قد اصبح اكثر بمرتين مما كان عليه على اقل تقدير . فقد تسلح ثلث الفلاحين القادرين على حمل السلاح تقريبا ، مما يمكن ان يسفر عن عواقب جدية في ظروف احتداد التناقضات الاجتماعية .

ان دعاية الحلفاء لصالح العصيان وانتشار المطبوعات المعادية للحكومة ساعدا على تطور التفكير السياسي عند اهالي لبنان . وخلق الدور الذي لعبه اللبنانيون في العمليات الحربية ثقة لديهم في قوتهم . وليس من قبيل الصدفة ان يكتب الجبليون للسلطان في عام ١٨٤١ ان اللبنانيين ليسوا بحاجة لحماية الباب العالي فهم قادرون على الدود عن انفسهم بانفسهم .

ان التقدم الذي حدث في الوعي الاجتماعي للسكان خلال عام ١٨٤٠ والنصف الاول من عام ١٨٤١ قد جعل ك . م . بازيل يكتب عن حق « ليس من الممكن بعد تقييم طابع الثورة المعنوية التي عمت البلاد بقوة ، فقد اندثرت العادات القديمة المتوارثة عن العهد

٨٤ - أسدخ « السفارة في القسطنطينية » د . ٧٠١ ل ٩٩ .

٨٥ - خسر المصريون خسائر عظيمة في غضون العمليات الحربية الممتدة من ١٠ ايلول ١٨٤٠ وحتى ٢١ كانون الثاني ١٨٤١ : فقد عاد الى مصر من جيش يمد خمسة وثمانين الف جندي ما يزيد قليلا عن عشرين الف جندي اسدخ « السفارة القسطنطينية » .

الابوي « (٨٦) » .

واسفرت حوادث خريف عام ١٨٤٠ عن نتائج هامة في السياسة الخارجية . فحتى السنوات الثلاثين لم يكن يلاحظ في لبنان سوى سيطرة التأثير الفرنسي وحده تقريبا . اما الآن فقد تغير الوضع وامتلات البلاد بالعملاء والضباط والرحالة الانكليز . وازداد وزن انكلترا السياسي في لبنان الى حد بعيد نتيجة اشتراكها في العمليات الحربية ، مما زاد في حدة التنافس الفرنسي - الانكليزي .

الفصل الثالث

الصِّدَامَات بَيْن الدَّرُوزِ وَالْمُؤَارِنَةِ
عَامَي ١٨٤١ و ١٨٤٥ وَجَوْهَرُهَا الْاجْتِمَاعِي

* حَوْل تَأْرِخِ الْقَضِيَّةِ

* الْوَضْعُ السِّيَاسِي فِي سُورِيَا

عَام ١٨٤١

* الصِّدَامَات بَيْن الدَّرُوزِ وَالْمُؤَارِنَةِ

عَام ١٨٤١

* اَصْلَاحَاتُ الْحُكْمِ السِّيَاسِي

فِي لُبْنَانٍ وَاسْتِفْحَالُ أَمْرِ

الرَّجْعِيَّةِ الْاِقْطَاعِيَّةِ

* الصِّدَامَات بَيْن الدَّرُوزِ وَالْمُؤَارِنَةِ

عَام ١٨٤٥

الصدامات بين الدروز والموارنة عامي ١٨٤١ و ١٨٤٥ وجوهرها الاجتماعي

حول تاريخ القضية

جرت التقاليد في كتب التاريخ على النظر إلى السنوات العشرين التالية من تاريخ لبنان كفترة للصدامات بين الدروز والموارنة أي الاشتباكات المسلحة بين طائفتي الدروز والموارنة الدينتين اللتين تشكلان الجمهور الأساسي من سكان البلاد . وكانت الصدامات قد لاقت صدى واسعا لها في الصحافة الأوروبية وكتب عنها الكثير من المؤلفات . ولا تزال العلاقات المتبادلة بين هاتين الطائفتين من السكان موضع الاهتمام حتى أيامنا هذه بدليل صدور كتاب عادل اسماعيل في سنة ١٩٥٨ ، المكرس لتاريخ لبنان منذ عام ١٨٤٠ وحتى عام ١٨٦٠ (١) . ويعود السبب في هذا الاهتمام إلى أن مسألة العلاقات بين الدروز والموارنة لا تزال تؤثر في حياة البلاد السياسية حتى وقتنا هذا . فلا يزال يعتمد حتى الآن في فترات احتداد الازمات السياسية والاجتماعية إلى محاولة تأجيج نار العداوة بين الدروز والموارنة، كما جرى أبان الانتفاضة الشعبية عام ١٩٥٨ .

وكان السؤال الأول الذي عالجه باحثو القضية الدروزية - المارونية يطرح كالتالي : هل هناك عداوة بين الدروز والموارنة قبل

أحداث الأعوام الأربعين من القرن التاسع عشر ؟
يسود بين المؤرخين الفرنسيين الرأي القائل بوجود عداوة أصيلة بين « العروك والديانات » في لبنان ، كما يأخذ عادل اسماعيل بهذا الرأي كذلك (٢) . ومن الأمور المميزة لانصار هذا الرأي التأكيد على الفروق الجنسية بين الدروز والموارنة . ان الدوافع الاصلية لمثل هذه النظرة تعود الى اسباب سياسية محضة وهي على وجه التحديد : محاولة وضع اساس فكري لتدخل فرنسا في شؤون لبنان ولسياسة الوصاية على الموارنة الذين يكابدون من التزمت العقائدي الدرزي منذ القدم ، حسب زعم اصحاب هذه النظرية .

اما المؤرخون العرب ، فهم على العكس يؤكدون وحدة الطائفتين وينفون وجود العداوة بين الدروز والموارنة حتى بداية القرن التاسع عشر . وقد وجدت هذه النظرية تعبيراً عنها في دعاية الثوريين السوريين عام ١٨٦٠ (٣) ، ولدى معاصري الاصطدامات الدرزية - المارونية مثل حسين ابو شقرا (٤) واسكندر ايكاريوس (٥) .

كما يأخذ بمثل هذا الري ايضا بعض الكتاب الاوروبيين كالمحرر الاجتماعي الدبلوماسي ورجل السياسة الانكليزي د . اوركهارت (٦) الذي زار لبنان فيما بين السنوات الاربعين

Ibid., p. 105.

- ٢ -

(*) ملاحظة من مقدم الكتاب : لا نعتقد ان المؤلف على حق في اعتبار عادل اسماعيل من هذا الرأي ، والجملة التي استندت اليها لا تكفي لهذا الاطلاق في رأينا خاصة وان الاتجاه العام لكتاب عادل اسماعيل لا يسمح به . اما الجملة التي نطن المؤلف قد اشارت اليها في الصفحة ١٠٥ فهي : « ان العداوات العرقية والدينية واختلاف المصالح التي احتوتها شدة الامر بشير ، قد عادت وانفجرت بشدة في ظل حكم خلفه الضعيف » .

٣ - ز . ا . ي . ليفين : عن نشاط بعض الجمعيات التنويرية فسي النصف الثاني من القرن التاسع عشر - « الانباء الموجزة لعهد الاستشراف » الاصدار ٧١ . موسكو ١٩٥٨ .

٤ - ابو شقرا : الحركة

Iskandar Abkarius, The Lebanon in turmoil..., p. 60.

- ٥ -

Durquhart, The Lebanon..., vol. I, p. 48.

- ٦ -

١٠٦

والخمسین والكولونيل الانكليزي تش تشيرشيل (٧) الذي اقام في لبنان حوالي العشرين عاما منذ سنة ١٨٤١ ، والكتاب الاجتماعي الفرنسي ادوارد (٨) . والقنصلان الروسيان ك . م . بازيلى (٩) وك . د . بتكوفتش (١٠) والكتاب الروسي ن . بيرغ الذي عاش في لبنان عام ١٨٦٠ (١١) .

والواقع ان مؤرخي الاخبار العرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر لم يذكروا شيئاً عن العداوة بين الدروز والموارنة ، شأنهم شأن الرحالة الاوروبيين في القرن الثامن عشر بمن فيهم ك . ف فولني (١٢) ، شاهد العيان الموثوق الذي قضى في لبنان شهورا عديدة .

وهم يرون اسباب ظهور هذه العداوة منذ بدء القرن التاسع عشر في تغير نسبة القوى السياسية داخل الطبقة الاقطاعية لصالح الاقطاعيين الموارنة ، هذا التغير الناتج عن سياسة بشير (١٣) « المعادية للدروز » .

ولا شك ان سياسة الامير بشير « المعادية للدروز » والتي هي نتيجة النزعة نحو مركز السلطة في البلاد ، قد لعبت دورها في اضعاف مواقع الاقطاعيين الدروز السياسية .

تم ان اعتناق البعث الحاكم للمسيحية وتعاضل نفوذ الاقطاعيين المسيحيين ورجال الدين الموارنة في سياسة لبنان الداخلية ، والحوادث المرتبطة باحتلال المصريين لسوريا ، عمات كلها على تعزيز

Ch. Churchill, The Druzes... - ٧

R. Edwards, La Syrie 1840-1862..., p. 79, 50 etc. - ٨

٩ - ك . م . بازيلى سوريا وفلسطين ... اوديسا ١٨٦٢ صفحة ١٧٦ .

١٠ - ك . د . بيتكوفتش ، لبنان واللبنانيون . صفحة ١١١ .

١١ - ن . بيرغ : الحوادث الاخيرة في سوريا - « مكتبة للقراءة » ١٨٦٣ تشرين الاول .

C.-F. Volney, Voyage en Egypte et en Syrie. - ١٢

١٣ - وهذه هي وجهة نظر ابي شقرا (الحركة من صفحة ٢٥ الى صفحة

(٣) عادل اسماعيل (Adel Ismail, Histoir du Liban..., p. 128).

وتش . تشيرشيل (Ch. Churchill, The Druzes..., pp. 41-42).

وو . بولك (W. Polk, The opening of South Lebanon, 1788-1840, p. 123).

١٠٧

مواقع الارستقراطية المسيحية في المجال السياسي . ان الجماعات الاقطاعية المختلفة التي شاركت في كافة الحوادث السياسية في لبنان حتى في ١٨٣٢ قد تشكلت بمعزل عن تأثير ديانا المشتركين فيها (فقد كان بين اليمينيين والقيسيين مثلاً في عام (١٧١١) دروز ومسيحيون الى جانب بعض) . وكان احتلال الجيش المصري لسوريا من عام ١٨٣٢ الى ١٨٤٠ سبباً في خلق اتجاهات سياسية مختلفة لدى الاقطاعيين الدروز والموارنة (١٤) .

فالامير بشير ، حليف محمد علي ، والمشايخ المسيحيون الراضون عن سياسة ابراهيم الباشا المتسامحة تجاه الاديان هلّولوا لدخول الجيش المصري الى سوريا . اما الاقطاعيون الدروز الكبار فقد اتخذوا موقفاً معاكساً وانضموا الى معسكر جيوش السلطان . ثم تراجعوا مع الجيش التركي الى الاناضول ، وبعد هزيمة الاتراك قرب نيزيب في عام ١٨٣٩ تحول مشايخ الدروز لخدمة محمد علي (١٥) . بينما أصبحت الارستقراطية المسيحية في ذلك الوقت تقف موقف المعارضة من السلطات المصرية .

كما اختلف موقف الطائفتين كذلك من الانتفاضات المعادية للمصريين في لبنان عام ١٨٤٠ . ولم يشارك في عصيان صيف ١٨٤٠ سوى الاقطاعيون الدروز الصفار . كما ان الارستقراطية الدرزية الكبيرة لم تشارك في العمليات الحربية ضد المصريين في خريف ١٨٤٠ الا في المرحلة الاخيرة ، بينما كان الاقطاعيون المسيحيون يقوون سمعتهم السياسية بمشاركتهم الفعالة في العصيان وخاصة في العمليات الحربية الى جانب الحلفاء .

ويلاحظ مشاهدو حوادث الاعوام الاربعين الى جانب هذا اسباباً اقتصادية لظهور العداوة بين الدروز والموارنة ، وهي على وجه التحديد : احتلال الموارنة المتزايد لجنوب ووسط لبنان وائراء المسيحيين (١٦) . والتدهور الاقتصادي الذي اصاب الفلاحين الدروز . وقد كتب عن هذا ابو شقرا وك . م . بازيلى

١٤ - وقد اشار الى هذا ابو شقرا (الحركة صفحة ٢٢) ابكاروس (Iskander Abkarius, The Lebanon in turmoils, pp. 51, 59).

١٥ - ومن بينهم كبير عائلة النكدين وهو الشيخ ناصيف النكدي ، وكبير تلحوق والمشايع خطار الهاد وفارس العيد واحمد جنبلاط وغيرهم .

١٦ - المقصود هنا تكاثر الفئة المسيحية التي تزاول التجارة والربا .

كما اولاه ف . بولك (١٧) اهتماماً كبيراً . وكان الامير بشير يشجع انتقال الفلاحين الموارنة الى الاراضي الحرة في وسط لبنان هادفاً من هذا الى غايات سياسية واقتصادية .

وقد اشار ابو شقرا وك . م . بازيلى وانيس فريحة ون . بولك الى ان الاهالي المسيحيين كانوا اكثر نشاطاً في المجال الاقتصادي (١٨) .

وكان الدروز يعتبرون ان الحرفة والتجارة من الاعمال غير اللائقة بينما كانت البسالة في الحرب تتمتع بتقدير عظيم لديهم . ولهذا فان الاقطاعيين الدروز خلافاً للمسيحيين لم يشاركوا في العمليات التجارية وكان الفلاحون لا يعملون الا في الزراعة . وقد كان اعمار الموارنة لجنوب ووسط لبنان يساعد على تطوير الحرفة والزراعة في هذه المناطق وعلى حراثة الاراضي الحرة . وكان بشير يشجع على شراء اراضي الدروز والاستيلاء عليها من قبل المسيحيين الاغنياء والكنيسة المارونية (١٩) .

١٧ - ابو شقرا ، « الحركة » ، صفحة ٣٢ . ك . م . بازيلى : سوريا وفلسطين ، ١٨٦٢ ، صفحة ١٦٨ .

W. Polk, The opening of South Lebanon, 1788-1840, pp. 127, 130, 137.

١٨ - ابو شقرا : الحركة صفحة ٢٥ ، و يكتب ك . م . بازيلى في كتابه سوريا وفلسطين ... (صفحة ١٦٨) « ان العشيرة (الدروز - المؤلف) تقتصر في كل مكان على الاعمال الزراعية والرعي . ولا نجد في سوريا مدينة واحدة فيها درزي واحد من السكان . وحتى في قراهم الخاصة فان المسيحيين هم الذين يعمدون بالتجارة والحرفة دائماً .

ويذكر انيس فريحة ان الدروز كانوا يعتبرون ان من المحرم عليهم الحصول على وسائل المعيشة عن طريق غير طريق الزراعة .

(١٩) ابلغ القنصل الانكليزي الكولونيل روز من بيروت ان « مسيحيي دير القمر اغنياء وادعاهم في ازدهار ، ويجمع الكثيرون منهم بين ملكية المنازل والاراضي التي كانت سابقاً في حوزة الدروز ثم اخذها منهم الحكام السابق الامير بشير .

(W. Polk, The opening of South Lebanon, 1788-1840, p. 280).

جدول التوزيع الديني لسكان لبنان في أواسط القرن التاسع عشر

لبنان الشمالي		لبنان الجنوبي		الاقاطعة	
الاسلام	الدروز	المسيحيون	الالكثون	الاقاطعة	الاقاطعة
٦٠	١	١٧٣١	مشايع آل الضاهر	الزاوية	الزاوية
١٢٦	١	٢٥٠٠	آل العازار (الملكية)	الكورة	الكورة
١٣٩	١	١٤٥٨	مشايع ابي صعب (موارنة)	القوطع	القوطع
١	١	١٠٢٠٠		جبة بشري	جبة بشري
١٨٨	١	٦٨٠٣		بلاد البترون	بلاد البترون
١٠٠٠	١	٥٠٠٠		جبييل	جبييل
٢١٩٦	١	٢٤٧٠		جبة النيطرة	جبة النيطرة
١٩	١	٢٠٩٩	المشايع الدحادحة	الفتوح	الفتوح
١	١	١٠٠٤٤	مشايع بيت الخازن وبيت جبيش (موارنة)	كسروان	كسروان
		٤١٨١		القاطع	القاطع

ومن الملاحظات الهامة التي تساعد على فهم الدوافع السياسية التي جعلت الامر بشير يتصرف على هذه الشاكلة ما ذكره اي. بوركهاردت من أن الضرائب المفروضة على فلاحي لبنان غير منساوية « فالدروز يشكلون الفئة الاغنى من السكان ولكنهم لا يدفعون سوى جزءا قليلا من مجموع الرسوم بفضل حماية الشيخ بشير جنبلاط لهم. ويفضل الشيخ أن يقف في المجال السياسي موقف المدافع لا موقف السيد » (٢٠) . وبتعبير آخر فقد كان الشيخ الدرزي ذو النفوذ الواسع يخلق عن وعي وضع متحيزا للفلاحين الدروز ، ويقسّد العلاقات المتوارثة من العهد الابوي بين الفلاحين والاقطاعيين الدروز مما كان يعود بالضرر على الفلاحين المسيحيين . وقد أتت هذه السياسة اكلاها في عام ١٨٤١ عندما أبد الفلاحون الدروز اقطاعاتهم أثناء نضالهم ضد الفلاحين الموارنة .

وقد حاول الامر بشير وأعوانه على ما يبدو نفس الدعاية السياسية التي يعتمد عليها الاقطاعيون الدروز بهدف توطيد مواقع الاهالي المسيحيين الاقتصادية في لبنان المتوسط .

وحوالي منتصف القرن التاسع عشر ازداد عدد السكان المسيحيين على عدد الدروز الى حد كبير . وقد أورد طنوس الشدياق معلومات عن تركيب سكان لبنان من حيث دياناتهم (انظر الجدول) . (وهو لا يتحدث سوى عن الرجال دافعي الضرائب الذين يشكلون نصف مجموع السكان تقريبا) .

ويتوضح من هذه المعطيات ان الديانة المسيحية (المارونية) كانت تعم سائر جبل لبنان الشمالي تقريبا . كما ان المسيحيين كانوا يفوقون المسلمين (الدروز) عددا الى حد كبير في الجنوب . وكانت المنطقة الوحيدة التي يشكل فيها الدروز نصف السكان هي منطقة لبنان المتوسط . وكان ملاك الارض الاقطاعيون في جنوب ووسط لبنان من المشايخ الدروز (باستثناء الامراء اللميين) . وكان هذا التوزيع ينطوي على خطر وقوع اصطدامات بين الفلاحين الموارنة والمشايع الدروز في حالة حدوث اضطرابات في البلاد .

ولم يستطع أحد من راصدي حوادث الأعوام الأربعين إلا أكثرهم نفاذ بصيرة وبعد نظر أن يروا في الصدام الماروني - الدرزي مظهرا من مظاهر النضال الذي بدأه الفلاحون في عام ١٨٤٠ ضد العسف الاقطاعي وذلك دون أن يغمطوا كل الإبعاد الأخرى لهذه المسألة . وربما كان ك. م. بازيلى وهو أول من أشار إلى هذا (٢٤) . ثم كتب عن هذا فيما بعد كل من بولس نجيم ، و ر. ادوارد والقنصل الفرنسي رينيه ريستيلوبير (٢٥) - كما أن المستعربين السوفيات يأخذون بهذه النظرة كذلك .

ولا يمكن تجاهل هذه النظرية في الوقت الحاضر عند تحديد السبب الاساسي والمعنى الاجتماعي للصدامات بين الدروز والموارنة . ومن الآخذين بهذا الان ع. اسماعيل و م. كيروش عيساوي (٢٦) . ولكنهم يقتصرون على التصريح بها فقط ، فمالكولم كير مثلا ، كاتب مقدمة وثائقه المترجمة عن العصيان الفلاحي في كسروان (١٨٥٩ - ١٨٦١) التي نشرها يوسف يزك لا يمكنه أن يدعم نظريته بالبراهين الدقيقة المفصلة . أما عادل اسماعيل ، فيقتصر أثناء بحثه مواد القنصلية الفرنسية العامة في بيروت على بحث الخطط والأفكار الدبلوماسية حول قضية الدروز والموارنة .

E. Poujade, Le Liban et la Syrie. 1845-1860. Paris, 1860. — ٢٣

ادمون بلييل ، تاريخ لبنان العام . Iskander Abkarius, The Lebanon in turmoil...; B. Poujoulat, La verite sur la Syrie..., L. Baudicourt, La France en Syrie, Paris, 1860; F. Lenormant, Histoire des massacres de Syrie en 1860; E. Louet, Expedition de Syrie..., 1860-1861.

٢٤ - راجع إي. م. سميليا نساكيا ، « ك. م. بازيلى الدبلوماسي الروسي ومؤرخ سوريا » مجموعة : « حول تاريخ الاستشراق الروسي » الجزء الرابع موسكو - الصفحة ٦٧ - ٦٩ .

Rene Ristelhue ber, Les traditions françaises au Liban, — ٢٥
Paris, 1918, pp. 32-33.

Adel Ismail, Histoire du Liban..., Lebanon in the last ٢٦
years of feudalism 1840-1868 », pp. X, 3; Ch. Issawi, Economic development and Liberalism in Lebanon, p. 283.

الشدياق إلا رؤية الاسباب الطافية على سطح الظواهر وهي على وجه التحديد : دوافع الثأر الشخصي لدى الاقطاعيين الدروز من الأمير بشير قاسم ورغبتهم في ازاحة الأمير الحاكم من منصبه (ويقسر طنوس الشدياق استياء الاقطاعيين الدروز من الأمير بشير قاسم برفض الأمير اعادة حقوقهم في المقاطعات) أما الاسباب التي دفعت بقية الدروز للاشتراك في الصدامات فإرهاها طنوس الشدياق في أنهم كانوا ينتقمون من الموارنة لقتل بعض أهالي بعقلين أثناء المشادة التي وقعت بين ماروني من دير القمر ودرزي من بعقلين . ويجد هذا التفسير قبولاً له إلى هذه الدرجة أو تلك لدى كافة من جاء بعد طنوس الشدياق من الباحثين المعتمدين على مراجع عربية .

وقد كشفت الصدامات التي وقعت في عام ١٨٦٠ بين الدروز والموارنة بسطوع الدور الاستفزازي الذي لعبته الدول الأوروبية والسلطات التركية في الحوادث اللبنانية ، والذي لم يتوان اسكندر ايكاريوس عن الإشارة إليه (٢٢) . فقد أخذت الصحافة الفرنسية والانكليزية في السنوات الستين تتراشقان التهم وتفضح احداها الأخرى ، كما نشر عدد كاف من الاخبار المثيرة عن الأعمال الاستفزازية التي كانت تقوم بها السلطات التركية في لبنان . (لا ينبغي أن ننسى أن القضية اللبنانية أصبحت جزءاً من المسألة الشرقية مما أثار اهتماماً خاصاً بسياسة تركيا في لبنان .) وهكذا أصبحت آفاق الصدام بين الدروز والموارنة في السياسة الخارجية محط أنظار الباحثين في تاريخ لبنان . ولهذا أصبح تأويل أسباب الصدامات بين هاتين الطائفتين يتطلب قبل كل شيء بحث السياسة الاستفزازية التي كانت تنهجها السلطات التركية والدول الأوروبية الغربية . ويأخذ بهذه النظرة (مع اختلاف في تقييم سياسة كل واحدة من هذه الدول) الدبلوماسي الفرنسي أوجين بوجاد واللبناني بولس نجيم الذي أصدر في باريس عام ١٩٠٨ رسالة لنوال الدكتوراه بعنوان « المسألة اللبنانية » تحت الاسم المستعار « جوبلان » واللبناني ادمون بلييل مؤلف كتاب تاريخ لبنان الذي يدرس في المدرس . ونأشر مخطوطات اسكندر ايكاريوس ج. شيلتيم وغيرهم . كما ينطلق من هذه النقطة كذلك الكتاب الاجتماعيون الفرنسيون أنصار البعثة الامرنسية إلى سوريا في عام ١٨٦٠ ب. بوجولا و ل. بوديكور و ف. لينورمان

وهكذا فإن المسألة كما تطرح في الوقت الحاضر تجعل قضية الدروز والموارنة تدخل كجزء أساسي في بحث الحركات الشعبية المناهضة للاقطاعية في الشرق الأدنى .

الوضع السياسي في سوريا عام ١٨٤١

في نهاية عام ١٨٤٠ انتهت العمليات الحربية في سوريا ، وقد رحلت آخر القطعات المصرية عن البلاد في آذار ١٨٤١ . وحلت فرق المتطوعين التي يترأسها الأمير بشير قاسم قرب يافا (٢٧) . ولكن الوضع في سوريا بقي على تعقيد سابق .

وقد بدأت الجيوش التركية دخولها الى سوريا بالسلب والنهب وخاصة في قرى حمص وحماه وبلدة البترون ومحلة الدامور في لبنان . ولم تتخذ السلطات الحاكمة تدابير حازمة ضد البدو ، فاستغل هؤلاء تغير الحكم وأخذوا يغيرون على السكان الحضر . وقام الجنرال حسن والي القدس برمي الفتنة بين بعض الطوائف الاقطاعية في فلسطين فثارت بينها الصدامات المسلحة التي كان ضحيتها الفلاحون بالدرجة الاولى (٢٨) .

ومن جديد عاد الشعور بالعداوة لتركيا ينتشر ويقوى بين أهالي سوريا ولبنان وفلسطين . وأخذ فلاحو نابلس يجعون الأسلحة التي كان الجيش المصري يخلفها أثناء تقهقره . وكانوا يقاوضون خبزهم على البنادق في لبنان حيث كان الناس يعانون من نقص كبير في الاغذية (٢٩) . ولم يقدم الاتراك على المباشرة بجمع الضرائب حتى أيار عام ١٨٤١ .

كان بعض الموظفين الاتراك يرون ان التوتر السياسي داخل سوريا يمكن اضعافه بنشر القوانين الجديدة المسنونة على أساس خط كلخانة ، الذي وصلت أخباره الى سورية وبعثت الامل لدى جميع الفئات بإجراء تغييرات جوهرية في البلاد (٣٠) .

٢٧ - طؤوس المدياق ، كتاب صفحة ٦١٥ .

٢٨ - أسرخ « السفارة في القسطنطينية » .

٢٩ - ك.م. بازيلى : سوريا وفلسطين صفحة ٢٦٦ .

٣٠ - يذكر هنري غيز ان بعض هذه الاوهام ظل منتشرا حتى منتصف

السنوات الاربعين .

(H. Guys, Voyage en Syrie, Paris, 1855, p. 69.)

وفي نهاية نيسان جمع باشا دمشق الارستقراطية الاقطاعية السورية وقرا أمام الحفل التعليمات الجديدة في ادارة البلاد ، القائمة على أساس مبادئ الخط الشريف في كلخانة (٣١) . ثم شرع الاتراك بعد هذا بإجراء الاصلاحات في الجهاز الاداري ونظام الضرائب .

فأصبحت الادارة في البلاد مركزية : وتم توزيع السلطة المدنية والعسكرية ، وتشكل جيش عربي متحد بقيادة السرعسكر الخاضع لوزارة الحربية وأصبح الموظفون الاتراك يقبضون رواتب منتظمة . وبالرغم من ان هذه الاصلاحات أضعفت من تعسف البشوات الاتراك ولكنها لم تقض على سرقة الخزنة والرشوة المتفشيتين بين الموظفين الاتراك ، وعلى الوشائيات والابتزاز بالتهديد ، والدسائس . واستمر الباب العالي في تغيير البشوات بسرعة حتى بلغ عدد البشوات الذين حكموا بيروت في غضون سبع سنوات (من ١٨٤١ - ١٨٤٧) ثمانية بشوات ، كان يتغير معهم عادة جهاز الموظفين .

وقد بقي نظام الضرائب من حيث جوهره كما كان في السابق بالرغم من الوعود السخية التي كانت تمنحها الدولة ابان العمليات الحربية . حتى ان الدولة احتفظت بضريبة الفردة التي فرضها المصريون وأصبح اسمها الآن « فيرغي (*) » . ولم يلغ سوى نظام الالتزام في جباية الضرائب (بعد سنتين أعادت السلطات التركية فعليا نظام الالتزام) (٣٢) .

كما حاولت الحكومة التركية الحد من نفوذ الاقطاعيين السوريين فأدخلت قسما منهم في خدمتها كموظفين حكوميين . وظلت المساواة التي أعلنها الاتراك بين جميع الرعايا مجرد كلمة جوفاء . فلم يكن الفلاحون وفقراء المدينة هما الفئتان الوحيدتان اللتان لم تستطيعا التمتع بحقوق متساوية مع الطبقات العليا . بل ولم تكن الفئات العليا من المسيحيين كذلك متساوية في الحقوق مع المسلمين . نعم ، لقد استطاعت فئة التجار المسيحيين الوصول الى مجلس الولاية في صيدا ولكن دورها كان معدوما تقريبا . ولم تتشكل غرف تجارية خاصة تتمتع فيها فئة التجار السورية بالنفوذ الا بعد اضطرابات السنوات الخمسين في بيروت ودمشق وحلب .

٣١ - أسرخ ، ف « السفارة في القسطنطينية »

(*) المقصود بها ضريبة الويركو (ملاحظة من المغرب) .

٣٢ - أسرخ « السفارة في القسطنطينية » .

ومع أن النتائج العملية للإصلاحات في سوريا لم تكن بالكبيرة فإن الأثر السياسي الذي أحدثه إعلان خط كلخانة كان ذا أهمية كبيرة . وقد كتب ك.م. بازيلي يقول « أن النظرية عن حقوق الرعايا تنتشر مع كل سنة أكثر فأكثر وتحس بها كافة الفئات شيئا فشيئا » (٣٣) . وليس من قبيل الصدفة أن يأتي إلى بيروت في صيف عام ١٨٤١ مئتا فلاح من الناصرة ليشتكوا من تعسف السلطات « ويحصلوا على تنفيذ مبادئ التنظيمات » (٣٤) .

وقد أحدثت الإصلاحات المحدودة خيبة أمل في نفوس غالبية فئات السكان ، وخاصة بين الجماهير الشعبية الواسعة التي كانت تأمل في تخفيض الضرائب . وقد شدد هذا من حركة المقاومة التي نهضت ضد المطالبة الأولى بالضرائب من قبل السلطات التركية . وفي تموز من عام ١٨٤١ هدد سكان حلب أمام المآل « بالتشنيع بالدفتردار عند أول طلب لضريبة العشر مما اضطر هذا الموظف في اليوم ذاته إلى تأجيل الأمر الذي كان قد أصدره قبل قليل والقاضي بجباية هذه الضريبة » . وفي كانون الأول قامت من جديد « بعض الفلاحين في حلب بمناسبة جباية ضريبة « الفيرغي » كما كانت فلسطين بدورها « في حالة أقرب إلى الفوضى ، فقد أبى الفلاحون دفع الضرائب ، وأخذ القنصل الفرنسي في دمشق على عاتقه إرسال توصلات بعض القرى التي تطالب برفع كافة الضرائب إلى الباب العالي » (٣٥) .

ولم تستطع السلطات التركية أن تنهي جباية الضرائب في عدد من مناطق البلاد إلا في وقت متأخر من خريف عام ١٨٤١ . ولكن سكان جبال الناصرة ظلوا حتى عام ١٨٤٢ يرفضون دفع الاتاوات (٣٦) .

٣٣ - ك.م. بازيلي : سوريا وفلسطين ، صفحة ٢٤٦ .

٣٤ - أمرخ « السفارة في القسطنطينية » .

٣٥ - المصدر نفسه .

٣٦ - المصدر نفسه .

لبنان قبيل الاصطدامات بين الدروز والموارنة في عام ١٨٤١

كان الوضع في لبنان أعقد مما هو عليه في سوريا . فقد كان الاضطهاد الضرائبي من جانب الأمير بشير والسلطات المصرية ، ثم بعثات القمع الموجهة ضد المتمردين اللبنانيين والعمليات الحربية ، على أرض لبنان سببا في نفس الاقتصاد الفلاحي . وكان عام ١٨٤٠ عام قحط في البلاد وقد كتب ك.م. بازيلي يقول : « كان سكان القرى التي حكم عليها إبراهيم بالاعدام أثناء العمليات الحربية يموتون من الجوع وقسوة الشتاء » (٣٧) .

وقد أخذ الاقطاعيون الدروز العائدون من المنفى يسعون للحصول على حقوقهم وأراضيهم المتوارثة . وقد كان الأمير بشير قد وزع مقاطعاتهم في فترة غيابهم على أصحاب المقاطعات المسيحيين ووضع حدا لتعسف المالكين الجدد . وانتقل قسم من الأراضي الشاسعة إلى أيدي التجار والاديرة والفلاحين الأثرياء . ولكن إعادة الانظمة القديمة كانت تهدد هذه الممتلكات وتنذر بإعادة العسف الاقطاعي ولهذا رفض السكان المسيحيون بسخط الطلبات الاقطاعية التي أبداها أسيادهم السابقون (٣٨) . وكان سكان دير القمر من الد خصوم أصحاب المقاطعات الدروز .

أما الفلاحون الدروز فعلى العكس ، استقبلوا عودة الارستقراطية الدريزية بود (٣٩) لانهم كانوا يأملون استعادة امتيازاتهم اليهم .

وقد حاول حاكم لبنان الجديد الأمير بشير قاسم الوقوف كذلك في وجه نزعات الاقطاعيين الدروز . ولكن لم يكن لديه كسابقه طائفة اجتماعية قوية يستطيع أن يعتمد عليها لانجاح سياسته ولم تكن لديه صلات مع مختلف فئات السكان . وبالإضافة إلى هذا فقد كانت سياسته تصطدم بدسائس القناصل الأوروبيين ، الذين كان أمر صلتهم بالطوائف الاقطاعية ، معروفا جيدا . ففي مقر الأمير بشير قاسم في محلة بعيدا كان يعيش مترجم القنصلية البريطانية الرسمي

٣٧ - ك.م. بازيلي : سوريا وفلسطين .

٣٨ - المصدر نفسه صفحة ٢٦٠ .

٣٩ - المصدر نفسه ، طنوس الشدياق كتاب ... صفحة ٦١٤ .

في بيروت وهو من عائلة « مسك » . ويكتب عادل استماعيل :
« يؤكدون ان الامير لم يكن يتخذ أي قرار بدون أن يأخذ أولا رأي
مستشار جلالته البريطانية الجديد » (٤٠) . وكان القنصل الفرنسي
يحاول بدوره التأثير على الامير بواسطة البطريرك الماروني ولكنه
سرعان ما شرع بعد فشل مساعاه بالدس ضد الامير بشير قاسم ،
محاولا أن يحصل على اقالته من قبل السلطات التركية (٤١) واوغر
صدر الارستقراطية الدرزية ضد الامير الحاكم (٤٢) .

وقد أخذت الحكومة التركية تعارض سياسة الامير بشير قاسم
لعدم وجود مصلحة لها في تعزيز حكمه . وأصدرت بشكل خاص أمرا
بإعادة الأراضي الى أصحابها من الاقطاعيين الدروز (٤٣) .

ولكي يكسب الامير الحاكم تأييد الاقطاعيين الصفار والمتوسطين
أعلن عن تشكيل ديوان لمعالجة الدعاوى القضائية ولتوزيع الضرائب .
وكان جزء من امتيازات أصحاب المقاطعات يجب أن ينتقل الى هذا
الديوان . وقد عين الشيخ المسيحي بشارة الخوري خصم الدروز
اللدود رئيسا له (٤٤) . وقد رفضت الارستقراطية الدرزية بحزم
الاشتراك في الديوان أو الاعتراف بتعليماته لان الديوان « يوقفهم عن
إطلاق حريتهم بسياسة رعاياهم » (٤٥) . وقد رد الامير على هذا
مهددا بالاستيلاء على المقاطعات واعطائها الى المقربين منه . وأصدر

Adel Ismail, Histoire du Liban..., p. 108.

٤٠ -

Ibid., pp. 113-115.

٤١ -

٤٢ - من الامور المميزة انه عندما كان القنصل افرنسي يحاول مفاوضة
المشايع الدروز في ربيع عام ١٨٤١ ، كان العملاء الانكليز يحاولون إقامة العلاقات
مع الاقطاعيين ورجال الدين الموارنة . وظل الامر هكذا حتى خريف عام ١٨٤١ حيث
وزعت مناطق النفوذ بين الدبلوماسيين الانكليزية والفرنسية ، وعندها اقتصر
العملاء الانكليز نهائيا على دعم الارستقراطية الاقطاعية الدرزية بعد ان اعرضت
عنهم الاوساط المارونية المخلص لفرنسا . وقد عجل هذا الانقسام في وقسوع
الام.طدام بين الدروز والموارنة .

Adel Ismail, Histoire du Liban..., p. 110.

٤٣ -

M. Jouplain, la question du Liban, p. 257.

٤٤ -

٤٥ - طنوس الشدياق : كتاب صفحة ٦١٩ .

١٢٠

أمرا باعتقال بعض المشايخ الدروز ومصادرة أراضي بعضهم . (٤٦)
وأخذ الامير يفتش عن سبل أخرى لتوطيد حكمه ، فسهل
إبسال الطحين الى لبنان وبيعه فيه ليتفادى الهيجان الداخلي بسبب
الجوع ، وكان هذا الامر سببا في تلقيه بأبي الطحين ولكنه لم يلعب
أي دور في توطيد حكمه . وقد حاول الغاء نظام الخوالي (الجباة من
رجال الامير) - (العرب) التي كانت ترهق كاهل الفلاحين . (٤٧)

فأثارت هذه المحاولة احتجاج التجار الاوربيين ، لان هذه الفرق
كانت تساعدهم في تحصيل الديون من الفلاحين . واضطر الامير
للتنازل عند ارادة التجار .

في آذار عام ١٨٤١ أصبحت تلاحظ في البلاد سمات « الاستياء
العام » فقد اضطربت الاحوال في الطرق وكثر السلب والنهب (٤٨) .
وانعدمت السلطة المستقرة في البلاد عمليا .

وكان رجال الدين الموارنة وزعيمهم البطريرك الماروني يوسف
حبيش سليل عائلة مشايخ حبيش المارونية الكبيرة يقفون في هذه
الظروف موقفا خاصا ، اذ أن هذا البطريرك كان يشارك الامير رغبته
في الحد من امتيازات الارستقراطية الدرزية ولكنه لم يكن يدعمه دعما
فعالا لامله في عودة الامير بشير الثاني .

وفي تلك الاثناء ازداد وزن رجال الدين الموارنة السياسي في
البلاد ، حتى ان الحكومة التركية أصبحت مضطرة لان تحسب حساب
نفوذ البطريرك ، وسأوت وضعه بأوضاع غيره من زعماء الكنائس

٤٦ - وقد حاول الاقطاعيون الدروز ان يردوا على اعمال بشير قاسم
باتحادهم مع الفئة الكبيرة من الارستقراطية الاقطاعية المارونية التي يترأسها
الشيخان خازن وحبيش بهدف تخية الامير عن سدة الحكم والمحافظة على الملكية
التقليدية للمقاطعات (طنوس شدياق كتاب صفحة ٦١٦) .

٤٧ - اسدخ « السفارة في القسطنطينية » وقد كتب ك.م. بازيلي يقول ان
« الامير كان يرى استحالة الاستمرار في النظام التمسفي الذي كان يطبقه سابقه »
وتدل هذه الملاحظة على ان مثل هذا الراصد الناقد البصر كان يشعر ببوارد الازمة
الاجتماعية التي يعيشها لبنان وما يصابها من تعب في وعي السكان .

٤٨ - المصدر نفسه .

(Adel Ismail, Histoire du Liban..., pp. 111, 112).

المسيحية في ربيع عام ١٨٤١ (٤٩) .
وكانت الكنيسة المارونية تلاقى كل الدعم من قبل الحكومة
الفرنسية التي لم تدخر جهداً في شتاء وربيع عام ١٨٤١ لاعادة نفوذها
المتزعزع بعد ابعاد المصريين عن سوريا . فقد وزع الافرنسيون
تبرعات ضخمة للموارنة بواسطة رجال الدين (فساعدوا بهذا على
تقوية الانعزال الديني بين أهالي البلاد) .
وكان مما يقلق رجال الدين الموارنة المؤامرات الانكليزية في
لبنان وقوة دعاية المبشرين البروتستانت الذين يتمتعون بدعم
الدبلوماسية الانكليزية (٥٠) .

وقد نما النفوذ الانكليزي في سوريا ولبنان بشكل ملحوظ اثناء
العمليات الحربية التي جرت في شتاء عام ١٨٤٠ . فقد غصت البلاد
بالعملاء الانكليز الذين كانوا يؤيدون المبشرين البروتستانت .

ولايقاف نفوذ الانكليز وحملة المبشرين بدأ العملاء الفرنسيون
ورجال الدين الموارنة يفتكون نار التعصب الديني بين الموارنة غير
متورعين عن ملاحقة معتنقي البروتستانتية بوحشية ، وعن حرق
الكتب الدينية التي يصدرها البروتستانت باللغة العربية امام الملأ .
كما حدث في مدينة دير القمر مثلاً (٥١) . وقد أدى هذا أيضاً الى عزلة
الموارنة وجعلهم جبهة مقابلة لبقية سكان لبنان وبالتالي الى اذكاء
نار العداوة بين الدروز والموارنة .
وكان مما يقلق رجال الدين الموارنة أيضاً ذلك الهيجان المتزايد
بين الفئات الواسعة من أبناء العقيدة الواحدة . وقد اتخذوا في غضون

٤٩ - « انعم السلطان على البطرك بشارة ماسية تساويه بغيره من الرؤساء
الدينين للشعب الخاضعة ومنحه الحق بان يكون له امين سر لدى الباب العالي
لقضاء شؤونه . » (ك.م. بازيلى ، سوريا وفلسطين ص ٢٦١) .

٥٠ - بدأ انتشار البروتستانتية في لبنان منذ الاعوام العشرين من القرن
التاسع عشر ، وبعد ان استقرت هناك بعثة المبشرين البروتستانت الامريكان في
عام ١٨٢١ . وكانت هذه البعثة تالهي النجاح في اوساط التجار والمثقفين بالدرجة
الاولى . وقد اصبحت البعثة في عام ١٨٤٠ تملك قروعا لها في بيروت وميدا
وحمص وطرابلس ودير القمر وعبيه . وكان المبشرون البروتستانت يهتمون بحماية
ودعم القنصلية الانكليزية وعمالها .

٥١ - ك.م. بازيلى : سوريا وفلسطين صفحة ٢٦٢ .

١٢٢

ربيع وصيف عام ١٨٤١ تدابير موجهة لاضعاف هذا الهيجان
واخماده ، وكانوا يمزجون الدعوة الى الحب والطاعة بالتأييد
الديماغوجي لمطالب الفلاحين ، ويجمعون بين اثارة التعصب
الديني والدعوة لوحدة مصالح الموارنة ابناء العقيدة الواحدة . وكان
البطرك الماروني قد توجه في آذار الى رعايا الكنيسة طالباً منهم
اعادة الاسلحة التي وزعها الانكليز . ويرى ك.م. بازيلى ان هذا
الطلب قد تأتى عن أسباب دينية (٥٢) ، بيد اننا نظن ان الهدف من
هذا الطلب كان تجريد بعض السكان الهائجين من اسلحتهم . ولكن
« لم يكن هناك أحد يفكر باعادة سلاحه » .

هكذا كان توزع القوى الاساسية في لبنان في ربيع عام ١٨٤١ .
وكان الباب العالي يعاني اشد المعاناة من الضيق المالي مما
جعله يطلب بالاتوات رغم وعوده بتأجيل جباية الضرائب
والاميازات .

وبدأت السلطات التركية بأن أعلنت مبادئ خط كلخانة على
الملأ . ثم أصدر باشا بيروت في نيسان عام ١٨٤١ أمراً يقضي بحضور
الامير والاستقراطية القطاعية الى حرش بيروت . كما اقتصرح
على البطرك يوسف حبيش أن يرسل وكلاء شخصيين عنه لهذا
الاجتماع الذي سيحضره ريتشار وود أيضاً .

ويكتب طنوس الشدياق بصدد هذا الاجتماع : « فتوجه الامير
ومعه بعض المناصب ووكلاء البطرك وقدم الوزير الى هناك وصحبته
ريتشار وود وقاضي بيروت . وانعقد حينئذ مجمع حافل وتلى عليهم
فرمان يتضمن الترتيبات والراحة والمساواة بالحق » (٥٣) .

ثم اقترح الاتراك على الامير والاستقراطية اللبنانية الحضور
الى بيروت للتفاوض حول المطالب الجديدة فيما يتعلق بالضرائب .
ولكن المعلومات عن المطالب التركية للأسف متناقضة . ويتلخص
مغزاها على الأرجح بما يلي : كان الاتراك يريدون اخضاع لبنان
لنظام الضرائب العام بالنسبة لسائر الامبراطورية ، وذلك بفرض
ضريبة العشر على المنتجات الزراعية الى جانب ضريبة الارض وجباية

٥٢ - اسرخ « السفارة في القسطنطينية » . « لقد اصبحوا يناقشون في
السندوس الماروني القضية التالية : هل ياتم الشعب الكاثوليكي اذا قبل الاسلحة
من يد الزناقة ؟ » (ك.م. بازيلى ، سوريا وفلسطين ، صفحة ٢٦١) .

٥٣ - طنوس الشدياق « اخبار الاعيان » صفحة ٦١٦ .

١٢٣

الخراج من المسيحيين وهي ضريبة لم تكن تجبى قبل القرن التاسع عشر في جبل لبنان ، ثم ضريبة الفيرغي المفروضة على كافة السكان . وفي شهر نيسان من العام نفسه طبق الاتراك على الولايات السورية مفعول المعاهدة التجارية المعقودة في عام ١٨٢٨ مع انكلترا وبقيّة الدول . (من المعروف ان محمد علي رفض الاعتراف بهذه المعاهدة) . وقد رفعت المعاهدة نسبة رسوم الاستيراد من ٣ ٪ الى ١٢ ٪ ورفعت رسوم التصدير حتى نسبة ١٠ ٪ . وبالإضافة الى هذه التغيرات فقد خفض التجار أسعار البضائع الصادرة بنسبة ١٠ ٪ ورفعوا أسعار البضائع المستوردة بالنسبة نفسها .

وكان من المفروض حسب حسابات (دي ميلو ايز) أن يزيد هذا مقدار الاناوات المحببة من لبنان على عشرة أضعاف إذ أن الرسوم التي كانت تؤخذ من الفلاحين الذين يبيعون الحرير ويشترون الحبوب كانت تصل وحدها الى نسبة أربعين بالمائة من أصل المدخول (٥٤) . وقد أثارت المطالب التركية احتجاجا عاصفا وعمت الاجتماعات كل مكان وكان يشارك فيها كل فئات الشعب المعبرة عن استيائها من الإدارة التركية . وقد حدث في طرابلس مثلا أن رفض أكابر المدينة المجتمعون إقامة الصلاة التقليدية من أجل السلطان (٥٥) تعبيراً عن احتجاجهم .

واستمرت المفاوضات بين السلطات التركية وبين الأمير بشير قاسم وأعوانه مدة أسبوعين وانتهت برفض الجانب اللبناني التعريفات الجديدة والضرائب .

وعندئذ توجه البطريرك يوسف حبيش الى الموارنة برستالسة يوصي بها رعاياه « أن يكونوا سالكين بالمحبة والطاعة حسب مقتضى الديانة » وأن « يكونوا مطيعين للسلطان ومن يوليه منهم عليهم » وأن « يكونوا متيقظين على مصالحهم العمومي دائما » وأن يحفظ مقام كل حسب مرتبته و « أن كلا منهم يجري العدل والرحمة على من يختص به » . كما اقترح البطريرك « أن يقام من جميع المقاطعات وكلاء أمناء » (٥٦) .

I. de Testa, Recueil des traites, t. III, p. 111.

٥٤ - راجع :

Adel Ismail, Histoire du Liban..., p. 170.

٥٥ -

٥٦ - طنوس الشدياق كتاب صفحة ٦١٧ .

١٢٤

فما هي الاهداف التي كان يرمي اليها البطريرك بهذا الصك ؟ تدل هذه الوصية الدينية على ميل البطريرك لتفادي خطر الصدام الاجتماعي والوطني العلني . لقد توجه البطريرك الى وعي الموارنة الديني داعيا اياهم الى السير في طريق الحب المسيحي والطاعة للسلطان وحاكم لبنان الخ

واقترح حلا وسطا لقضية الملكية الاقطاعية المشروطة للارض، وهو بالذات : الاعتراف بحقوق ملاك المقاطعات السابقين (٥٧) بشرط أن يكونوا « عادلين ورحماء مع الفلاحين » . ولكي يحد من تعسف الاقطاعيين أصحاب المقاطعات طلب تعيين وكلاء عن السكان ليراقبوا أعمال هؤلاء .

وأخيرا فقد كان البطريرك ينوي استبدال الاتحاد اللبناني السياسي والطبقي العام بالوحدة الطائفية الدينية واستبدال المصالح الطبقية بالمصالح الطائفية . ومن الممكن وضع مختلف الفرضيات بصدد المقدمات والدوافع السياسية لمثل هذه النية . ويبدو أن مساعي البطريرك الانانية الى أن يصبح الزعيم السياسي للموارنة ورغبته في الحؤول دون الاتحاد الذي ظهرت بوادره بين الارستقراطية المارونية والاقطاعيين الدروز قد لعبا دورا في هذا المجال . ان انعدام الوثائق تجعل من العبث أن نتكهن : هل كانت لدى البطريرك رغبة واعية في استغلال احتدام العداوة بين الدروز والموارنة أم لا ؟ ولكن ما جرى موضوعيا هو ان الصك قد أذكى نار هذه العداوة (٥٨) .

ومن الجدير بالذكر ان الصك قد تجاهل أمر الضرائب ، بينما كان البطريرك كما هو معروف يؤيد الاحتجاج ضد المطالبة بالضرائب من قبل الاتراك وقد لعب دورا له أهميته في وضع العريضة الموجهة للسلطان والتي كانت تتضمن المطالبة بإلغاء عدد من

٥٧ - هكذا فقط يمكن أن نفهم تعبير « ان يحفظ مقام كل حسب مرتبته » .

٥٨ - طنوس الشدياق : كتاب صفحة ٦١٧ . يكاد تشي. تشيرشل يعتبر

في معرض تعداده للعوامل التي دفعت الدروز حسب رايه للهجوم على الموارنة ان العامل الرئيسي في هذا هو سياسة رجال الدين الموارنة التي وجدت اوضح تعبير عنها في الوثيقة الانفة الذكر . وكان تشي. تشيرشل يعتبر ان الهدف من هذه

الوثيقة هو إلغاء الحقوق الاقطاعية التي يتمتع بها الاقطاعيون الدروز . (Ch. Churchill, The Druzes..., p. 38).

١٢٥

الاتاوات . وكان البطررك ، على ما يظهر ، ينوي قبل المطالبة بتحديد نطاق الضرائب ان يخفف من حدة الهيجان في صفوف مختلف فئات الاهالي الموارنة ولو عن طريق احتداد العداوة بين الطوائف الدينية .

وقد تحدث ك . م بازيلي عن الهيجان ألأنف الذكر بقوله : كان اهالي لبنان يتحدثون في اجتماعاتهم عن منطقة في بلاد الافرنج تسمى سويسرا وهي منطقة جبلية شبيهة بلبنان ولا تدفع الاتاوات لاحد » (٥٩) ومن الامور المميزة ان الاساطير عن الفلاحين السويسريين كانت منتشرة بين الفلاحين المتمردين في اوروبا . وقد تسربت هذه الاساطير الان بطريقة ما الى لبنان .

وكانت السلطات التركية تشعر بضعفها الزائد في الولايات السورية ولهذا فهي لم تحاول ان تضغط على لبنان بقوة السلاح وكانت مضطرة لاجراء مفاوضات جديدة . وفي حزيران من عام ١٨٤١ اجتمع في قرية عين-عنوب اللبنانية الصغيرة الارستقراطيون الدينيون والعلمانيون مع الامير الحاكم وممثل عن باشا بيروت ، واحتدم النقاش حول مجموع الضرائب العام، فقد كان الباب العالي يطالب بثلاثة عشر الف كيس بينما لم يوافق اللبنانيون الا على دفع ألف ومئتي كيس فقط الى الخزنة . وعلاوة على هذا فقد اصر المشركون في الاجتماع على الغاء التعريفة الجديدة وتأجيل موعد دفع الضرائب (٦٠) .

ولكن السلطات التركية لم تتنازل عن آرائها وظهرت في الاجتماع اراء معارضة عاصفة ضد الباب العالي . ويتجلى جو النقاش الذي جرى اثناء الاجتماع في الخطاب الذي ألقاه الممثل الشخصي للبطرك الماروني، الاسقف طوبيا الذي «لم يقترح رفض دفع الاتاوات فقط بل وطالب الحكومة كذلك بالجوائز والمكافآت لقاء الخدمات التي قدمها الجبليون اثناء الحرب مع ابراهيم ولقاء كل الخسائر التي نزلت بهم » (٦١) .

وكان المطران طوبيا يتمتع بنفوذ لا بأس به ويعبر عن اراء كبار رجال الدين الذين يهتمون بتخفيض الاتاوات . وكانت المنتجات الزراعية تصل من المقاطعات الكبيرة واستثمارات الاديرة الى

٥٩ - ك.م. بازيلي : سوريا وفلسطين صفحة ٢٦٤ .

٦٠ - طنوس الشدياق . كتاب صفحة ٦١٨ .

٦١ - ك.م. بازيلي سوريا وفلسطين ، صفحة ٢٦٣ .

اسواق المدن الساحلية ، وقد نقصت المداخيل من بيع هذه المنتجات نقصا ملحوظا بسبب الرسوم الجديدة التي لم تستطع الا ان تثير معارضة رجال الدين . اذ ان الكنيسة لم تكن تستطيع جمع الضرائب وهي بالتالي لم تكن تستفد منها شيئا . فضلا عن هذا فقد كانت بعض اراضي الكنائس مثقلة بالاتاوات ولكن اكابر رجال الدين كانوا يحكم منشئهم الاجتماعي مرتبطين بأعيان الاقطاعيين المسيحيين اصحاب المقاطعات وبالتالي فقد كانت مصالح الطرفين متقاربة . وكان كل هذا يجعل الكنيسة لا تطالب بالغاء الضرائب على العموم بل بتخفيض الاتاوات العائدة للباب العالي . ويشهد على هذا بوجه خاص قول البطررك الماروني : « اننا لن ندفع الا ما هو عدل » (٦٢) .

ويبدو أن المقصود من اقتراح طوبيا برفض دفع الاتاوة عموما الى الباب العالي هو استغلال عواطف الفلاحين ديمقاريا .

وقد دعا الاسقف الماروني المجتمعين للتوسل الى فرنسا وانكلترا من اجل التوسط بين لبنان والباب العالي ، ولم تكن هذه الدعوة بريئة من تأثير القناصل ، فقد كتب ك . م . بازيلي عن « تعاطف » العملاء الفرنسيين مع موقف طوبيا (٦٣) . وفي الوقت نفسه انتشرت في لبنان اشاعات عن تجهيز « اوروبا الكاثوليكية لحملة صليبية جديدة » (٦٤) . من اجل تحرير المسيحيين من

٦٢ - كان البطررك يسأل : « لم كنا ندفع الاتاوات لابراهيم باشا ؟ » ويجب نفسه . « في البدء لان ابراهيم باشا كان اقوى منا وكان يكرهنا على هذا، ثم بعد ذلك لاننا كنا نعرف ان البلاد تدار على الاقل ويحفظ فيها امن طرقاتنا ، واذا استدعى الامر حمايتنا فان جيش الباشا قوي بما فيه الكفاية لحمايتنا . ولكن لم نحن ندفع الاموال للباب العالي؟ ربما كانت هذه تصرف لاذكاء نار الفتنة بيننا ... وعلى كل فان السلطان لم يستطع ان يحميننا . انه اضعف من ذلك ونحن لن ندفع الا ما هو عدل » . (Adel Ismail, Histoire du Liban..., p. 171).

ان كلمات البطررك هذه تتفق مع ما جاء في المريضة التي كتبت في اجتماع عين - عنوب الى السلطان ، وهي بالتالي تدل على اشتراك البطررك في وضعها بشكل مباشر او غير مباشر . كما انها علاوة على هذا تعبر عن ميل رجال الدين لاقامة حكم مستقر وضمان الامن في الطرق .

٦٣ - ك.م. بازيلي ، سوريا وفلسطين صفحة ٢٦٣ .

٦٤ - المصدر نفسه صفحة ٢٦٤ .

السيطرة التركية . واخذت قطعاً من الأسطولين الفرنسي والاتكليزي تزور شواطئ البلاد .
كان الهدف من كل هذه الدعوات والاشاعات والزيارات جعل الراي العام ينحاز الى جانب تدخل الدول الأوروبية في شؤون لبنان . وقد انتهى كل هذا فيما بعد نهاية منطقية ، باحتلال فرنسا للبنان في عام ١٨٦٠ . اما في عام ١٨٤١ فقد عمل هذا على توتر الوضع السياسي وساعد على انزال المسيحيين وعمق العداوة بين الطوائف الدينية .

وقد لاقى اقتراح طوييا بطلب المساعدة من الدول الكبرى معارضة من جانب رجال الدين الأرثوذكس المدعومين من قبل الأرستقراطية الدرزية (٦٥) .

ولكن هذه الأرستقراطية لم تكن تشاطر رجال الدين موقفهم تجاه قضية الضرائب لأنها كانت تستفيد من عائدها وتدرك الخطر الذي تنطوي عليه حركة الفلاحين ضد دفع الضرائب التي يطلبها الاتراك .

ومن جديد فشل اجتماع عين عنب في التوصل الى اتفاق مع الاتراك ووجه المشتركون فيه عريضة الى السلطان (٦٦) . وقد تضمنت العريضة طلباً بالغاء التعريف المفروضة على التحرير الخام والقمح على اساس أن الاقتصاد اللبناني لا يمكن أن يتحمل عبء الرسوم . كما حاول واضعوها أن يثبتوا قانونياً عدم شرعية العشر والخراج المفروضين على الرعايا اللبنانيين .

وجاء في العريضة أن « العشر لم يفرض ابداً من قبل في جبالنا التي لا تحتوي الا على مساحات صغيرة من الاراضي الجرداء

٦٥ - ك.م. بازيلى : سوريا وفلسطين ، صفحة ٢٦٢ .

٦٦ - ان نص هذه العريضة منشور في « مجموعة وثائق » اي تيسا . (I. de Iesta, Recueil des traites..., t. III, pp. 110-113).

ونظن ان تيسا قد ارجع العريضة خطأ بالثاني والعشرين من ايار سنة ١٨٤٢ مما لا يتفق مع التاريخ الهجري الذي يورده هو نفسه (الاول من ربيع الآخر ١٢٥٧) . ان محتوى هذه الوثيقة ومقارنته مع النص الموجز جداً في كتاب ك.م. بازيلى يقنعنا بأن الوثيقة المذكورة التي نشرها تيسا تحت تاريخ ١٨٤٢ هي عريضة عين عنب . ويأخذ بهذا الراي ايضاً نجيم وعادل اسماعيل ولكن بدون ان يناقشاه بشكل خاص .

١٢٨

الصخرية التي نملكها منذ ابعد الازمان . فلا يجب ان تعامل معاملة السهول الخصبة الموجودة ضمن حدود الامبراطورية والعائدة للحكومة التي يمكنها أن تفرض عليها الرسوم كما تريد ، في حين أن هذه الجبال تدفع الميري فقط ... اما فيما يتعلق بالخراج ، فانه يفرض على مسيحيي الامبراطورية العثمانية لقاء حماية حياتهم وشرفهم واملاكهم ، اما فيما يتعلق بنا في لبنان فاننا لم نزعج حكومة الباب العالي ابداً بطلب حماية ما ذكرناه انفاً ، بل ، على العكس ، فقد اعتدنا باستمرار على حماية أنفسنا من الضرر والدفاع عن بلادنا وعن الولايات المجاورة واخضاع اهالي هذه الاخيرة عندما يعصون امر السلطان ولهذا السبب لم يطلب الحكام العثمانيون منا ابداً دفع هذه الضريبة ، ويمكن الاقتناع بهذا بسهولة عند مراجعة ارشيفات الشؤون المالية » .

واذا كان رفض دفع العشر والخراج قد برر على اساس الشرع الاسلامي والتقاليد التاريخية فان طلب الغاء ضريبة الميري قد برره اللبنانيون بأن تمردهم الظافر ضد المصريين يمنحهم الحق في عدم دفع هذه الضريبة . « من المعروف جيداً ان تمرد جبل لبنان ضد الحكومة المصرية كان ضد الفرضة بشكل رئيسي... وغيرها من الاتاوات المرهقة التي اذا اضيفت الى جمع الجنود اصبحت عبئاً لا يحتمل ، ولهذا فقد نهضنا ضد الحكومة الانفة الذكر » ...

ثم تذكر العريضة بالوعود « الشفوية والخطية » التي قطعها الموظفون الاتراك والممثلون الاتكليز على انفسهم ابان العمليات الحربية في لبنان . وكانت هذه الوعود تقضي « بأن يبقى اللبنانيون عدة سنين بدون دفع اتاوات مالية » ثم يطالبون بعد فترة معينة « بالميري فقط » وبأن تدفع الحكومة التركية مبلغ اربعمئة الف تالير لتعويض اللبنانيين عن الخسائر التي لحقت بهم اثناء العصيان ضد الحكومة المصرية .

وهكذا فقد ظهرت في العريضة ميول نحو معارضة الباب العالي وبوادر الوعي الوطني لدى اللبنانيين . وتجلت هذه وتلك في انكار حق ملكية الاراضي اللبنانية على السلطان ، وفي التصريح بأن اللبنانيين قادرون على حماية انفسهم بانفسهم وهم ليسوا في حاجة الى مساعدة السلطان ، وفي لوم الحكومة التركية على عدم الوفاء بوعودها « نحن نعتقد انه ليس من عادة الحكام ان لا يعوضوا

١٢٩

على رعاياهم الخسائر التي وقعت بأمر منهم في وقت الحرب » .
وليس من الممكن الا ان نوافق بأن مثل هذه الوثيقة لم يكن
يمكنها الظهور الا في وقت كان الهياج فيه يعم كافة الاهالي . ان
عادل اسماعيل على حق حين يكتب أن العريضة كانت نتيجة
لاجتماعات عديدة وقد عبرت عن الراي العام لاوساط واسعة من
اهالي البلاد بأسرها (٦٧) .

وفي حزيران من عام ١٨٤١ توجهت الارستقراطية الدرزية
برسالة الى السلطان تنصلت فيها من هذه العريضة وتوسلت إليه
ان يعتبر تواقيعها عليها ملفاة . واقسم المشايخ الدرروز على الاخلاص
للباب العالي وأبدوا استعدادهم لدفع ضرائب جديدة حسبما ورد
في خط كلخانة وكتبوا قائلين : « أننا مسلمون كما كنا دائما ولهذا
فاننا لا نستطيع التملص من الخضوع لحكومة الباب العالي » .
واكد الدرروز للسلطان أنهم يستطيعون عند الضرورة قهر المسيحيين
بتأييد من الباب العالي (نعم أن المسيحيين اكثر عددا منا ولكننا
بعون الله والباب العالي سنكون نحن الظافرين دائما في كل المعارك
التي ستقع) . ولكنهم استطردوا قائلين : « نحن لا نرغب في ان
يصل الامر الى الصدام ونتجاسر على أن نأمل بأن جلالة السلطان
سيفضل بقبول التماسنا » (٦٨) بتعيين حاكم من ابناء عقيدتنا .
وكانت الارستقراطية الدرزية تعتقد انها تستطيع بمساعدة الحاكم
الدرزي اعادة حقوقها وامتيازاتها (كما حاولت ان تفعل فيما بين
عامي ١٨٤٣ - ١٨٤٥ عندما تشكلت القائمة الدريزية ») .

وقد الحق بهذه الرسالة ، على ما يبدو ، ملحق يتوسل فيه
الدرروز بمنحهم امتيازات ضرائبية . ان هذه الوثيقة تدل على تغير
سياسة الارستقراطية الدرزية الذي قوبل برضى السلطات
التركية .

فيم يمكن ان نفسر هذا النهج الجديد الذي انتهجه
الارستقراطية الدرزية ؟ لقد حاولت الارستقراطية الدرزية
في اجتماع عين عنوب ان تقيم علاقات مع
الارستقراطية المسيحية العلمانية لتوحيد الجهود من اجل تنحية
الامير بشير قاسم عن الحكم (٦٩) . ولكن خطط عزل الامير بشير

Adel Ismail, Histoire du Liban..., p. 172.

I. de Testa, Recueil des traites, t. III, p. 88.

قاسم اصطدمت بمقاومة البطرك الماروني . ثم ان المشايخ الدرروز
كانوا قلقين من جراء قيام حركة مناهضة لدفع الضرائب بين
صفوف الفلاحين الدرروز والموارنة على حد سواء ، وهذا ما دفع
الدرروز الى اتخاذ موقفهم الجديد .

وقد استقبلت السلطات التركية رجاء الدرروز برحابة صدر
ومنحتهم امتيازات ضرائبية (٧٠) ، فعمقت بعملها هذا ، كما يبدو ،
هوة الشقاق بين الفلاحين اللبنانيين واتاحت للارستقراطية الدرزية
المحافظة على نفوذها بين الفلاحين الدرروز .

وقد أدى تغير الارستقراطية الدرزية لموقفها الى تقوية
العداوة بين الدرروز والموارنة (٧١) . وكتب دي ميلويز يقول :
« هناك خوف من أن تكون هذه الحركة اشارة لحدوث صدام
رهيب » (٧٢) بين الدرروز والموارنة . فاذا اضعنا الى هذا ما جاء
في رسالة الدرروز عن امكانية حدوث صدامات بين الدرروز والموارنة
في المستقبل ، أصبح من الواضح ان المعاصرين كانوا يشعرون منذ
صيف عام ١٨٤١ بجو الخطر الحقيقي الذي يهدد بحدوث
الصدام (٧٣) . وهذا في الوقت الذي لم تكن فيه اية قوة سياسية
انذاك لتفعل شيئا من اجل تفادي هذا الصدام ، ثم ان البطرك
الماروني والارستقراطية الدرزية والأتراك والدول الاوربية كانت
تتابع عمليا تطبيق سياسة تفريق الاهالي .

وفي اب من عام ١٨٤١ خفضت السلطات التركية الاتاوات
المفروضة على لبنان ودعا الامير بشير قاسم الارستقراطية الاقطاعية
للاجتماع من جديد . فرفض الاقطاعيون ورجال الدين الموارنة
هذه الدعوة متذرعين بعدم وصول جواب من السلطان على العريضة
التي ارسلت في حزيران . (وكان البطرك الماروني في اثناء ذلك
يبذل الجهود لعقد اجتماع مغلق للاقطاعيين المسيحيين بهدف

I. de Testa, Recueil des traites..., t. III, p. 89.

٧١ - اسرخ ، « السفارة في القسطنطينية » .

Adel Ismail, Histoire du Liban..., p. 118.

٧٣ - ويشهد على هذا احد الموظفين الاتراك البارزين الذي يفسر اقتراح

توزيع الحكم في لبنان بين بشير قاسم وتعمان جنبلاط بضرورة تفادي الحروب

الاهلية بين الدرروز والموارنة .

(British and Foreign state papers 1846-1847, vol. XXXV, p. 896).

وقد ثارت في الاجتماع الذي عقده بشير قاسم نقاشات حامية، جرى القسم الاعظم منها حول توزيع جزء المداخيل الباقي في لبنان بين الامير الحاكم واصحاب المقاطعات . وقد حاول الامير ان يؤثر على الدروز مستغلا استياء الشعب المتزايد فاصر على ضرورة الفاء القاعدة الفاسدة التي تمنح « اراضي المشايخ والامراء امتيازات تامة، بينما تلقى كل الاعباء على عاتق صغار الملاك الكادحين والمضطرين في الوقت نفسه الى تقديم عملهم بالمجان تقريبا لزراعة اراضي السادة » (٧٥) .

لما لم يسفر الاجتماع الجديد عن النتائج التي كان الاتراك يرجونها منه لجأ هؤلاء للتهديد والوعيد فوجهوا الى حدود جبل لبنان قطعات عسكرية مزودة بالمدافع ، ومنعوا تصدير القمح من موانئ فلسطين التي كانت تزود لبنان به (٧٦) .

ولم توافق الارستقراطية اللبنانية على شروط الاتراك الا في ايلول ، بعد ان خفض الباب العالي مقدار الاتاوات مرة اخرى . وقد عقد اجتماع في بيروت ووقعت فيه اتفاقية تحدد مقدار الميري المفروض على جبل لبنان بمليون وسبعمئة وخمسين الف قرش اي ما يعادل ثلاث الاف وخمسمئة كيس . ويزيد هذا المبلغ عن ضريبة الاعوام العشرين بأربعمئة وخمسة وعشرين الف قرش ولكنه يقل عما كان يجمعه ابراهيم باشا . وكان يخصص جزء منه للامير ولاعضاء المجلس الذي اوكل اليه امر تشكيله ، ولفرق الخوالي وللمقاطعية . اما ما تبقى ، فكان يجب ان يدفع الى الخزنة على ثلاثة اقساط سنويا . وتتضمن الاتفاقية وعدا بجمع هذا المبلغ من الاهالي « مع مراعاة المساواة بواسطة الامير واعضاء مجلسه » .

وفي الخامس من اذار اوكل الي الامير تشكيل ديوان شبيه بمجالس البشوات المنتشرة في كل الامبراطورية العثمانية ، من مهامه ان يحل مسألة توزيع الضرائب وان يكون بمثابة المرجع القضائي الاعلى في لبنان .

وهكذا جاءت هذه الاتفاقية نتيجة تنازل الباب العالي عن بعض الضرائب وبعد نسج شبكة من الخطط السياسية التي ادت

الى بذر الشقاق في صفوف اكابر الاقطاعيين اللبنانيين . ولم ترض الاتفاقية الفلاحين فأخذوا يعبرون عن استيائهم صراحة وبشكل مكشوف .

فخاف الامير بشير قاسم واخبر الباشا التركي في السادس عشر من ايلول بأن الاتفاقية التي وقعها الامراء والمشايخ « لا تعجب الجبليين الذين اعلنوا عن انهم لا يقبلون بأي شيء، لان من المفروض عليهم ان يدفعوا التعريفة ، وتجري الان اجتماعات عديدة بين المسيحيين والدروز » . وقد عزا الامير هذه القلاقل الى دعاية بعض المشايخ الذين « يحرضون الشعب على عدم قبول اقتراحات واوامر الباب العالي » ولكن اقوال الامير اللاحقة تجعلنا نرى في هذه الاضطرابات تطورا لتلك الحركة النسي كانت نتيجتها عريضة عين عنوب . ولم يكن بمقدور بشير قاسم ان يخفي او يتجاهل اثر هذه الحركة حتى على موقعي الاتفاقية . فكتب يقول ان الكثيرين من موقعي الاتفاقية يؤيدون الاحتجاجات الموجهة ضدها لخوفهم من لوم اهالي الجبل الاخرين لهم » (٧٧) .

وكان الامير قد استبعد فكرة المناورة مع هذه الحركة ، ولهذا كان ينظر الى جميع المحتجين على الضرائب كمتمردين ضد السلطان ويتوسل الى الاتراك ان يرسلوا الى الجبال سلاح فرسان غير نظامي وعساكر منظمين . وفي السابع والعشرين من ايلول كتب لك . م . بازيلى الى استانبول بأن « جماهير الاهالي في لبنان ، في هياج شديد ، ويبدو ان بنيتها مقاومة الاتفاقية » (٧٨) .

وهكذا فقد تخلصت الحركة الشعبية من تأثير مناورات بشير قاسم ورجال الدين والاقطاع . وقد كتب طنوس الشدياق يقول : « اما الموارنة فازدروا برؤسائهم وبباقي الطوائف وطمعوا بتنازل الدولة معهم في الاموال الاميرية (٧٩) » .

وقد رفض حكام لبنان الشرقي وسهل البقاع الاقطاعيون الخضوع لسلطة امير لبنان . وعندما ارسل بشير قاسم فرقة الى

٧٧ - I. de Testa, Recueil des traites..., t. III, p. 92.

٧٨ - اسرخ « السفارة في القسطنطينية » .

٧٩ - طنوس الشدياق كتاب صفحة ٦١٩ .

٧٤ - اسرخ « السفارة في القسطنطينية » .

٧٥ - المصدر نفسه .

٧٦ - المصدر نفسه .

راشياً لا يقف أعمال القرصنة على الطرق ، قوبلت هذه الفرقة بدرجة من العداء جعلت قائدها ابا سمرا غانم الشهير بعصيانته ضد المصريين ينسل عائداً الى لبنان (٨٠) .

الصدامات بين الدروز والموارنة في عام ١٨٤١

يبدو ان المشايخ الدروز قد حاولوا ، اثناء الاجتماع الاخير في بيروت ان يتقدموا الى اعيان المسيحيين بصك يجابهون به الاتفاقية التي اقترحتها البطرك ، وان يضمنوه ، كما ورد في اتفاق الموارنة ، الدعوة لطاعة السلطان والاتحاد بالمحبة الصادقة ومراعاة المصالح العامة والعدل في السياسة (٨١) . دون ذكر شيء عن الديوان او الوكلاء المعيّنين من بين الاهالي . وكان هذا اخر مجهود يبذله ارستقراطيو الدروز قبل اصطدامهم مع الموارنة في تشرين الاول ١٨٤١ محاولين الاتحاد مع الاقطاعيين الموارنة في سياسة مشتركة ازاء الامير الحاكم والفلاحين المناهضين للاقطاعية .

وقد وقف اعيان الموارنة موقفاً سلبياً وفشلت جهود البطرك في توحيد صفوفهم ، كما فشلت محاولاته لعقد اجتماع للاقطاعيين المسيحيين في شهر اب ووقع قسم من الاقطاعيين المسيحيين على اتفاقية الثالث من ايلول . اما القسم الاخر فقد وقف موقف المعارضة . ولم تكن مناورات رجال الدين الموارنة الهادفة لتخفيف حدة التناقضات الطبقية لتسفر عن اية نتيجة . وكان البطرك يفتش عن السبل المناسبة للحد من تعسف الاقطاعيين . بيد انه لم يكن يجد مبتغاه عند اعيان الدروز . وحسب ، بل ولدى كبار الاقطاعيين المسيحيين ايضا . ان رغبة البطرك في اظهار « وحدة المسيحيين » تدل على ان زعيم الكنيسة المارونية لم يتخل عن عزمه على استغلال العداوة بين الموارنة والدروز . وقد ساعدت كل هذه العوامل على عدم توحيد جهود الفئات الاقطاعية .

وعندما لم يتلق اعيان الدروز اي جواب من الاقطاعيين

الموارنة اخذوا يقومون بأعمال مستقلة حازمة . وكانت هناك اسباب اخرى دفعتهم الى هذا وهي ان الديوان الذي صادق الباب العالي عليه كان في يد الامير بشر قاسم بمثابة رقيب على سياسة اصحاب المقاطعات الدروز . كما ان الامير قد شدد من مواقفه العدوانية ضد الاقطاعيين الدروز (٨٢) . وعمد بشكل خاص الى تشكيل الفرق المقاتلة من المسيحيين التابعين اقطاعياً الى المشايخ الدروز خارقاً بهذا حقوقهم المتوارثة (٨٣) .

ولكن السبب الرئيسي لموقف الدروز هو تعاضد الحركة المناهضة للاقطاعية بين السكان الموارنة ، وكان من اكثرهم نشاطاً اهالي دير القمر الذين كتب عنهم طنوس الشدياق بكلمات مشبعة بالروح الاقطاعية يقول : « اما اهل دير القمر فتشامخوا على مشايخهم النكدية ونبذوا اوامرهم » (٨٤) .

وبعطينا نش تشرشل صورة ادق عن حالة الاهالي في دير القمر فيقول : « في مدينة دير القمر التي كانت في غضون القرون الماضية من حصة الاقطاعيين النكديين ، قوبل الـ « ارلام » (يبدو ان المقصود هو الاعلان او الرسالة التي وجهها البطرك الماروني في الربيع « - المؤلفة) بالاغاني المسيحية وباطلاق الرصاص وبشتى امارات النصر ، بينما كان المشايخ الدروز يراقبون من نوافذ قصرهم المظاهرة التي تجاسرت ان تعلن اليهم نهاية حكمهم » (٨٥) .

وقد اخذ الفلاحون - الشركاء يرفضون دفع الربيع الاقطاعي ، بدليل اقدام نصارى جزين على قتل الدروز الذين بعثهم آل جنبلاط لجباية الربيع (٨٦) .

ونمت مشاعر العداء للاقطاعية لدى سكان لبنان المتوسط والجنوبي بسبب استيائهم من نظام الضرائب الجديد . واخذ الدروز والموارنة يعقدون الاجتماعات الكبيرة . اما اهالي دير القمر فقد شرعوا بارسال رجال منهم الى قرى لبنان للدعوة من اجل

٨٢ - طنوس الشدياق ، كتاب صفحة ٦٢٠ .

٨٣ - (خليل فايز) ابو سمرا غانم ، صفحة ١٠٠ .

٨٤ - طنوس الشدياق ، كتاب صفحة ٦٢١ .

٨٥ - راجع : Ch Churchill, The Druzes..., p. 39.

٨٦ - راجع بهذا الصدد محررات الكولونيل روزيه . Ibid., p. 46. (W. Polk, The opening of South Lebanon 1787-1840, p. 218).

٨٠ - خليل فايز ، ابو سمرا قاتم .

٨١ - طنوس الشدياق كتاب صفحة ٦١٩ .

وفي خريف عام ١٨٤١ انتشرت الحركة المناهضة للاقطاعية في مناطق لبنان المتوسط والجنوبي فقط ، وكان لبنان الشمالي لا يزال يتمتع بالهدوء وذلك لأن لبنان المتوسط والجنوبي بالذات تعرض في السنوات الأخيرة لتغيرات حادة (اذ جرى ابعاد المشايخ الدروز الذين اجهروا عند العودة بمطالبهم) ، كما ان العداء الديني هناك كان يعمل على احتداد واستفحال التناقضات الاجتماعية .

وكان اخماد هذه الحركة - ومجابهة سياسة بشير قاسم يجعل الارستقراطية الدرزية في حاجة الى دعم من الخارج . ولهذا اقام المشايخ الدروز في صيف عام ١٨٤١ علاقات مع السلطات التركية . وشرعوا في الخريف يفاوضون الموظفين الاتراك سرا . ولكن عندما تحددت العلاقات بين الدروز والاتراك في عام ١٨٤٢ واعتقل عمر باشا المشايخ ذوي النفوذ جاهر المقدم الدرزي شبلي العريان من لبنان الشرقي بأن خسائر المسيحيين يجب ان تعوض من قبل السلطات التركية نفسها لانها هي التي حرّضت الدروز على الهجوم على المسيحيين ، ثم ان الدروز قد صرفوا اثناء مفاوضاتهم مع الاتراك زهاء ٣٠٠ ألف فرنك استرليني (اي حوالي ٣٣ مليون قرش) وذلك لرشوة اربلوظفين ، بمن فيهم الصدر الاعظم نفسه (٨٨) .

وهناك رأي منتشر بسعة في كتب التاريخ وهو ان الاتراك هم الذين استفزوا الصدامات بين الدروز والوارنة . لكن هذا الرأي غير مدعوم بالوثائق .

٨٧ - ابو شقرا : الحركة صفحة (٢٨) . يربط ابو شقرا بين هذه الاجتماعات وبين دعوة اهالي دير القمر للتأهب للحرب بين الدروز والوارنة ، في حين ان المصادر الاخرى التي هي في متناول يد الباحثين تتجاهل قضية استعداد المسيحيين للاستخدامات المسلحة التي جرت بين الدروز والوارنة في عام ١٨٤١ . وقد كان البدء بالحرب مفاجئا للمسيحيين اللبنانيين والفلاحين الدروز على حد سواء ، مما يسمح لنا بدحض مزاعم ابي شقرا خصوصا وقد عهد هو نفسه الى تزوير الحوادث من اجل اثبات اقواله وازالة . وان لدينا من الاسس ما هو اكثر بكثير من هذا لتفترض بان التأهب الذي جرى في لبنان المتوسط كان من اجل التحرك ضد الاقطاعية .

Ch. Churchill, The Druzes..., pp. 72, 73, 78.

ومن الامور الجديرة بالاهتمام تصريح شبلي العريان الذي يناقض بعضه البعض الاخر : فاذا كانت السلطات التركية قد دفعت الدروز للهجوم على المسيحيين ، فلم اذن اضطر المشايخ الدروز لاضاعة مثل هذه المبالغ من اجل رشوة الموظفين الاتراك ؟ هناك امر واحد واضح : هو ان اي تعقيد في حياة لبنان السياسية كان في صالح الاتراك ، لانه يسهل عليهم اخضاع البلاد لسلطتهم المباشرة . بيد ان الموظفين الاتراك لم يكن باستطاعتهم خلق مثل هذه التعقيدات علانية لتأريث نار العداوة بين الدروز والوارنة ، وذلك لانه لم يكن لهم صلات واسعة او وزن سياسي بين اهالي لبنان . وبالإضافة الى هذا فان اي عمل فعال (سري او علني) من جانب الاتراك كان خليقا بأن يشتهر امره ويجذب اليه انتباه احدى الدول المتنافسة او جميع هذه الدول التي تراقب بانتباه الاحداث الجارية في البلاد (٨٩) ، وكان اي صدام يمس وضع المسيحيين يصبح موضوعا للتدخل الدبلوماسي من جانب الدول الغربية في شؤون الامبراطورية العثمانية ويهدد بزيادة المسألة الشرقية تعقيدا . وهكذا فقد كان وضع السلطات التركية في لبنان معقدا ومتناقضا . واذا كان الاتراك يشجعون الدروز للتأهب للصدام فانهم كانوا يفعلون هذا في كثير من الحذر ، ولكن هذا لم يكن ليمنع الموظفين الاتراك من قبول رشاوى الدروز . وهناك امر لا شك فيه وهو ان المشايخ الدروز قد اتيح لهم في مفاوضاتهم مع السلطات التركية ان يضمنوا حياد السلطات لصالحهم .

وعندما تدخلت الدول الغربية تدخلا فعالا في حياة الامبراطورية الداخلية ، لم يستطع حياد الاتراك ، ولا حتى دعمهم ، ضمان النجاح ، فحاول المشايخ الدروز ان يقيموا علاقات مع الدول الغربية . وتوسل الشيخ نعمان جنبلاط الى القنصل الفرنسي بوريه ان يساعده في السفر الى باريس لاجراء مفاوضات مع الحكومة الفرنسية من اجل حماية الدروز . ولكن بوريه ، حسبما يقول عادل اسماعيل ، لم يمد يد المعونة السريعة للشيخ نعمان خوفا من ردة الفعل لدى رجال الدين الوارنة (٩٠) .

٨٩ - كان لدى كل ارسالية تبشير في بيروت عملاؤها السريون الذين ينقلون كل الاخبار الجديرة بالاهتمام ، ويحصلون على محتويات بريد الحكومة التركية .
Adel Ismail, Histoire du Liban..., p. 164.

وكانت المفاوضات بين الدروز والعلماء الانكليز تجري بنجاح أكبر ، اذ كانت الدبلوماسية الانكليزية تحتاج الى دعامة لتنفذ الى سوريا وخصوصا ان دسائس ب . و د بين رجال الدين الموارنة لم تات بالنتائج المرجوة لان الموارنة كانوا مرتبطين بفرنسا بصلات دينية تقليدية .

ان الابلاغ الذي ارسله القنصل الانكليزي العام في بيروت الكولونيل هيوغ روز والذي نشره ف . بولك في عام ١٩٦٣ يدل على ان الارستقراطية الدرزية كانت قد توجهت في صيف عام ١٨٤١ الى انكلترا تطلب منها الحماية . وسرعان ما دعمت حكومة بريطانيا العظمى هذه المبادرة . وقد اخذت تتوارد الى لبنان رسائل متتابة من سكرتير الدولة اللورد بالميرستون بالذات عن الاهمية التي توليها الحكومة الانكليزية للعلاقات مع الدروز . كما عبرت هذه الرسائل عن استعداد « حكومة جلالتها لاقامة علاقات مع الدروز » . وجرى في شهر اب مفاوضات بين الشيخ نعمان جنبلاط وهيوغ روز . وابلغ القنصل الانكليزي العام اللورد بالميرستون في السابع من ايلول عام ١٨٤١ عن استعداده لعقد اتفاقية نهائية مع الدروز حول العلاقات التجارية ونشر الثقافة (٩١) . وفي ضوء هذا الابلاغ يمكن ان نصدق صحة النبأ الذي ارسله القنصل الفرنسي في صيدا عن انه في الرابع والعشرين من ايلول جرى على متن فرقاطة انكليزية في ميناء صيدا توقيع اتفاقية سرية بين الارستقراطية الدرزية (الشيخين نعمان وسعيد جنبلاط والقاضي والامير ارسلان) وممثلين عن الحكومة الانكليزية . وقد وعد الدروز في الاتفاقية بتسهيل نشر النفوذ الانكليزي في لبنان ، وقطع الانكليز مع انفسهم وعدا بحماية الدروز . كما جرى الاتفاق على سفر الشيخ نعمان جنبلاط الى لندن وتعليم اولاد المشايخ الدروز هناك . وقد منحت قيادة الفرقاة للدروز الكثير من البنادق والذخائر الحربية (٩٢) ولكن بعد مرور شهر من هذا في الرابع والعشرين من تشرين الاول عام ١٨٤١ وبعد ان بدى باستعمال هذه الاسلحة ، بعث الكولونيل هيوغ روز وقائد الاسلحة البحرية

« The Middle East Journal », vol. 17, 1963. No. 1-2.

— ٩١

٩٢ — المصدر نفسه .

١٣٨

لبريطانيا العظمى عند الشواطئ السورية مذكرة رسمية الى والي صيدا سليم باشا ينفيان فيها « الاشاعات عن ان خدم جلالتها الانكليزية في سوريا قد قدموا البارود والذخائر للامة الدرزية » (٩٣) .

ومن الصعب الافتراض ان المفاوضات التي جرت في نهاية ايلول عام ١٨٤١ بين الممثلين الانكليز والمشيخ الدروز كانت تتضمن هجوم الدروز على الموارنة وان تقديم الاسلحة (اذا كان هذا قد وقع) كان مشروطا باستعمالها في هذا الهجوم . ان تركيب المشتركين في الاتفاقية وبالدرجة الاولى وجود نعمان جنبلاط وحيدر ارسلان اللذين لم يشتركا اشتراكا فعالا في الصدامات (٩٤) . يدعمان هذا الرأي . ولكن الدبلوماسيين الانكليز كانوا على درجة من الحذكة السياسية تمكنهم من التكهّن بالدور الذي يمكن ان تلعبه الاسلحة في مثل هذه الحالة .

وبصد الحديث عن المفاوضات الانكليزية - الدرزية ينفي ذكر التغير الذي طرأ على بنية التكتلات بين الارستقراطيين الدروز في اواخر ايلول واول تشرين الاول . فحتى تلك الاثناء كان صاحب الدور الاول بين الاقطاعيين الدروز هو نعمان جنبلاط ، اكبر ابناء الشيخ بشر جنبلاط وزعيم الارستقراطية الدرزية المعترف به . اما الان فقد أصبحت المكانة الاولى لاختيه الشيخ سعيد جنبلاط ، صنيع الانكليز ، شأنه شأن ناصيف ابي ناكس نصير حل المسألة عن طريق تنظيم الاصطدامات بين الدروز والموارنة .

وفي نهاية ايلول اصبح لدى الارستقراطية الدرزية ، الموعودة بعلاقات طيبة من جانب السلطات التركية ربدعم القنصلية

I. de Testa, Recueil des traités..., t. III, p. 96.

— ٩٢

٩٤ — كان الشيخ نعمان نصير حل المسائل السياسية الداخلية على اساس الاتحاد مع الاقطاعيين المسيحيين . وقد قام بمحاولات عديدة للاتفاق مع البطريرك الماروني واجرى مفاوضات مع القنصل الفرنسي . ولم يشارك الشيخ في الصدامات الدرزية - المارونية بل انه كتب ، حسبما يقول تش . تشرشل ، اكثر من عشرة آلاف رسالة الى مختلف الدروز والمسيحيين من اصحاب النفوذ منوسلا اليهم ان يوقفوا هذه الحرب بين الاشقاء . (Ch. Churchill, The Druzes..., p. 51).

وقد اعتزل الشيخ نعمان السياسة في عام ١٨٤٢ وتفرغ لتصبه الديني .

١٣٩

الانكليزية ، خطة ناضجة لازاحة الامير بشير قاسم والتنكيل بسكان دير القمر . وهكذا فقد ظل المشايخ الدروز حتى تشرين اول عام ١٨٤١ يحاولون التوصل الى تحقيق مطالبهم عن طريق مختلف الخطط السياسية ، اما عندما أخذت الحركة المناهضة للاقطاع بالتوسع في البلاد ولم تسفر المناورات السياسية عن النجاحات المرجوة اصبح الدروز على استعداد لحمل السلاح .

وكانت الاحداث السياسية الداخلية تساعد على تحقيق هذه الخطة . وفي اب من عام ١٨٤١ حدث بالقرب من قرية بعقلين مشاجرة بسبب قتل حجة بين مسيحيين من اهالي دير القمر ودرزي من بعقلين ، وتحولت المشاجرة الى اصطدام مسلح بين جماعة من اهالي دير القمر آتت لنجدة ابن بلدها وبين الدروز . وقد خسر الفلاحون الدروز خسائر كبيرة « فآخذوا - كما يقول طنوس الشدياق - يتوقعون الفرصة لاخذ الثأر ... وشكوا لمديرهم حالهم فوافقوهم على ما قصدوه » (٩٥) .
وقرر المشايخ الدروز الاستفادة من هذه المشاعر لدى الفلاحين الدروز لتنفيذ اغراضهم الخاصة .

وكان على الامير بشير قاسم البدء بتنفيذ نصوص الاتفاقية ابتداء من الثالث من ايلول عام ١٨٤١ بجباية الضرائب التي اصبح حق توزيعها بين السكان من اختصاص الديوان الجديد . وعندما رفض المشايخ الدروز الاشتراك في الديوان عزم الامير بشير قاسم على مفاوضتهم (٩٦) . واخذ الدروز ينتظرون وصول الامير الى دير القمر للمفاوضة من اجل تنفيذ خطتهم ، اذ كان هذا يضمن لهم المباغتة في الهجوم ، وقد اخبر قادة المؤامرة بقرارهم سرا للاقطاعيين الدروز في لبنان ولبنان الشرقي وخوران محرضين اياهم على مد

٩٥ - طنوس الشدياق : كتاب صفحة ٦٢٢ .

٩٦ - كان الدروز هم الذين اقترحوا عليه التفاوض لكي يتمكنوا من القيام بحركتهم . وقد كتب الامير بشير قاسم يقول « ان بعض المشايخ قد جاؤوا يسألونني ارسال اوامري الى المشايخ الآخرين ليجتمعوا ويناقشوا هذه القضية (قضية الضرائب - المؤلفة) وذلك في رسالة الى ب ، وود بعد بدء العمليات العدوانية .

يد العون اليهم (٩٧) .

« وكتب الامير الى مناصب الدروز ان يوافوه الى دير القمر » (٩٨) دون ان يشتبه في شيء . وفي صباح الثاني عشر من تشرين الاول انتشر في المدينة خبر مفاده ان الدروز قد اقتربوا من جدران المدينة بصحبة رجالهم .

فلم يعر الامير بشير قاسم انتباها لهذا الخبر اذ ان من عادة الارستقراطيين الدروز ان يظهروا دائما مع رجالهم المسلحين ، اما اهالي المدينة فقد وقفوا من هذا الخبر موقفا مغايرا اذ انهم كانوا قلقين على مصيرهم ، وكان لديهم كل الحق في ذلك . وقد كتب بشير قاسم نفسه فيما بعد « ان سكان دير القمر قد جاؤوا يقولون لي ان استقبال هؤلاء الناس في المدينة امر لا داعي له ، وكانوا يتنبأون بالعواقب الخطيرة التي ستنتج من جراء النيات العدائية التي يكنها المشايخ الانفي الذكر ازاء سكان دير القمر - المؤلفة (٩٩) .

فاتخذ الامير عندئذ قرارا بنقل مكان الاجتماع الى قرية سوق العين الواقعة على بعد نصف ساعة سفر من دير القمر . ولكن الدروز رفضوا تنفيذ هذا الامر فأعلن بشير قاسم عن انه لن يعقد الاجتماع .

بيد ان المشايخ الدروز دخلوا المدينة رغم اوامر الامير الحاكم . وخرج في الوقت نفسه الفلاحون المسلحون من الحي الدرزي (١٠٠) وشروعوا بمهاجمة دكاكين المسيحيين ومخازنهم وورشاتهم ومستودعاتهم ثم احياء سكنهم . واستمرت المعركة ثلاثة ايام ثم اضطر الدروز الى الخروج من المدينة اخيرا فعمدوا الى محاصرتها وعزلها عن المناطق المحيطة بها .

٩٧ - كما علم بالمؤامرة كذلك ابو سمرا غاتم الذي كان موجودا مع فرقته في منطقة سها البقاع وقد علم سرا بان الدروز قد توافقوا على خلع الامير بشير وعلى خراب دير القمر « خليل فايز ، « ابو سمرا » ابو سمرا غاتم ، صفحة ١٠٣ » .

٩٨ - طنوس الشدياق . كتاب صفحة ٦٢٢ .

٩٩ - I. de Testa, Recueil des traités..., t. III, p. 94.

١٠٠ - وفقا لخطة مدبري المؤامرة تسال الدروز المسجون الى المدينة مسلحا واختبؤوا عند انباء عقبتهم .

لقد كتب بشير قاسم رسالة الى وود يقول له فيها :

« أن المسيحيين - سكان دير القمر - كابدوا مشقات كبيرة وخسروا خسائر فادحة ، لان القتلة باغتوهم واخذوا يحرقون البيوت والدكاكين وينهبونها دون شفقة كما استولوا على المستودعات الكبيرة ونهبوا كل ما فيها من نفائس وبضائع » (١٠١) .

وفي الساعات الاولى من المعركة اشتركت فرقة بشير قاسم في القتال ولكن الامير اصدر بعد ذلك أمرا بحماية قصره فقط .

ثم عاد الامير فاشترك في الحوادث اللاحقة مستقلا عن سكان المدينة وبدون أن يكون أحد الطرفين متعلقا بالآخر . واخذ يدعو الطائفتين للصليح ولكن دعوانه كانت تذهب ادراج الرياح . فوجه رسالة الى الامراء الشهابيين والبطرك الماروني يسألهم المساعدة . اما سكان دير القمر فقد طلبوا المساعدة من اهالي مدينة زحلة . بيد ان الارستقراطية الاقطاعية في زحلة عرقلت انضمام فرقة المتطوعين في المدينة الى صفوف اهالي دير القمر .

وبالرغم من الآراء المنتشرة في كتب التاريخ ، فان حوادث الايام الاولى من المعارك تشهد على ان الدافع الاول للهجوم على دير القمر هو ميل الارستقراطية الدرزية لانزال ضربة بتجار المدينة وحرفيها وبتلك الاوساط التي كانت مصدرا للدعاية ضد الاقطاعيين (١٠٢) . وإلى جانب ذلك فقد اتاح الهجوم في الوقت نفسه ابعاد بشير قاسم نفسه عن الحكم .

وكان المشايخ الدروز ، على ما يبدو ، ينوون حصر العمليات الحربية في منطقة دير القمر . وكانوا قد استعدوا سلفا لهذه العمليات فاستولوا على سائر الطرقات والممرات الجبلية المؤدية الى المدينة . ولهذا فقد كانت الصدمات التي نشبت عفويا بعد عدة ايام في المناطق الاخرى من البلاد مفاجئة لمنظمي الهجوم على

I. de Testa, Recueil des traités..., t. III, p. 95.

١٠١ -

١٠٢ - هناك رأى ثابت في كتب التاريخ مفاده ان هجوم الدروز في تشرين

الاول ١٨٤١ كان موجها ضد الامير بشير قاسم وحده ولكنه استفحل عفويا فنحول الى صدام بين الدروز والوارنة . ولو كان الامر هكذا لبدأ الدروز لا بضرب الاسواق ومحاصرة المدينة بكاملها ، بل بضرب قصر الامير الحاكم نفسه .

١٤٢

دير القمر انفسهم . (١٠٣) .

وقد جرت الامور بعد محاصرة دير القمر على النحو التالي : فقد اجتمع في القرى المسيحية الكبرى مثل عبيه ومعلقة الدامور وجزين وغيرها فرق الفلاحين المسيحيين المتأهبين للسير من اجل مساعدة دير القمر ، واصبحت قرية بعبداء بايعاز من البطرك الماروني مركزا للفرق المارونية الآتية من لبنان الشمالي و « ارسل في الحال وكبلا الى بعبداء مصحوبا بمال جزيل لتقديم المعونات والعلايف والبارود والرصاص (١٠٤) . ودعا الموازنة الى المشاركة في الحرب المقدسة . وطاف رسله الاساقفة على قرى الوارنة وهم يحملون الصليبان ويهددون بحرمان كل من لا يحمل السلاح . وقد بلغ عدد المجتمعين في بعبداء استجابة لهذه الدعوة حتى السبعة الاف انسان (١٠٥) ، وسيطرت في المدينة روح التعصب الديني الذي اخذ رجال الدين الوارنة والمبشرون الكاثوليكيون يتفننون في تغذيته واثارته (١٦٠) .

١٠٣ - ويتحدث عن هذا بوجه خاص الشهيد التالي الذي يصفه لنا خليل فايز : فعندما بدأت الصدامات بين الدروز والوارنة في جزين ، ترك سعيد جنبلاط صاحب النفوذ الاكبر بين مشايخ الدروز ، حصار دير القمر وتوجه مسرعا الى مقاطعة اقليم جزين العائدة لال جنبلاط . ودعا اليه وجوه القرى المسيحية (وكان بينهم قساوسة ، وفلاحون اغنياء على ما يبدو) و « لامهم على نهوضهم ضد جيرانهم - الدروز - بعد ان كان يلهم منهم المساعدة نظرا لما له من حقوق السيادة عليهم . (ويتميز اخر فقد كان الشيخ قد عمل حسابه لاستخدام المسيحيين في فرقته) . وطمأنهم ان الثورة التي قام بها الدروز بوجهة ضد الامير بشير قاسم وحده ثم طلب منهم ان يعينوا الى قراهم . وبعد وقت قصير شعر الشيخ سعيد بما يكته اهالي جزين من عناد للاقطاعيين يتجلى في اعمالهم فارسل لهم رسالة عبر لهم فيها عن استيائه من انهم « لا يزالون مستمرين في عصيانهم » ولم يطردوا من بين صفوفهم العناصر المعادية له . وطالبهم بتسليم اسلحتهم فوراً . ولما رفض الاهالي ان يفعلوا هذا طوعا ، حاصر الشيخ ورجاله اكبر قرى المقاطعة وكسر قاومة الفلاحين واعمل في قراهم النهب والتخريب (خليل فايز - ابو سمر غانم - صفحة ١٠٧ - ١١٠) .

١٠٤ - طنوس الشدياق . كتاب صفحة ٦٢٦ - ٦٢٧ .

١٠٥ - Adel Ismail, Histoire du Liban..., pp. 133, 135.

١٠٦ - 106 - Ibid., p. 151.

ولكن لم يحاول احد ان ينفذ الى دير القمر سوى فلاحو مقاطعة عرقوب وقرتي معلقة الدامور وراشيا (اللتين كانتا بأمره الشيخ غندور الخوري الذي لا ينتسب للاستقراطية الاقطاعية) (١٠٧) اما المشايخ الشهابيون واللمعيون فقد كفوا بعد الهزائم الاولى عن مساعدة مسيحيي دير القمر ولبنان الجنوبي مما جعل فلاحو جزين يتهمونهم بالسلبية (١٠٨) .

وبدأت فرق المسيحيين تشن الغارات على القرى الدرزية القريبة متذرعة بالخلافات حول الارض ومطامع الطرفين فيها (١٠٩) وتدل الحوادث التي جرت في الشويفات على ان احدا ما من معسكر الموارنة في بعبداء كان يجر الفلاحين المسيحيين عمدا لاشراكهم في الصدامات. ويعتقد طنوس الشديق ان المناصب (الاعيان - المغرب) المسيحيين هم الذين كانوا يقومون بهذا العمل .

ولم يتعد خليل فايز عن الحقيقة عندما كتب ان الامراء لم يريدوا مساعدة بشير قاسم لانهم كانوا سراً يتمنون هلاكه ، لاستيائهم من سياسته وطموحهم الى اعادة حكم بشير الثاني . ولكن هناك عوامل اخرى لعبت دوراً في خلق السلبية لدى كبار الاقطاعيين الموارنة ، اذ ان الصدامات الدرزية المارونية قد أجبرت جماهير من الفلاحين المناهضين للاقطاعية على حمل السلاح ، ولا جدال في أن الاستقراطية المارونية قد شاهدت بوضوح في عام ١٨٤١ النزعة الفوضوية لدى ابناء عقدها وادركت جيداً ان انهيار سلطة المشايخ الدرروز تعني ان السيل نفسه سيجرف لا

١٠٧ - طنوس الشديق : كتاب صفحة ٦٢٥ .

I. de Testa, Recueil des traités..., t. III, p. 98.

- ١٠٨

ان رسالة اهالي جزين الى الاميرين ملحم وسلمان في التاسع والعشرين من تشرين اول ١٨٤١ كانت مفعمة بالمعاطف وتتضمن اتهام الامراء والمشايخ بانهم تركوا « اخوتهم » لحكم القدر ولم يبدوا الرعاية بقطيعهم وهم « حكام الشعب » الخ .

١٠٩ - أبو شقرا ، الحركة صفحة ٣٩ .

١١ - ارسل اهالي الشويفات وفداً الى بعبداء صرح بان الشويفات لن تشترك في المعارك وستبذل الجهود لتع دروز الغرب الاسفل من الهجوم . وقد وعد القديون الموارنة بانهم لن يقتربوا من الشويفات ولكن القرية تعرضت لمرات عديدة لغارات الفرق المسيحيين . (انظر طنوس الشديق ، كتاب ... صفحة ١٣٦-١٣٥) (Adel Ismail, Histoire du Liban..., pp. 135-136.

(٦٢٨

١٤٤

محالة كل الاستقراطية المارونية » (١١١) .

وردت على غارات الفرق المسيحية على قرى الدرروز اخذ الفلاحون الدرروز يقيمون على القرى المسيحية . وشرع كل من الطرفين يقوم بأعمال النهب والحريق والقتل واستمر الصدام طوال شهري تشرين الاول وتشرين الثاني . وكانت مهارة الدرروز في الحرب وتلاحمهم القوي وتصميمهم سبباً في انتصارهم وهزيمة المسيحيين شر هزيمة الى كسروان (لبنان الشمالي) ومدن الساحل .

وقد كابد من هذه الصدامات ما يزيد عن سبعين قرية الى جانب مدينتي دير القمر وزحلة ، واحرق . وهدم أربعة الاف واربعمئة منزل ونهب امتعة بقيمة ثمانية وخمسين مليون وخمسمئة الف قرش للمسيحيين ومليون وثلاثمئة الف قرش للدرروز . وبلغ عدد القتلى من كلا الطرفين حتى الالف وخمسمئة انسان (١١٢) .

ولم تتخذ السلطات التركية خطوة حازمة لايقاف المجازر في جبل لبنان . وقد كتب ك. م. بازيلى عن الباشا التركي : « لقد كان والي السلطان ينظر في المنظر الكبير من بيروت الى الحرائق التي كانت تظهر على منحدرات الجبال مشيرة الى العمليات الحربية . وكان الريح تحمل دخان حرائق اللبنانيين ليختلط بالدخان الشدي الصادر عن غلايين البشوات الاتراك ونراجيلهم التي يتسللون بها في ليالي رمضان المباركة » (١١٣) . وقد اكتفى الباشا بارسال موظفين الى دير القمر للمساعدة على تسوية الخلاف ولكن دعوتهم لم تجد اذناً صاغية ، بل والادهى من هذا أن الشيوخ النكديين وفرقا من الدرروز قاموا اثناء وجود الاتراك في المدينة بنهب موكب الامير بشير المتوجه الى بيروت كما شتوا الغارات على دير القمر ونهبوها رغم أن المدينة كانت قد اوقفت العمليات الحربية .

وكانت الحكومة التركية تسليح كلا الطرفين بدون ان تتدخل

١١١ - ك. م. بازيلى : سوريا وفلسطين ، صفحة ٢٨١ .

١١٢ - اسرخ « السفارة في القسطنطينية » .

١١٣ - ك. م. بازيلى : سوريا وفلسطين الصفحتان ٢٦٩ - ٢٧٠ .

في الصدامات بشكل مكشوف (١١٤) .

ولم يبعث سليم باشا جيوشا الى زحلة ودير القمر الا في تشرين الثاني ، وبعد أن أصبح انتصار الدروز لا شك فيه وزاد الحاح القناصل الأوروبيين لتنفيذ مطالبهم .

وفي الثاني عشر من كانون الاول وصل من استامبول الى بيروت وزير الباب العالي سر عسكر مصطفى باشا على رأس جيش تركي وبتفويض من الحكومة التركية يمنحه صلاحية مطلقة في العمل لاعادة ترتيب وتنظيم الادارة الجديدة في لبنان .

وفي السادس عشر من كانون الثاني عام ١٨٤٢ دعا مصطفى باشا ارستقراطيي لبنان من الدروز والموارنة لاجتماع اعلن فيه تنحية آل شهاب عن الحكم وتنصيب ضابط الجيش العثماني والنمسوي الاصل عمر باشا حاكما لجبال لبنان .

وهكذا فقد كانت النتيجة النهائية للصدامات التي جرت بين الدروز والموارنة في عام ١٨٤١ هي تثبيت السلطة التركية المباشرة في لبنان .

اصلاحات الحكم السياسي في لبنان واستفحال امر الرجعية الاقطاعية

لقد اعتبر سفراء الدول الأوروبية في استامبول ان تعيين عمر باشا حاكما في لبنان هو خرق لمبادئ الحكم الذاتي في البلاد فاعلنوا عن احتجاجهم ثم بدأت المفاوضات حول التركيب السياسي في لبنان بين السفراء والحكومة التركية في استامبول ثم انتقلت الى اللجنة الدولية في بيروت واستمرت حتى عام ١٨٤٤ (١١٥) .

١١٤ - قدم الموظفون الاتراك الاتون الى لبنان عددا قليلا من الاسلحة

للموارة . وتزود الدروز بالاسلحة من دمشق بتستر من الباشا هناك .
(I. de Testa, Recueil des traités..., t. III, p. 103).

١٥٥ - أن الخطوط العامة لتاريخ المفاوضات ومواقف الدول الغربية

والاتراك يمكن ان نجدها في اعمال :

(M. Jouplain, La question du Liban..., pp. 279-206).

وعادل اسماعيل . (Adel Ismail, Histoire du Liban..., t. IV, pp. 202-269).

كما ان هناك موادا وثائقية مجموعة في منشورات اي ، تيسنا ، والمطبوعات

الانكليزية الرسمية .

(I. de Testa, Recueil des traités..., vol. III; vol. XXXVI, London, 1861).

واصبحت القضية اللبنانية مثار نزاع حاد بين فرنسا وانكلترا وتركيا بوجه خاص .

ان احتجاجات الدول الغربية واستياء بعض الاقطاعيين الموارنة من اقامة حكم تركي مباشر في لبنان اجبرت عمر باشا على التفتيش عن دعامة اجتماعية في البلاد بين خصوم اعاد حكم الشهابيين وبالدرجة الاولى بين المشايخ الدروز . ولهذا ، فبالرغم من سياسة الحكومة التركية الهادفة لمركز السلطة في البلاد والغاء الملكية المشروطة للارض في كل أنحاء الامبراطورية العثمانية، فقد اعاد عمر باشا الى الارستقراطيين الاقطاعيين اصحاب المقاطعات في لبنان كل حقوقهم وامتيازاتهم ، واعاد المقاطعات في لبنان الجنوبي الى اصحابها التقليديين . وارضى رغبات الاقطاعيين الدروز .

ان انتصار الارستقراطية الدرزية على الموارنة ، والتدابير التي اتخذها عمر باشا قد خلقت في عام ١٨٤٢ ظروف ملائمة لسيطرة الروح الرجعية الاقطاعية ، فقد كتب ش. تشرشل يقول : « ان المشايخ الدروز المنتشرين بخمرة النصر أصبحوا يظهرون الميل للاستقلال ... وقد اساءوا استعمال السلطة في كثير من الاحيان وعاملوا المسيحيين وكان هؤلاء قطيعا لديهم لا يطاق » (١١٦) . وكان الشيخ ناصيف النكدي يغير علانية على سكان دير القمر مما اضطر قسم منهم الى مغادرة المدينة (١١٧) .

وحتى في شمال البلاد الذي يسكن الموارنة القسم الاعظم منه كان الاقطاعيون كما ذكر ك. م. بازيلي « يستغلون تغير الحكم على نطاق واسع من اجل اضطهاد الفلاحين واحياء الكثير من الامتيازات الاقطاعية القديمة التي عفا عليها الزمن » (١١٨) .

واخذت حركة مناهضة الاقطاعية بالوهن والتفتت . وكان الفلاحون وسكان المدن يكتفون بابداء مقاومة سلبية للاقطاعيين وذلك بتقديم الشكاوى الى الباشا والتوسلات بمنحهم « الحماية وتعويض » ما نهبه الدروز ، ولكن المشايخ الدروز رفضوا اعادة

Ch. Churchill, The Druzes..., p. 72.

- ١١٦

١١٧ - اسرخ « السفارة في القسطنطينية » ك. م. بازيلي سوريا وفلسطين .

صفحة ٢٧٣ .

١١٨ - اسرخ « السفارة في القسطنطينية » .

الاشياء والأراضي التي استولوا عليها (١١٩) .

ان شكايي الاهالي المسيحيين ضد تصف الدروز، ومساندة الدول الغربية لهذه الشكاوي مساندة فعالة ورفض المشايخ الدروز تعويض ما نهبوه من ممتلكات المسيحيين ، وعدم خضوع الارستقراطية الدرزية للسلطات التركية و اخيرا مقاومة المشايخ لسياسة الاتراك الدينية (١٢٠) عملت كلها على تردي العلاقات بين الاتراك والدروز وأجبرت الاتراك على ان يقوموا باعتقالات بعض الارستقراطيين الدروز في نيسان من عام ١٨٤٢ ، مما اثار الاحتجاج في صفوف هؤلاء وحرض مشايخهم الطغاة على التحضير لعصيان ضد عمر باشا .

وفي منتصف عام ١٨٤٢ اخذ الاستياء من الحكم التركي يتسع في لبنان وينتشر بين الاهالي المسيحيين ، وكان السبب المباشر في هذا هو الخطوات التي اتخذها عمر باشا ، الذي اصدر في اذار امرا الى اهالي المتن بان يرسلوا جميع عمال البناء لديهم (المعرجية - العرب) الى عكا لاصلاح اسوارها وبأن يهدموا كل ورشات صنع البارود ويقدموا للسلطات التركية المعدات والادوات اللازمة لمناجم الفحم وتقدر هذه المعدات بألفي كيس (كانت قد نهبت اثناء الصدامات) . ولكن فلاح المتن رفضوا تنفيذ اوامر السلطات مما ادى لحدوث اشتباكات بين الجنود الاتراك والفلاحين ، فاضطر عمر باشا لالغاء الامر (١٢١) .

وفي صيف عام ١٨٤٢ أوحى عمر باشا بكتابة عريضة من اجل احتفاظه بالحكم . وفي الوقت نفسه بدأ انصار إعادة الأمير بشير الثاني - رجال الدين الموارنة وبعض الاقطاعيين - بنشر دعايتهم من جديد ، وكان العملاء الفرنسيون يدعمونهم في هذا العمل ، وقد

Ch. Churchill, The Druzes..., p. 72.

— ١١٩ —

١٢ - اسرخ « السفارة في القسطنطينية » . لكي يقوي المشايخ الدروز اتحادهم مع السلطات التركية عمدوا في بادئ الامر الى الاعلان بان الدروز ينوون اعتناق المذهب السني في الاسلام . وقد كتب ك.م. بازيلي ان « الائمة بدأوا يعملون في الجبل بنشاط لتعليم الشعب اصول الصلاة تحت انظار الضباط الاتراك » ولكن سرعان ما اصبحت الارستقراطية تخشى فقدان نفوذها بين ابناء عقيدتها فيما لو اعتنقت المذهب السني . فانخفضت التدابير لايكاف الدعاية التركية .

١٢١ - اسرخ - السفارة في القسطنطينية .

١٤٨

ظهرت قطع الاسطول الفرنسي من جديد ، على شواطئ سوريا (اذ كانت فرنسا تصر على إعادة الشهابيين) . ولم تكن نتيجة حركة العرائض مرضية بالنسبة للاتراك فلجأوا الى الضغط وشراء العملاء وتزوير التواقيع مما ضاعف من استياء الاهالي . وكان من نتيجة هذا ان الفرقة المسلحة التي تضم عدة مئات من الرجال والتي بعثها الاتراك الى اهدن (لبنان الشمالي) بحجة ملاحقة احد المشايخ الشهابيين ، تعرضت لهجوم الجبليين وقضي عليها (١٢٢) .

ان هذا الصدام المسلح في منطقة اهدن كان ايذانا بتمرد دروز لبنان المتوسط . وقد أسرع لمساعدتهم من لبنان الشرقي وهوران رجال شبلي العريان الذين اقتحموا جبل لبنان وتوجهوا الى بيت الدين مقر عمر باشا . وطالب شبلي العريان بتحرير المشايخ المعتقلين واعادة الحكم الذاتي الى لبنان وارجاع الشهابيين الى الحكم (وكان الدافع لهذا الطلب الاخير هو الرغبة في استمالة الموارنة) . وحاول المشايخ الدروز ان يعقدوا اتفاقا مع الارستقراطية المسيحية من اجل العمل الموحد ضد الاتراك . ولكن هذه المحاولات اصطدمت بمقاومة رجال الدين كما حدث في عام ١٨٤١ . وبالإضافة الى هذا فقد ازداد آعداء الدرزي الماروني حدة بعد عام ١٨٤١ . وقد حاول عمر باشا ان يعرقل هذا الاتحاد وبذل جهوده لاثارة الصدام بين الطائفتين (١٢٣) .

١٢٢ - ان ارسال الفرقة الى اهدن واعتقال المشايخ الدروز بدأ في نظر سكان لبنان كشاهد على نية الاتراك احتلال الجبال وتجريد السكان من السلاح (ك.م. بازيلي . سوريا وفلسطين ... صفحة ٢٧٥) .

١٢٣ - كان الباشا في بادئ الامر ينوي ان يبعث الى كسروان وزحلة فرقة

درزية بقيادة الشيخ خطار العمار

(Adel Ismail, Histoire du Liban..., p. 187).

لانه كان ، على ما يظهر يعتقد ، ان ظهوره في المناطق المسيحية سيؤدي الى الصدام . اما عندما بدأ تمرد الدروز بالنضوج دعا الباشا المسيحيين صراحة للهجوم على الدروز (Ibid., 194) وفي نهاية تشرين الاول ١٨٤٢ وثناء التمرد الدرزي وجه عمر باشا لآخواده فرقة مسيحية بقيادة ابي سمرا غانم (خليل فايز ، ابو سمرا ، من صفحة ١٢٠ الى صفحة ١٢٤) . ولكن حتى في هذه الظروف لم يتج للاتراك استفزاز الحرب بين الدروز والموارنة . وهذا يؤكد مرة اخرى واخرى ان دوائر السلطات التركية وحدها لم تكن قادرة على اثاره الحرب .

١٤٩

ونظرا لان جهود عمر باشا لم تتكلل بالنجاح ولان وضج
السلطات التركية أصبح محرجا أسرع الاتراك لتسوية الخلاف في
اهلن تسوية سلمية ولارسال قطعات عسكرية ضخمة بقيادة والي
بيروت اسعد باشا الى لبنان المتوسط . ولم تستطع الفرق
الدرزية الصمود امام الجيش النظامي فانهمزمت .

وبالرغم من اخماد التمرد الدرزي فقد قضت حوادث عام
١٨٤٢ نهائيا على سمعة عمر باشا والسلطات التركية في لبنان .

وفي أيلول عام ١٨٤٢ وبعد اصرار من السفراء الاوروبيين
وخاصة بعد ان أصبح من الواضح فشل السياسة التركية في
حكم لبنان حكما مباشرا وافق الباب العالي على اعادة النظر في
قضية ارجاع الحكم الذاتي للبنان ، ولكن بعد تجديد التنظيم
السياسي في البلاد . ورفض الاتراك الإبقاء على حكم الشهابيين،
الامر الذي كانت تصر فرنسا عليه ، ولكنهم قبلوا باقتراح
المستشار النمساوي ميترنيخ حول تقسيم لبنان الى قائمتين :
واحدة درزية برئاسة قائمقام درزي والاخرى مارونية برئاسة
قائمقام ماروني (١٢٤) .

وفي منتصف كانون الأول استدعي عمر باشا من لبنان وبدأ
اسعد باشا بتطبيق النظام الجديد في ادارة البلاد السياسية في
السابع من كانون الاول وفقا لوامر الباب العالي (١٢٥) .
ان الحل الوسط الذي خلق النظام الجديد في ادارة لبنان
لم يكن ليرضي إلا الدول الاوروبية ولكنه لم يكن بقادر على حل
المشكلة القائمة بين الدرروز والموارنة . فقد وطد هذا النظام
الانعزال الديني وارث نار العداوة بين الدرروز والموارنة وعقّد
عملية التقسيم مما وفر العديد من الذرائع التي تمكن الدول
الاوروبية والباب العالي من التدخل في شؤون لبنان .
وتنبغي الإشارة الى ان السعي لحل القضية الدرزية

١٢٤ - ان الفكرة التي تقدم بها ميترنيخ لم تكن بالفكرة الجديدة . فقد
كان الموظفون الاتراك قد ناقشوا في عام ١٨٤١ مسألة تقسيم لبنان الى اقليمين
بحسب تركيب السكان الديني . ومن الأمور الميزة ان الدبلوماسيين الاتراك
والفرنسيين كانوا في عام ١٨٤١ يعتبرون ان مثل هذا العمل سيكون بمثابة « تنظيم
(Adel Ismail, Histoire du Liban..., p. 206).
حرب اهلية في لبنان » .
(Adel Ismail, Histoire du Liban..., p. 207).

- ١٢٥

١٥٠

المارونية عن طريق تغيير التركيب السياسي في البلاد كان محكوما
عليه بالفشل منذ البداية . وربما كان ك. م. بازيللي هو القنصل
الاوروبي الوحيد الذي أدرك أن السبيل الوحيد الى « تهدئة »
البلاد ، حسب تعبيره هو اجراء تغييرات اجتماعية تحد من تعسف
الاقطاعيين (١٢٦) . بينما كان التقسيم عاملا لتوطيد هذا التعسف
اكثر من ذي قبل . وكان القائمقامان المعينان من قبل الاتراك
أعجز من ان يقفا في وجه الارستقراطية الاقطاعية ، بل هما لم
يضعما امامهما مثل هذه المهمة لانهما من ابناء هذه الطبقة ولا
يسعهما اطلاقا الخروج من فلكها .

فقد عقد القائمقام الدرزي الامير احمد ارسلان بعد تعيينه
مباشرة معاهدة مع المشايخ الدرروز تلزمه بالخضوع التام لاشراف
العائلات الاقطاعية الرئيسية وببذل كل الجهود لحفظ « سلامتها
وزيادة املها » . وقد اضطر الامير حتى الى الموافقة على ان
يقتسم راتبه مع المشايخ (كان على القائمقامين ان يقبضوا راتبا
محددا شأنهم شأن الموظفين الحكوميين) ، وان لا يكون لديه رجال
درك بل يتساعد مع المشايخ الدرروز للسهر على طمأنينة
الرعايا (١٢٧) . اما القائمقام الماروني الامير حيدر اللمعي فقد
كان محروما من امكانية التفكير بتوطيد السلطة وبالحد من التعسف
الاقطاعي بسبب مقاومة الارستقراطية المارونية . ومنذ بدء عام
١٨٤٤ ، عندما أصبح من الواضح ان سلطة القائمقام الماروني
ستقتصر فقط على لبنان الشمالي ، اشتهى الامير حيدر من ان
مشايخ آل الخازن وحبيش يسعون لعزله وأن تأييد البطرك له
مشكوك في أمره ، وان بعض رجال الدين يحيك الدسائس لصالح
الشهابيين (١٢٨) ، (فقد فتر اهتمامهم بتنظيم الادارة
الجديدة وبالقائمقام) .

واصبح القائمقامان عرضة للدسائس السرية التي تحيكها
الدول الاوروبية والحكومة التركية . واستطاع القنصل الانكليزي
ان يستبدل احمد ارسلان بصنيعته الشيخ سعيد جنبلاط . وعاد

١٢٦ - راجع « كم بازيللي - الدبلوماسي الروسي وهورخ سوريا » الصفحة

٦٧ و ٦٨ .

Adel Ismail, Histoire du Liban..., pp. 212-215).

- ١٢٧

١٢٨ - اسرخ « السفارة في القسطنطينية » .

القنصل الفرنسي في عام ١٨٤٤ الى محاولاته لاعادة حكم الشهابيين (١٢٩) . وكان الاتراك يقيمون شتى العقبات في وجه القائمين .

وهكذا فان تقسيم لبنان الى قائمقاميتين لم يقض على التناقضات الاجتماعية الداخلية التي كانت سببا في الصدام بين الدروز والموارنة .

وقد برزت الصعوبات منذ الايام الاولى للتنظيم : كمسألة تحديد الحكم في المناطق التي ينتمي سكانها الى ديانات مختلفة . وكان القائمقام الماروني المدعوم من قبل البطريرك ورجال الدين والسكان الموارنة في المناطق المختلفة يصر على منحه الحق بادارة شؤون كل مسيحيي لبنان بغض النظر عن المنطقة التي يقطنونها . وكان القنصل الفرنسي مؤيدا لهذا الموقف .

اما القائمقام والمشايع الدروز فقد كانوا موافقين على التنازل عن ادارة شؤون الدروز في المناطق المارونية ولكنهم كانوا يطالبون بمنحهم حق السيطرة التامة على سكان المقاطعات الدرزية على اساس انه « من المستحيل أن يكون الحكم ثنائيا هناك حيث يعيش فلاحو شعب واحد على ارض واحدة ويتبعون بحكم وضعهم لمالك درزي واحد » (١٣٠) .

وكان تنفيذ الخطة المارونية يعني نفس حقوق وامتيازات اصحاب المقاطعات الدروز . ولهذا فقد لاقت هذه الخطة مقاومة من جانب القنصل الانكليزي المرتبط ارتباطا وثيقا بالارستقراطية الدرزية .

وبالتالي فقد كانت قضية ادارة المناطق المختلطة لا تتصف بصفة سياسية فقط (اذ كان يتوقف على حلها تحديد القوى السياسية التي ستكون لها الغلبة في البلاد) بل وبصفة اجتماعية ايضا (١٣١) .

١٢٩ - المصدر نفسه .

١٣٠ - اسرخ « السفارة في القسطنطينية » .

١٣١ - كتب ك.م. بازيلجي مهولا اهمية المشروع الماروني : « ان التنظيم الحالي للبلاد ، المعتمد على مبدأ المجتمع القطاعي ، سينهار نهائيا فيما لو شملت سلطة الزعيم الماروني كل مسيحيي لبنان » (المصدر نفسه) ان نظرية ك.م. بازيلجي كانت تعكس دون شك مزاج الاوساط الحاكمة واهالي لبنان وهي تدل على الصفة الاجتماعية للصراع القائم حول مبدأ تقسيم البلاد الى قائمقامتين .

وقد مر عام ١٨٤٣ في نقاشات مستمرة في الدوائر الادارية والدبلوماسية حول تنظيم ادارة المناطق المختلطة ودير القمر التي رفض سكانها الاعتراف بسلطة سادة المدينة المشايخ النكديين وحول المبالغ التي يجب ان تمنح للمسيحيين تعويضا لهم عن الخسائر التي لحقت بهم .

وفي ربيع عام ١٨٤٤ وردت الى لبنان اوامر جديدة من الباب العالي بان ياتمر السكان المسيحيون في المقاطعات الدرزية بأوامر القائمقام الدرزي وبالتالي باوامر اصحاب المقاطعات الدروز . وقد اثارت هذه الاوامر استياء الموارنة ، واجتمع اكثر من الف مسيحي في دير ماروني ووضعوا شكوى احتجاجية ضد حكم الدروز (١٣٢) .

وفي نهاية اذار من عام ١٨٤٤ كتب الموارنة شكوى مشابهة يتوسلون فيها لتحرير المسيحيين من حكم الدروز الظالم ووضعهم تحت حكم القائمقام المسيحي . وقد وضعت الشكوى موضع النقاش حق اصحاب المقاطعات الدروز في امتلاك مقاطعاتهم من الاساس . وكان وضع المسألة بهذا الشكل يتصف من حيث الجوهر بصفة العداء للقطاعية ، ولكن البراهين التي اختارها كاتبو الشكوى لدعم ارائهم كانت مستقاة من الافكار الحقوقية القطاعية . وقد ورد في الشكوى أن الامير الحاكم « كان يوزع بنفسه المقاطعات على اصحابها ويتزعمها منهم متى اراد » . ولم يكن لاحد من الدروز الحق بامتلاك المقاطعات قبل حكم الشهابيين الذين وزعوها عليهم . وقد جرد الامير بشير المشايخ الدروز من ممتلكاتهم ايام حكمه . ثم يسأل كاتبو الشكوى : فان اين اخذ المشايخ الدروز الان الحق في امتلاك المقاطعات ، ما دام هذا الحق لا يمنح الا من قبل حاكم لبنان الذي لا وجود له الان ؟ (من الامور المميزة أن كاتبو الشكوى لم يعترفوا للباب العالي بحق منح المقاطعات) .

وفي ايار من عام ١٨٤٤ دعا اسعد باشا القناصل الاوروبيين وكلا القائمقامين لاجتماع حضره قائمقام الموارنة بصحبة المطران طوبيا وممثلين عن السكان المسيحيين في المناطق المختلطة (١٣٤) .

١٣٢ - اسرخ « السفارة في القسطنطينية » .

١٣٣ - المصدر نفسه .

١٣٤ - المصدر نفسه .

وكان الدافع لهذا الاجتماع على الأرجح هو عزم الباشا على اخبار الحاضرين بأوامر الباب العالي الجديدة .

وقد ابلغ القنصل الروسي بان وفد المسيحيين الى هذا الاجتماع قد رفض الاعتراف حتى نظريا بحقوق الزعماء الدروز الاقطاعية المتوارثة في المقاطعات المذكورة ، تلك الحقوق التي « اكدتها على ما يظهر (١٣٥) اوامر الباب العالي الاخيرة » . وكانت حجج المسيحيين معروفة من شكواهم السابقة : « ان المسيحيين يعتمدون على عدالة مطالبهم وفقا للعادات القديمة ، عندما كان من حق حاكم لبنان ان يقبل صاحب المقاطعة ويستبدله بغيره بفض النظر عن العرق او العقيدة كما كان الامير بشير يفعل غالبا لصالح اعضاء أسرته وانصاره » (١٣٦) .

وهكذا فان لدينا ثلاثة دلائل على رفض السكان لحكم القائمقام الدرزي واصحاب المقاطعات وعلى طلب وضع مسيحيي المناطق المختلطة تحت سلطة القائمقام المسيحي .
فمن مصلحة من كان يعبر هذا الرفض ؟ ومن كان المحرض عليه ؟

لقد كان هذا المطلب يتفق مع المصالح السياسية للقائمقام الماروني الذي كان يطمع في نشر سلطته المطلقة على كافة مسيحيي لبنان . كما كان يعبر عن مشاعر العداء للاقطاعية لدى الفلاحين وسكان المدن في المناطق المختلطة الباحثين عن سبل للتحرر من حكم اصحاب مقاطعاتهم القضائي والاداري . ان مثل هذا الطلب والحجج التي تدعّمه يمكن ان تصدر عن الاوساط التي تؤيد الحركة المناهضة للاقطاعية او تستغل هذه الحركة لاغراضها الخاصة .
ويبدو ان هذه هي الاوساط الاجتماعية نفسها التي اشتركت في وضع وثائق كل من العصيان ضد المصريين والحركة المناهضة

١٣٥ - لقد صودق بالفعل على هذه الحقوق .

١٣٦ - اسرخ « السفارة في القسطنطينية » ان ك.م. بازيلس قد تحفظ في حقه بضعف هذه الحجة « ولكن الاضاف يقضي بان نشر الى ان هذا كان نتيجة الازمة السياسية التي سمحت بحدوث مثل هذه الاقالات ، والى ان نجاح هذه الاعمال كان يتطلب كل سلطة الحاكم القديم ، والى ان الاسر المطرودة قد عادت عاجلا او اجلا للظهور على المسرح كما حدث مع ال جنبالا وال ارسلان وامثالهم بفضل السلطة المركزية » .

١٥٤

للاقطاعية في عام ١٨٤١ وهي كما ذكرنا اوساط مرتبطة بالبرجوازية الناشئة .

ومن المستبعد ان يصدر مثل هذا الطلب عن الاقطاعيين الموارنة ، وذلك لان رفض فلاحى لبنان المتوسط الخضوع لسلطة اصحاب المقاطعات الدروز سيكون سابقة خطيرة بالنسبة لهم ، اذ انها تعطي الفلاحين من ابناء عقيدتهم حجة لرفض سلطة اصحاب المقاطعات المسيحيين .

وكان كبار رجال الدين يختلفون في موقفهم من اعادة تنظيم الادارة في لبنان . فالبطرك وحاشيته كانوا يعتمدون مع القائمقام على نشر سلطة هذا الاخير على كافة المسيحيين ويستغلون لهذا الغرض موقف المعارضة الديمقراطية الذي يقفه مسيحيو المناطق المختلطة ويحاولون الاستفادة من العداوة بين الدروز والموارنة ، مستمرين في تطبيق سياسة عام ١٨٤١ . وكان هناك قسم من الارستقراطية المارونية ورجال الدين في عام ١٨٤٤ يؤيد عودة الامير بشير او ابنه امين شهاب وكان القنصل الفرنسي يعمل على تأريث هذه الرغبة لديهم .

في نهاية شباط عام ١٨٤٤ توجه الاسقف نقولا مراد الى اوربا (١٣٧) ، للعمل على كسب تأييد حكومتي باريس ولندن من اجل عودة الامراء الشهابيين . وفي باريس سلم الاسقف « طلب مسيحيي جبل لبنان الى ملك فرنسا لويس - فيليب (في الثامن عشر من اذار عام ١٨٤٤) ، المذيل بتواقيع امراء المتن (الشهابيين واللمعيين) وكبار مشايخ لبنان الشمالي « وجميع سكان جبل لبنان » (كان مجموع التواقيع والختم مئتين وسبعين) (١٣٨) . وقد تضمن الطلب تعدادا لجرائم الدروز في صدامات علم ١٨٤١ والتماسا للعمل من اجل اعادة الشهابيين . وفي الثالث من نيسان قدم نقولا مراد طلبا مماثلا لسكرتير الدولة للشؤون الخارجية في لندن اللورد ايودين . ثم قدم له في العاشر من نيسان « مذكرة خاصة تتضمن وصفا قاتما للوضع في لبنان : الفوضى تسيطر في

I. de Testa, Recueil des traités..., t. III, p. 137.

١٣٨ - اصبح من عادة الكتل السياسية في لبنان ان تقدم مطالبها كتعبير من امتني « الشعب باسمه » ولهذا فقد كان من السذاجة تعليق اهمية على التواقيع المذيلة للطلب المقدم الى لويس فيليب .

البلاد ، والصدمات بين الطوائف الاقطاعية لا تنقطع ، والطرقات محفوفة بالخطر » والفلاحون العاملون في الارض مضطرون لحمل السلاح الى جانب المحرثات . » وتعتبر المذكورة في الخاتمة عن الاسف لابعاد الشهابيين عن السلطة (١٣٩) .

وهناك بعض المعطيات التي تجعلنا نفترض أن البطرك الماروني لم يكن له يد في ارسال هذا الوفد (هذا اذا رفضنا الفرض القائل بأن البطرك كان يستطيع ان يلعب دورا مزدوجا) (١٤٠) . وليس مستبعدا ان يكون القنصل الفرنسي هو المحرض على سفر نقولا مراد الى أوروبا ، إذ أن رئيس الحكومة الفرنسية ف. غيزو كان من انصار جعل لبنان امانة موحدة كالسابق تحت امرة امير مسيحي من الشهابيين . وكان الدبلوماسيون الفرنسيون يعتبرون ان هذا الشكل من الحكم سيجعل من فرنسا البلد الوحيد المتنفذ في لبنان ، ولهذا فلم يكن هناك ضرورة لسؤاله مؤازرة الشهابيين . ولكن الطلب الرسمي الموجه باسم « مسيحيي لبنان » الى الملك الفرنسي كان ذريعة ملائمة بالنسبة للحكومة الفرنسية كي تقوم بمناورتها الدبلوماسية التالية مع السلطان (١٤١) .

وفي السادس عشر من ايار اوكل غيزو الى القنصل الفرنسي في استامبول ان يطلب من تركيا الغاء اتفاقية السابع من كانون

I. de Testa, Recueil des traités..., t. III, pp. 138-145. — ١٣٩

١٤٠ — ابلغ ك.م. بايزلي في تقرير سري بتاريخ الرابع من ايار بعد حديثه مع القائمقام المسيحي ان الاسقف مراد يعمل لصالح الشهابيين ولكن البطرك الماروني يبدو وكأنه بعيد عن الدلائل التي تحاك ضد القائمقام أسوخ « السفارة في القسطنطينية » ، وقبل هذا بقليل اي في التاسع من اذار وبعد سفر نقولا مراد الى أوروبا اجاب المطران طوبيا على السؤال السري الذي وجهه اليه الكولونيل روزيه عن الاسباب التي دعت مراد لتغيير نوابه بعد أن زار لبنان وعاد الى باريس بأنه لا يعرف شيئا بهذا الخصوص .

(I. de Testa, Recueil des traités..., t. III, p. 138).

واذا علمنا ان طوبيا كان كاتم اسرار البطرك تاكدت لدينا صحة اقوال القنصل الروسي .

١٤١ — ان مهمة مراد كانت تشتمل على هدف اخر هو : كسب الراي العام في فرنسا الى جانب الموارنة وتاريخ المواظف الدينية لدى الكاثوليكين لخلق جس من التأييد داخل البلاد لسياسة الحكومة ازاء القضية اللبنانية .

الاول عام ١٨٤٢ ، وإعادة حكم الشهابيين في لبنان . وفي الوقت نفسه كان القناصل الفرنسيون في لندن وفيينا وبرلين وبطرسبورغ يبذلون جهودهم لكسب تأييد حكومات هذه البلدان الى جانب الموقف الفرنسي . ولكن اللورد ايبودين كان (كالحكومة التركية) يقاوم مشاريع فرنسا بعناد . إذ ان الانكليز كانوا يجذبون وجود القائمقامة الدرزية . وكان الازدواج في الحكم والتناقضات بين القائمقامة سببا في تعقيد الوضع في البلاد باستمرار مما كان يتيح للباب العالي والدول الغربية التدخل في شؤون لبنان . واحتجت الحكومة التركية بتأييد من انكلترا ضد التدخل الفرنسي في شؤون لبنان . ولم تتمكن فرنسا من انجاح خطتها .

وفي صيف عام ١٨٤٤ ، أسرعت الحكومة التركية بعد تسلمها طلب فرنسا الى طرح المسألة اللبنانية امام لجنة دولية في بيروت مؤلفة من القناصل الاوروبيين والموظفين الاتراك ، وارسلت الى هناك قبودان - باشا خليل بمرافقة الاسطول . وفي الثاني من ايلول اتخذت اللجنة قرارات حول المسائل المختلف عليها تقضي بابقاء اهالي المناطق المختلطة في لبنان المتوسط تحت امرة اصحاب المقاطعات والقائمقام الدرزي واقترحت ان ينتخب المسيحيون القاطنون في القائمقامة الدرزية وكلاء يمثلونهم ويدافعون عن مصالحهم امام القائمقام الدرزي ، وان ينتخب المسيحيون القاطنون في القائمقامة الدرزية وكلاء يمثلونهم ويدافعون عن مصالحهم امام القائمقام الدرزي ، وان ينتخب دروز القائمقامة المارونية مثل هؤلاء الوكلاء ايضا ، ووعدت الاهالي المسيحيين المتضررين من حوادث عام ١٨٤١ بتعويض قدره ثلاثة عشر الفا وخمسمئة كيس يدفع الدروز منها ثلاثة الاف وخمسمئة كيس فقط وتأخذ الخزنة على عاتقها دفع ما تبقى من المبلغ . اما فيما يخص مدينة دير القمر التي تعاني من حكم المشايخ النكديين فقد تقرر تسليم الحكم فيها لوكيلين من الدروز والمسيحيين يخضع كل منهما لسلطة قائمقامه .

ولتفادي ظهور مقاومة للنظام الجديد امر خليل باشا السكان بانتخاب وكلائهم في غضون اربعة ايام .

ولكن هذا الحل الجديد لم يكن ليرضي أحدا . وتابع مسيحيو المناطق المختلطة اصرارهم على الغاء سلطة اصحاب المقاطعات الدروز وحكم القائمقام الدرزي . وتوجهوا من جديد الى السلطات

التركية في الثامن عشر من أيلول مطالبين بوضعهم تحت سلطة أصحاب المقاطعات والقائمقام المسيحيين ، كما تضمنت شكواهم التماسا بنقلهم من القائمقامية الدرزية (١٤٢) .

أما الاقطاعيون الدرّوز فقد كانوا يصرون على ابقاء الاوامر القديمة (الصادرة في السابع من كانون الاول عام ١٨٤٢) ويعبرون عن استيائهم من نظام الوكلاء بالذات ، ذلك لان انتخاب هؤلاء يجب أن يجري من قبل السكان المحليين على الا يكونوا من بين المقاطعية . وعلى هذا الاساس كان بولس نجيم يعتبر ان انتخاب الوكلاء يعني ايجاد أجهزة للحكم المشاعي الممثل لمصالح الفلاحين الى جانب السلطة الاقطاعية (١٤٣) . وهذا بالطبع مغالاة في تقييم القرارات ، اذ أن الوكلاء كان يمكن أن ينتخبوا من بين أناس ذوي أوضاع اجتماعية مختلفة — من الاقطاعيين الصغار والتجار الزراعيين والمرايين ورجال الدين ، وكانوا يعبرون عن مصالح الفلاحين بدرجات متفاوتة . وبالإضافة الى هذا فان امكانياتهم كانت محدودة جدا اذ لم يكن باستطاعتهم سوى العودة الى رأي القائمقام او باثنا صيدا . ومع ذلك فان الوكلاء في ظروف لبنان المتوسط كانوا رسميا يمثلون قوى معارضة لأصحاب المقاطعات . ان قرارات أيلول قد أسفرت عن ايجاد قادة علنيين لنضال الفلاحين ضد الاقطاعيين .

ان وزارة الخارجية الفرنسية لم تكن راضية عن قرار الثاني من أيلول . وقد تابع ف. غيزو اصراره على عودة الشهابيين ، بيد ان اعتناق الامير أمين الشهابي للإسلام فجأة أربك الحكومة الفرنسية لفترة .

وظلت القضية اللبنانية تشغل الباب العالي والقناصل طوال شتاء وربيع عام ١٨٤٥ . وأخذت الحكومة التركية بالتردد تحت ضغط مختلف القوى والظروف ، ثم صرحت في الرابع والعشرين من شباط بأنها لا ترغب في الحد من امتيازات أصحاب المقاطعات . وفي اليوم الاول من آذار عام ١٨٤٥ منحت كلامن الوكيلين الحق في العودة الى القائمقام الذي يعتنق عقيدته ، الامر الذي اعتبره بولس

نجيم بحق « كحصان طروادة » . اذ أنه كان يؤدي الى استيلاء القائمقامين والى تدخل كل منهما في شؤون الآخر والعودة في أكثر الاحيان الى السلطات التركية مما كان يؤدي بالتالي الى تدخل الاتراك والدول الاوربية في شؤون لبنان باستمرار .

الصدامات بين الدرّوز والموارنة في عام ١٨٤٥

ان الاجتماعات التي عقدت في لبنان المتوسط منذ ربيع عام ١٨٤٤ والشكايات التي صدرت عنها تدل على أنه بعد اندحار الحركة المناهضة للاقطاعية بدأت تظهر موجة جديدة من الحركات الشعبية في لبنان المتوسط منذ أوائل عام ١٨٤٤ . فبم يمكن أن نفسر هذه الظاهرة ؟

لقد اتصف عام ١٨٤٤ بنشاط الحركة الشعبية لا في لبنان المتوسط فحسب بل وفي سوريا ولبنان الشمالي أيضا . ففي النصف الثاني من نيسان عام ١٨٤٤ انتشرت في ستوريا اشاعات تقول بأن الحكومة التركية قامت بحملة مفاجئة في بغداد لسوق الناس الى الخدمة العسكرية . فاضطربت كافة المدن السورية لهذا النبا ، خاصة وقد تأكدت الاشاعات بقدم نامق باشا الى بيروت ، وهو قائد الفيلق العربي الموجود في سوريا ، وابلاغه القنصل الانكليزي بمشروع انشاء أربعة أفواج من سلاح الفرسان . وقد جمع نامق باشا رجال الدين المسلمين في بيروت ولكن هذا لم يمكنه حسب تعبير ك.م. بازيلى من اثارة الروح الوطنية « والغيرة الاسلامية » . ولم يسفر قرار جمع الجنود الا عن نشر الاضطراب بين السكان (١٤٤) .

وفي أيار من عام ١٨٤٤ اقترنت الاحتجاجات ضد الخدمة العسكرية بالامتناع عن دفع الضرائب للاتراك ، كما حدث في طرابلس التي رفض أهلها دفع الضرائب والدخول في الخدمة العسكرية معها . وفي حلب فر الشباب الى قبائل البدو خوفا من اجبارهم على الخدمة العسكرية . وصرح أهالي عكا عن أنهم « سيستعملون المدافع التي

في حوزتهم لمقاومة الحكومة « فيما اذا عازمت هذه على جمع الجنود في المدينة . كما ان عمال البناء الذين يعملون في تجديد قلعة المدينة والذين لم يقبضوا أجورا منذ عدة شهور (بسبب فراغ خزانة الوالي) امتنعوا عن العمل (١٤٥) .

وكان معلينو هذه الحوادث يتوقعون نشوب تمرد علني في سوريا ضد الحكومة التركية التي كانت في وضع لا تحسد عليه : فجيئتها الاساسي (حوالي عشرة آلاف) كان معسكرا قرب حلب . ولم يكن في دمشق سوى ألفا عسكري نظامي ، وقد عسكرت في دير القمر وبيروت وعكا قطعات تتألف كل منها من اربعمئة انسان ، أما في المراكز الباقية فلم يكن هناك جيش مسلح (١٤٦) .

وعندما بدأت الاضطرابات ارسل الاتراك الجيش الى طرابلس وحلب ، ولكن ما كاد الجيش يترك هذه الاخيرة حتى « ظهر المتمردون في المدينة من جديد » (١٤٧) . وقد خلق هذا الشكك من اشكال المقاومة مصاعب كبيرة امام الاتراك .

فأجلت الحكومة التركية تجنيد السوريين الى عدة سنوات . ولكن الاضطرابات في سوريا لم تحدث نتيجة عزم الحكومة التركية على فرض الخدمة العسكرية فقط . فقد كانت البلاد تعاني من تدهور الوضع الاقتصادي الذي انعكس في التذبذب الحاد في قيمة النقود التركي وفي فرض أنواع جديدة من الرسوم على دكاكين اللحوم والاسماك ، وفي ازدياد أسعار الاغذية وعودة بعض المناطق الى نظام الالتزام . وكان لا بد للوضع الاقتصادي في سوريا أن ينعكس على الوضع في لبنان لارتباطهما الوثيق ببعض . ولكن الاضطرابات السورية كانت صاحبة الاثر الاكبر على الوضع السياسي داخل لبنان . ومن الامور التي لها دلالتها مثلا ان قلاقل طرابلس حدثت في الوقت نفسه الذي وقعت فيه الاضطرابات في جبة - بشري (لبنان الشمالي) . (١٤٨)

ففي حزيران من عام ١٨٤٤ امتنع سكان منطقة جبة - بشري عن دفع الضرائب متذرعين بعدم الانصاف في توزيعها . « وعبثا

حاول البطرلك الماروني للتوجه اليهم بالانذار وتالمواهم - اللاهوتية » (١٤٩) . اذ لم تكن لديهم الرغبة حتى في مفاوضة استعد باشا لان شكواهم السابقة كانت تظل دون جواب . وعندما ارسل الباشا جيشا الى الجبال توجه الفلاحون الى القناصل الاوربيين يطلب المساعدة نظرا لانهم كما كتبوا ، « لا يعرفون أية جريمة اقترفوها حتى يهاجمهم الجيش » (١٥٠) .

ثم تراجع السكان فيما بعد تحت ضغط الباشا واقتصر على طلب تعيين شخص يحدد مقادير الضرائب بالعدل .

وقد انتشر رأي بين القناصل وحاشية الباشا مفاده ان الذي حرض على الاضطرابات هو الاقطاعي المحلي بطرس كرم وذلك بسبب استيائه من القائمقام . ولكن نص الشكوى المرسلة في الرابع عشر من حزيران الى القناصل ، وبساطة التعبير وروح اليأس الحقيقي المتفشية فيها والثقة الساذجة في المساواة بين الاغنياء والفقراء وبين القائمقام والفلاحين ، التي على حد زعمهم - نصت عليها أوامر « الباب العالي » ، كل هذا يشهد على الطابع الفلاحي الذي تتصف به الوثيقة والحركة نفسها .

ان شكوى أهالي جبة - بشري تستحق الاهتمام نظرا لانها تعكس العمليات التي حدثت في وعي فلاحي لبنان الشمالي بتأثير حوادث الاعوام الاخيرة .

وتتحدث الشكوى عن ان الاهالي يريدون ابلاغ القنصل عن اوضاعهم القائمة وعن ظلم واضطهاد الامير حيدر في توزيع الضرائب . ويكتب أهالي جبة - بشري بعد ذلك « وفقا لأوامر الباب العالي من الضروري جباية ثلاثة الاف وخمسمئة كيس من الضرائب موزعة على كل نواحي لبنان . كما ان الباشا أمر القائمقامين الدرزي والمسيحي أن يوزعا هذه الضريبة على مجموع البلاد بالتساوي والعدل دون التفريق بين غني وفقير تمشيا مع أوامر الباب العالي ، ولكن القائمقامين اتفقا على انزال الظلم بنا في سبيل رجالهما وأملاكهما » . وقد وصف السكان وضعهم بكلمات مفعمة بالالم : فهم يتردون في هاوية « الهلاك » و « العوز » المطبق حتى ان وضعهم قد أثار

١٤٩ - المصدر نفسه .

١٥٠ - المصدر نفسه .

١٥١ - المصدر نفسه .

١٤٥ - المصدر نفسه .

١٤٦ - المصدر نفسه .

١٤٧ - المصدر نفسه .

١٤٨ - المصدر نفسه .

شفقة رجال الدرك الذين لم يجدوا في القرى « شيئاً يؤكل » ، ولكن القائمقام ظل مستمرا في عدوانه . ولهذا عبروا عن أملهم بأن تتوسط لهم القناصل لدى الباشا لكي « لا تسمح الحكومة لأحد بانزال الظلم بهم ما داموا متساوين » . وقد انتهت الشكوى بالتماس المساعدة لكي « ينعموا بالطمأنينة والامن والخلص من هذا الجور والظلم » (١٥٢) .

واهم ما في هذه الشكوى، هو تفسير الفلاحين لخط كلخانة كوثيقة تعلن المساواة الاجتماعية والسياسية بين جميع السكان - « الفقراء والاغنياء » ، الفلاحين والقائمقام . ثم الجراة في اطلاق صفة « الظلم » على أعمال القائمقام (لا يجب أن ننسى أن منذ عشر سنوات فقط قبل الفلاحون بخضوع ازدياد الضرائب التعسفي من قبل بشير الثاني) .

ان حوادث جبة - بشري قد وقعت في حزيران ، وفي نهاية آب أو في بداية أيلول عقد في كسروان « اجتماع هام للمسيحيين » المحتجين ضد الرسوم التي تبلغ نسبتها ١٢ ٪ . مما يدل على ان الهيجان لم ينقطع في لبنان الشمالي مع ان الاحتجاجات كانت موجهة حتى ذلك الحين ضد الضرائب المفروضة . (ومن الجدير بالذكر ان السلطات التركية قامت بين عامي ١٨٤٣ و ١٨٤٤ بمسح أراضي القائمقامية المارونية من أجل تصحيح قائمة الضرائب ولكن السكان رفضوا القائمة الجديدة لعدم استقامتها) (١٥٣) . وفي خريف عام ١٨٤٤ « نظم سكان زحلة من أنفسهم حملة ضد جارهم الأمير خنجر حروفش زعيم طائفة المتاوله » . وهكذا فليس سكان دير القمر وحدهم قد تخاضوا مع سيدهم ، بل وها هم سكان مدينة لبنانية أخرى وهي مدينة زحلة يقومون متحدين ومستقلين بهجوم ضد جارهم الاقطاعي . وقد شمل الهيجان أخيرا رجال الدين « فقامت جماعة من الرهبان الحاملين لميدالية القديس انطوان يتراوح عددها بين الاربعمئة والخمسمئة راهب بجلد الاسقف واهانة البطريرك، ثم نهبوا الدير وهاجموا القرية، وتعزى هذه الواقعة الى الاستياء الديني الذي سببه التدهور الاخلاقي لدى رئيسهم » . .

وهكذا اشتد احتداد التناقضات وسط رجال الدين فبدأت الفئات الدنيا منهم بالاحتجاج ضد طغمة الارستقراطية الكنسية ، الامر الذي كان لا بد ان يؤثر على موقف البطريرك . (١٥٤) . وتعقد الموقف الداخلي في لبنان المتوسط نتيجة ظروف اضافية . فوضع الفلاحين الذي كان قد تحسن منذ اعتقال كبار مشايخ الدروز عاد منذ ربيع عام ١٨٤٤ مهددا بالتدهور بسبب اطلاق حرية المشايخ الدروز وقرار الحكومة بتنظيم القائمقامية لا على أساس الارض بل على أساس التركيب الديني للسكان . ووقف الفلاحون وسكان المدن المسيحيون بحزم ضد اعادة سلطة الاقطاعيين الاستياد . ان حركة السكان المسيحيين في لبنان المتوسط ، التي هي في جوهرها حركة ضد الاقطاعية ، قد أخذت تتطور هذه المرة أيضا تحت ستار النضال بين الدروز والموارنة .

ومنذ النصف الثاني من عام ١٨٤٤ بدأ السكان المسيحيون في لبنان المتوسط والجنوبي بالاستعداد للقتال ضد الدروز . ولم يكن هناك شك لدى ذوي الملاحظة القوية من المعاصرين بالجوهري الاجتماعي لهذه المعركة القادمة .

وقد كتب ك. م. بازيل في هذا الصدد يقول : كان المسيحيون « يريدون حل قضيتهم الشعبية مع الدروز بحد السيف » ثم أوضح بعد عدة أسطر ما يقصده بتعبير « القضية الشعبية » : ان انهيار سلطة المشايخ الدروز يعني ان السيل نفسه سيجرف لا محالة كل الارستقراطية المارونية (١٥٥) . كما ان ش. تشرشل بدوره أدرك ان المحتدر المباشر لعودة الحسد والكراهة والعداوة بين الطوائف بين عامي ١٨٤٤ - ١٨٤٥ كان رغبة الموارنة في « التحرر مما كانوا يدعونه حق القنانة الدرزي » (١٥٦) .

وقد سبقت الصدامات بين الدروز والموارنة في عام ١٨٤٥ باشتباكات متفرقة ، ورد ذكر بعضها في كتاب أبي شقرا بشكل لا يدع مجالا للشك في جوهرها المناهض للاقطاعية . ويكتب أبو شقرا ان أحد دروز دير القمر المسمى علي صالح

١٥٤ - اسرخ « السفارة في القسطنطينية » .

١٥٥ - ك.م. بازيل ، سوريا وفلسطين ، صفحة ٢٨١ .
Ch Churchill, The Druzes..., pp. 80, 81.

١٥٦ -

وهو مالك حقول ومواشي (ويتعبر آخر اقطاعي) (١٥٧) ، ساق مواشيه مع شركائه وابنائهم الى مكان أمين فقابلهم في الطريق جمهور من المسيحيين المسلحين من قرية الدبية ، بنية « الايقاع بهم » (صالح واولاده — المؤلف) وبغية اتلاف منازلهم وكسب واغتنام مالهم وسواهم لما كان بين الفريقين من سابق المنازعات وسوء المجاورة « فتراشقوا بوابل من الرصاص واستنجد كل من الفريقين بسكان القرى المجاورة . وكان النصر بجانب الدروز . وقد صادف ان كان الشيخ نجم نكد في احدى القرى التي انجرت الى المعركة يشرف على أرزاقه . وهناك رأي يقول بأن هذا الشيخ قد وقف الى جانب شركائه من المسيحيين ، وهو على كل حال قد بذل جهده ليحول دون نهب الدروز لأملاك شركائه المسيحيين . (١٥٨) .

لقد كان السبب في هذه الحادثة هو قبل كل شيء الخلاف على الارض بين فلاحي قرية الدبية والقطاعي الذي يملك الاراضي المجاورة لها . ومن الامور المميزة ان الشيخ النكدي الدرزي قد وقف الى جانب شركائه المسيحيين أي ان مصالحه المادية تغلبت على شعوره بالتضامن مع أبناء عقيدته .

وقد وقع صدام آخر بين أهالي قريتين من منطقة جزين وبين القطاعي عباس أبي شقرا . فبينما كان هذا الأخير في حقله بصحبة خادمه هاجمه أهالي هاتين القريتين ، فاستطاع أن يتواري عن الأنظار ، أما خادمه فقد وقع في قبضتهم بعد مقاومة يائسة فحوكم في مجلس جزين برئاسة شديد المعوشي (١٥٩) . وقر قرار المجلس

١٥٧ — ان عائلة صالح شأنها شأن عائلة أبي شقرا لم تكن تنتسب لأميان الدروز وكانت تقف على السلم القطاعي الدرزي تحت درجة المشايخ .

١٥٨ — أبو شقرا : الحركة ... صفحة ٤٨ .

١٥٩ — من المعتبر أن نحدد تحديدا صحيحا الوجه الاجتماعي لهذا الشخص . لكن من المعلوم انه كان بين أعيان ووجوه مسيحيي مقاطعة اقليم جزين الى جانب القساوسة رجل اسمه منصور المعوشي وهو من سلالة الشخص الذي نحن بصدد ذكره . ان مسيحيي لبنان الجنوبي هم في الماضي من فلاحي المناطق المارونية الذين انتقلوا الى هنا . وقد اثنى قسم منهم فيما بين السنوات العشرين والثلاثين من القرن التاسع عشر . وبالتالي فان آل المعوشي يمكن ان يكونوا من اكابر الريف ومن المرابين او التجار الريفين . وليس مستبعدا ان يكون هذا القسم من اكابر الريف الذي تمثله هذه السلالة قد أصبح اقطاعيا فيما بعد .

بوجوب الرمي به من شاطئ الى أستفل درك « ليكون عبرة لمن اعتبر » (١٦٠) .

ان تصفية الحساب مع الاسير خادم الاقطاعي جرت بصورة قاسية صارمة ولكنها لم تكن نتيجة رأي اعتباطي بل نتيجة حكم المجلس الذي الفه أفلاحون لمجابهة سلطة المشايخ الجنبلاطين الذين كانوا يخضعون لاحكامهم أهالي جزين والقرى المجاورة . واذا نحن قارنا اقوال أبي شقرا (وخاصة ما حدث مع الشيخ حمود جنبلاط) (١٦١) بملاحظة نقولا مراد ان « الفلاحين الذين يعملون في الارض مضطرون لحمل السلاح الى جانب المحراث » يصبح من الواضح توتر التناقضات الطبقية وتعقد الموقف السياسي في لبنان المتوسط والجنوبي .

وقد تجلّى الاستعداد للصدامات مع الدروز فيما بين عامي ١٨٤٤-١٨٤٥ في تشكيل « جمعيات الحرب الشعبية » المسلحة . وقد كتب ك . م . بازيلى في شباط من عام ١٨٤٥ ان مسيحيي المناطق المختلطة « ينظمون صفوفهم عسكريا منذ عدة شهور (خوفا من غارات الدروز) . وعلى رأس كل ناحية زعيم عسكري يأمر على عدد من الامرين كان يعادل في البداية عدد القرى الموجودة في ناحيته ، ويأمر كل من هؤلاء على مئة انسان وعلى آمري فرق تضم كل منها عشرة أشخاص ويتوجب على هؤلاء جميعا ان يحضروا مع فرقهم عند أول اشارة (١٦٢) . وكان مقدمو الفرق الريفية من الفلاحين يدعون بـ « شيوخ الشباب » (١٦٣) .

وكانت كافة « جمعيات الحرب الشعبية » تاتمر بامرة لجنة سرية تألقت في دير القمر « وهي بمثابة جهاز للادارة الذاتية

١٦٠ — أبو شقرا : الحركة ... صفحة ٤٩ .

١٦١ — بينما كان الشيخ حمود كليب جنبلاط يقطع قرية عازور عرفه ادهم فلخذ يصيح في اهل القرية « الشيخ حمود مر الشيخ حمود » فهب شبان القرية بلجهمها شاكبي السلاح ومضوا في اثره . وهكذا نرى ان الاقطاعيين الدروز لم يكونوا يستطيعون حتى من الظهور في القرى الاخرى لئلا يعرضوا حياتهم للخطر (أبو شقرا ، الحركة ... صفحة ٥٠) .

١٦٢ — اسرخ « السفارة في القسطنطينية » .

١٦٣ — ك . م . بازيلى : سوريا وفلسطين صفحة ٢٨١ .

صادق على نفسه بنفسه « حسب تعبير ش . تشرشل (١٦٤) ، وقد كان للجنة مواردها المالية وجهاز من الاشخاص الذين يقبضون الرواتب . وليست لدينا معلومات كثيرة عن هذه اللجنة ، وقد كتب ك . م . بازيلى يقول : « كانت تجتمع في دير القمر للجنة السرية ذات السلطة المطلقة على كل جمعيات الحرب الشعبية التي انتشرت فروعها في النواحي الجنوبية . وكانت اللجنة تصدر احكام الاعدام وتستخدم منفذين محلفين تصرف لهم رواتب ثابتة مثال «السبيري» (الجلاوزة) في جمهورية البندقية (١٦٥) . كما كتب ايضا : « ان اللجنة المركزية تدير العمليات العامة وترعى النظام » (١٦٦) .

كما اننا لا نعرف الاشخاص الذين كانت اللجنة تتألف منهم . ولا يذكر ابو شقرا سوى اسماء المقدمين العسكريين الرئيسيين الخاضعين للجنة وهم : ابو سمرا غانم ، ويوسف الشتيري ويوسف بك المبيض « ربما كان لقب بك مأخوذا من الخدمة العسكرية لدى الاتراك » والمطران يوسف ابوزرق والامير حسن اسعد شهاب (١٦٧) .

ان اسم المطران يدل على مشاركة كبار رجال الدين الموارنة في المنظمة ، كما يدل على هذا ايضا ان النقود التي كانت تأتي من النمسا الى البطرك كانت تصرف على شراء الاسلحة (١٦٨) . أما القساوسة (الفئات الدنيا من رجال الدين) في المناطق المختلطة فقد شاركوا بنشاط في الصدامات اللاحقة وكانوا يدعون في الكنائس الى « الحرب المقدسة » (١٦٩) وقد اكتشف في عام ١٨٤٥ عند نزع سلاح لبنان مستودع للبنادق في احدى كنائس البلاد (١٧٠) .

Ch. Churchill, The Druzes..., p. 85.

— ١٦٤

راجع المعلومات الاولى بتاريخ الثالث من ايلول عام ١٨٤٤ عن وجود اللجنة واعمالها في اسرخ « السفارة في القسطنطينية » .

١٦٥ — ك . م . بازيلى : سوريا وفلسطين . صفحة ٢٨١ .

١٦٦ — اسرخ « السفارة في القسطنطينية » .

١٦٧ — ابو شقرا الحركة صفحة ٥٣-٥٤ .

١٦٨ — ك . م . بازيلى : سوريا وفلسطين ، صفحة ٢٨٢ .

Ch Churchill, The Druzes..., p. 90.

— ١٦٩

١٧٠ — اسرخ « السفارة في القسطنطينية » .

١٦٦

ان كل هذا قد جعل المعاصرين يؤكدون ان الحركة كانت بقيادة رجال الدين . وكان ش . تشرشل يعتقد ان رجال الدين الموارنة هم الذين استفزوا اصطدامات الدروز والموارنة في عام ١٨٤٥ (وصدامات عام ١٨٤١ كذلك) وقد عزى الى البنوك التعبير الموجز التالي : « اما سيادة الموارنة او الدروز والضربة يجب ان تنزل والسابق ستكون لديه فرصتان ضد واحدة لصالحه » . وابلغ تش . تشرشل ان البطرك كان يستلم التبرعات من النمسا وفرنسا ويسلح السكان ويأمر رجال الدين بدفع اربعة قروش لكل محارب يوميا . وقد استخدم الدعاية الدينية على نطاق واسع وجعل « من الحرب الحزبية حربا دينية » (١٧١) .

ولكن كل هذا لم يكن يعني ، في الظروف اللبنانية المعقدة ، ان رجال الدين كانوا يقودون الحركة كما اننا لا نستبعد ان كبار رجال الدين كانوا يبذلون جهودهم لتحويل النضال ضد الاقطاعية الى حرب بين الاديان .

ان اسلم سبيل للحكم على طابع القيادة الاجتماعي هو تحليل نشاط المنظمة .

كتب ك . م . بازيلى في الثالث من نيسان عام ١٨٤٥ تقريرا الى السفير الروسي جاء فيه : « ان المسيحيين الذين يشعرون الان انهم اكثر قوة والمنظمين عسكريا في جميع المناطق المختلطة يطالبون بالقضاء جميع الحقوق الاقطاعية التي يتمتع بها اصحاب المقاطعات الدروز » . وقد لاحظ بازيلى بعد عشرة ايام ان الوفاق يسود بين جميع الملل المسيحية في المناطق المختلطة ، ويوحدتهم « ليليل العام الى التخلص من كل سيئات حكم الطغمة الدرزية » (١٧٢) . وهذا ما جعل ك . م . بازيلى يؤكد ان الارستقراطية المارونية لم تشارك في الحركة لانها ترى بوضوح النزعة الفوضوية لدى ابناء عقيدتها وقد ادركت جيدا ان انهيار سلطة المشايخ الدروز يعني ان السيل نفسه سيجرف لا محالة كل الارستقراطية المارونية (١٧٣) وهكذا نرى ان هناك احد الجوانب الواضحة من نشاط المنظمة وهو مقاومة سلطة الاسياد التي يتمتع بها اصحاب المقاطعات الدروز .

Ch. Churchill, The Druzes..., pp. 83, 86.

— ١٧١

١٧٢ — اسرخ « السفارة في القسطنطينية » .

١٧٣ — ك . م . بازيلى : سوريا وفلسطين ، صفحة ٢٨١ .

وقد كتب معاصرو الحوادث عن ان اللجنة قد شكلت بهدف « عرلة كل تقارب بين ابناء عقيدتهم - المسيحيين - وبين دروز المناطق المختلطة » (١٧٤) . ان ملاحظة تش . تشرشل تلقي الضوء على معنى واهمية هذه التدابير . فقد كتب يقول ان سعي اللجنة للحؤول دون اقامة اية علاقة بين الدروز والموارنة قد أسفر عن النتيجة المرجوة . « فبعد وقت قصير لم يعد المستأجرون المسيحيون يجرؤون على الاقتراب من صاحب ارضهم الدرزي مهما اشتدت رغبتهم في هذا سرا . وكانوا في بعض المناطق يرفضون دفع الاجرة . واصبح التكلم مع الدرزي جنحة ، ومعاشرته يعاقب عليها كخيانة » (١٧٥) . ويتجلى هنا الميل الى تحريض الفلاحين على الامتناع عن دفع الربيع للاقطاعيين الدروز . (ومن الامور المميزة ان قادة عصيان كسروان الفلاحي الذي نشب في عام ١٨٥٩ سيمنعون شركاءهم من دفع الربيع لكبار اصحاب الاراضي وسيلجأون الى العنف لتنفيذ هذا الامر) .

ان بعض بنود معاهدة السلم التي عقدها الدروز والموارنة بعد اصطدامات عام ١٨٤٥ تشير الى درجة اهمية الدور الذي لعبته مسألة الارض قبيل الاصطدامات وابانها . فهناك بند منها ينص على انه « من الآن فصاعدا لن تعقد الاجتماعات في اي مكان ولن يشترك فيها اي مسيحي ليلا او نهارا بل سيبقى كل في حدود ارضه ويزاول اعمالا شريفة ويهتم بأموره الخاصة وزراعة ارضه ولن يقوم بأي عمل يتعارض مع واجبه » . وقد حظر بند آخر الاستيلاء على ممتلكات الغير وطالب باعادة الممتلكات المفتصة (١٧٦) .

١٧٤ - اسوخ « السفارة في القسطنطينية » وقد ابلغ تش . تشرشل ان اللجنة قد اصدرت اوامر صارمة لكل ابناء عقيدتها وانذرت بالاعداء كل من يصادق او يدخل في اية علاقات مع الطائفة الاخرى .
Ch. Churchill, The Druzes..., p. 85).

وقد اصدرت اللجنة امرا بقتل قسيس تجرا على زيارة بيت الشيخ سعيد جنبلاط . (ان الوحشية الدينية التي غالبا ما كانت تتصف بها اعمال اللجنة ، تفسر باحتداد العدواة بين الديانات وبنشيط دعوة رجال الدين الموارنة ، وطابع المنظمة السري) .
Ch. Churchill, The Druzes..., pp. 85-86.

- ١٧٥

١٧٦ - اسوخ « السفارة في القسطنطينية » .

١٦٨

من الصعب ان نفترض ان رجال الدين الذين يملكون المقاطعات الضخمة التي يزرعها الشركاء يمكن ان يقودوا حركة النضال من اجل الارض . بينما من المعلوم لدينا ان التجار الاغنياء في دبر القمر واصحاب ورشات نسج الحرير الذين كانوا يطمحون للتحرر من اضطهاد واشراف الاقطاعيين الدروز قد تدخلوا في علاقات الاقطاعيين الدروز بفلاحهم المسيحيين للدفاع عن هؤلاء الاخيرين « في حالة اضطهاد الدروز لهم » (١٧٧) . وقد استولى التجار ، لقاء الديون ، على اراضي المشايخ الدروز حول المدينة فائساروا كراهية الاقطاعيين نحوهم . ومن المعلوم ان تجار دير القمر قد دخلوا في عداد لجنة بيروت في عام ١٨٦٠ . وان كل هذا يدل على اشتراك التجار في لجنة دير القمر لعام ١٨٤٥ الى جانب ائيرين من ممثلي الفئة الثالثة في لبنان .

وهكذا نرى بشكل واضح ان جوهر الحوادث العفوية والمنظمة هو معاداة الاقطاعية . ولكن لم اتخذ النضال ضد الاقطاعية في عام ١٨٤٥ ايضا طابع الصدام بين الدروز والموارنة ؟ الى جانب الاسباب الموضوعية : مثل قوة العداء الديني بعد حوادث عام ١٨٤١ ، والصلة الوثيقة بين الفلاحين والمشايع الدروز الخ . . كانت هناك عوامل اخرى كميل بعض الاوساط لتأريث العدواة واسباغ الطابع الديني على المعركة عمدا . وقد كانت هذه الرغبة ملازمة لرجال الدين الموارنة الذين حاولوا عن هذا السبيل ان يؤمنوا لانفسهم القلبة السياسية في البلاد . كما كانت هذه الرغبة على ما يبدو تراود تجار دير القمر الذين كانوا يقدمون القروض لا للمشايع الدروز فقط بل وللـفلاحين الذين كانوا يكونون لهم الكراهية ويستفيدون من العدواة التي تتيح اقامة نظام في المدينة يتصف بصفة خاصة من التمييز العنصري حيال الدروز في مجال عقد الصفقات التجارية .

وقد اثار نشاط لجنة « جمعيات الحرب الشعبية » ردة فعل لدى المشايخ الدروز . « ان سيل الـذاهيين والائين الذي لم ينقطع خلال شهرين كاملين ، والاجتماعات السرية ليلا ونهارا والمصاريف الباهظة على الضيافة كانت تشير الى ان ديوان سعيد بيك (جنبلاط - المؤلف) كان في نشاط دائم » (١٧٨) كما ابلغ تش . تشرشل .

Ch. Churchill, The Druzes..., p. 106.

- ١٧٧

Ibid., p. 89.

- ١٧٨

وقد لفت نظر المعاصرين الاجتماع الضخم الذي عقده المشايخ الدروز في « المختارة » بتاريخ الثاني من شباط عام ١٨٤٥. وهناك زعم يقول بأن « الهدف الواضح لهذا الاجتماع هو انتهاء الخلافات بين الاخوين جنبلاط (نعمان وسعيد - المؤلفة) حول الارث بشكل ودي » (١٧٩) . (وكان القنصل الانكليزي يدعم هذا الزعم بقوة) (١٨٠) . اما في الحقيقة فقد كان الهدف من هذا الاجتماع هو توحيد الجماعتين الاقطاعيتين المتعاديتين (اليزبكيون والجنبلاطيون) من اجل الاستعداد للمعركة القادمة مع المسيحيين . وبعد الاجتماع في « المختارة » ازداد التوتر الوضع في لبنان فقد اشتريت خلال بضعة ايام كمية ضخمة من الرصاص والبارود في بيروت (١٨١) . واخذ مسيحيو المناطق المختلطة يعقدون العديد من الاجتماعات ويوزعون المنشائر التي تدعو الى التأهب « لساعة الامتحان » (١٨٢) وفي نهاية نيسان وضع مقدمو الفرق المسيحية خطة للعمل المشترك وحددوا يوم وساعة البدء بالعمل (١٨٣) . وبدأت الفرق تتأهب للمعركة .

وقد اندلعت نيران القتال بين الدروز والموارنة في الايام الاخيرة من نيسان . وكانت الذريعة هي محاولة الشيخ الدرزي يوسف عبد الملك تجريد فلاحي قرية بتاتر من اسلحتهم . وقدهب سكان القرى المجاورة واهالي دير القمر لنجدة الفلاحين الذين اخلوا يقاومون الشيخ . واندلعت نار القتال حالا في عشرات القرى (في مناطق المتن والعرقوب وجزین والشوف والجرد والمناصف) وامتد الهيجان حتى لبنان الشرقي (١٨٤) . وقد وقف

١٧٩ - اسرخ « السفارة في القسطنطينية » .

Adel Ismail, Histoire du Liban..., p. 269.

١٨٠ -

١٨١ - اسرخ « السفارة في القسطنطينية » .

Ch. Churchill, The Druzes..., pp. 89, 90.

١٨٢ -

١٨٢ - ابو شقرا الحركة صفحة ٥٤ .

١٨٤ - اسرخ « السفارة في القسطنطينية » ، يصف ابو شقرا بدء الحوادث بشكل مغاير قليلا ، فيؤكد ان الصدامات قد بدأت بهجوم الفرق المسيحية دفعة واحدة في اليوم والساعة المحددين سلفا . ونظرا لان ابا شقرا يتحيز عندما يدور الحديث عن تحديد المبادر الى الصدام فاننا نرجح رأي ك. م. بازيلى . ولكن هذا لا ينفي ان الفرق المسيحية كانت تستعد سلفا للهجوم . ومن الممكن ان تكون حادثة بتاتر قد سبقت هذه الحوادث بقليل .

١٧٠

دروز حوران الى جانب الدروز في لبنان بقيادة الشيخ ناصيف النكدي الذي كان متواريا عن الانظار بعد حوادث عامي ١٨٤١ - ١٨٤٢ عند القنصل الانكليزي ب وود في دمشق ومن ثم في حوران (١٨٥) . وقد نهب دروز حوران في طريقهم سكان قريتي حاصبيا وراشيا .

واستمرت الصدامات الحربية طوال شهر ايار من عام ١٨٤٥ وكان النصر في البدء حليف المعسكر الماروني الذي طرد من المتن وجزین ونصف قرى الشوف كافة الدروز ونهب ممتلكاتهم وحرق منازلهم . واستطاع الفلاحون الموارنة من الاقتراب الى جدران قلعة الجنبلاطيين في المختارة . وبعد اسبوع رجحت كفة الدروز في العمليات الحربية ، وحرق المشايخ الدروز الشرائق ودود القز لكي يحولوا اهتمام الفلاحين عن العمل ويجبروهم على الالتحاق بالفرق المحاربة . وشرعت الفرق الدرزية تنهب قرى المسيحيين وتحرق البيوت وترتكب جرائم القتل . واصبحت المدن الساحلية تزخر بالآلاف المسيحيين اللاجئين ولم يسلم بيت واحد من بيوت القرى الغنية التي يبلغ عددها سبعا وسبعين قرية في لبنان (١٨٦) . وما كادت ترجح كفة الاقطاعيين الدروز حتى شرعوا بابدء الاهتمام لحماية شركائهم . فاعلن سعيد جنبلاط الامان لفلاحيه وشكل فرقا من المحاربين الدروز لتفادي وقوع اعمال عدوانية في قراه ولحماية العاملين في حقوله (١٨٧) .

اما السلطات التركية فقد اتخذت موقفا كموقفها في عام ١٨٤١ ولم تسرع الى وضع حد للصدامات المسلحة . واقتصر تدخلها في الحوادث على تجريد الفلاحين الموارنة من السلاح والتنكيل بالفرق المسيحية ، اما بالنسبة للدروز فقد وقفت منهم موقف المحايد (المؤيد) ، حتى ان الضباط الاتراك كانوا في بعض الاحيان يعطون السلاح الذي انتزعوه من المسيحيين الى المشايخ الدروز (١٨٨) . وفي نهاية ايار ، عندما اصاب الوهن الطرفين بما فيه الكفاية واصبح ظفر الاقطاعيين الدروز امرا واضحا اصدر

١٨٥ - اسرخ « السفارة في القسطنطينية » .

١٨٦ - ك.م. بازيلى ، سوريا وفلسطين ... ، الصفحة ٢٨٤ .

١٨٧ - ابو شقرا ، الحركة ... صفحة ٦١ .

١٨٨ - اسرخ ، « السفارة في القسطنطينية » .

والي بيروت التركي وجيه باشا ، الذي عين بدلا من اسعد باشا قبيل الحوادث ، امرا الى الاقطاعيين الدروز والوكلاء المسيحيين بالحضور الى بيروت لقرار السلام .

كان يبدو أن الطمانينة تخيم على لبنان الشمالي البعيد عن مسرح الصدامات ولكن الاحداث المرتبطة بانتخاب البطريرك الماروني كانت تدل على احتدام التناقضات الطبقية في هذا القسم من لبنان ايضا .

فلما ان الصدام الذي جرى بين الدروز والموارنة توفي البطريرك الماروني يوسف حبش ، وكان هناك مرشحان لاحتلال منصبه وهما المطران يوسف الخازن الذي ينتسب الى سلالة المشايخ الارستقراطية كسابقه ، والمطران بولس (✱) وهو من أسرة فلاحية تابعة اقطاعيا لآل الخازن . فاختلعت آراء في المجلس البطريركي ووقف الاساقفة الذين ينتسبون للفئة الارستقراطية واعيان الموارنة الى جانب يوسف الخازن ، أما الاساقفة الذين لا ينتسبون لتلك الفئة ومن بينهم عبد الله البستاني وطوبيا فقد رشحوا المطران بولس . وتجدر الاشارة الى أن البطريرك الماروني كان يتمتع بنفوذ في البلاد ويلعب دورا فعالا في حوادث السنوات الاربعين المعقدة . وكانت اشياء كثيرة تتوقف على موقف البطريرك الجديد وارتباطاته السياسية . وهذا ما يفسر سعي الاساقفة المرتبطين بالمعارضة المناهضة للاقطاعية لرفع مرشحهم الى منصب البطريركية (ولنذكر بدور طوبيا في عامي ١٨٤١ و ١٨٤٤ (١٨٩) ، عندما كان يقود تمرد الرهبان في دير القديس انطوان) ، وكان المرشح ذو الاصل الفلاحي يتمتع بتأييد الفلاحين والرهبان وقد ارتبط اسمه بالامل باضعاف نفوذ الارستقراطية المارونية سياسيا واقتصاديا . ولهذا اثارت انتخابات البطريرك معركة حادة ، ولم تنته النقاشات التي استمرت عدة اشهر في المجلس البطريركي الا بتدخل القنصل الفرنسي في بيروت أي . بوجاد . الذي « قضى » بانتخاب يوسف الخازن حسبما تمليه السياسة الفرنسية التقليدية التي تحفظ علاقات قديمة ووثيقة بالارستقراطية المارونية (١٩٠) .

(✱) تقصد بولس مسعد (ملاحظة من العرب) .

E. Poujade, Le Liban et la Syrie..., p. 158.

وعندما ذاع نبا انتخاب البطريرك يوسف الخازن توارد الفلاحون والرهبان المسلحون بالبنادق والعصي الى الدير حيث كانت تجري الانتخابات . ولم يكونوا يريدون الاعتراف بقرار المجلس البطريركي . وقد كتب ك . م . بازيلى ان « البطريرك الجديد والاساقفة والقنصل الفرنسي الذي اراد حمايتهم تلقوا سيلا من السخرية والهزء بهم واضطروا للهرب الى الجبال خوفا من خطر اعظم وكانت غالبيتهم تسير مترجلة » (١٩١) . وقدم شيخ اهدن يوسف كرم الى مكان الحادث بصحبة فرقة مسلحة وطرد الفلاحين (١٩٢) . وبقي قرار انتخاب يوسف الخازن ساريا .

ولم يستقر الوضع في لبنان الا في ايلول من عام ١٨٤٥ . وقد اضطرت الحكومة التركية تحت ضغط الدول والراي العام الاوروبي القلق من جراء الحوادث في لبنان الى القيام بخطوات اكثر حزما . فارسلت الى بيروت وزير خارجية آلبان العالي شكيب افندي واعطته مطلق الصلاحية لاعادة تنظيم الحكم في لبنان .

وسحبت جيوشها التي دخلت لبنان في ايلول عام ١٨٤٥ لنزع سلاح الاهالي ، وجمعتها في سوريا . ولم تلق الجيوش التركية مقاومة الا في لبنان الشمالي ومنطقة جبة - بشري وقرتي الزوق وغزير .

واستبدل شكيب افندي القائمقام الدرزي احمد ارسلان بأخيه أمين ارسلان . كما جرد المشايخ ذوي السمعة السيئة من املاكهم واعطاها لاقاربهم ووضع حدودا بين القائمقامتين .

وتألفت مجالس ملحقة بالقائمقاميتين ينتسب اعضاؤها لمختلف الطوائف الدينية في البلاد ، وتتمتع بسلطة قضائية وتشرف على توزيع الضرائب وتراقب عمليات جبايتها . وكان السكان ينتخبون وكلاء عنهم ليدافع كل وكيل عن ابناء عقيدته امام المقاطعية .

وكانت صفوف الوكلاء في القائمقامية الدرزية تضم بعض المشتركين في الحركة المناهضة للاقطاعية من امثال يوسف المبيض وقس من سلالة الموشى وبعض الاشخاص الذين كانوا يحملون لقب حداد ، وكلهم من قرى مختلفة وديانات مختلفة . والظاهر ان هذا اللقب ليس لقبا عائليا بل كان يطلق على الشخص الذي يمتن هذه

١٩١ - المصدر نفسه .

B. Poujoulat, la verité sur la Syrie..., pp. 373-374.

المهنة ، هو او احد اجداده القريين . وكانوا كلهم على الأرجح يمثلون الفئة الريفية العليا من مسيحيي المناطق المختلطة . وقد بقي مقدار الضرائب على حاله السابق - اي ما يعادل ثلاثة الاف وخمسة كيس، يعود ألفومثا كيس منها فقط للخزينة ويوزع الباقي كرواتب للقائمقام واعضاء المجالس والوكلاء الخ... . وقد اعلن مبدا دفع الضرائب بشكل متساو بالنسبة لجميع السكان. ووضعت مدينة دير القمر تحت امرة موظف تركي لديه وكيلان . ان التنظيم الجديد قد حد من سلطة المقاطعية واطعف بهذا مؤقتا التناقضات الطبقية في هذه المنطقة من لبنان .

الفصل الرابع

الحركة الفلاحية في لبنان الشمالي
خلال السنوات الخمسين
من القرن التاسع عشر

- * تاريخ دراسة العصيان
في كسروان
- * قبيل العصيان
- * العصيان الكسرواني
- * تنظيم السلطة وتدابير
المتطرفين الاجتماعيّة

الحركة الفلاحية في لبنان الشمالي خلال السنوات الخمسين من القرن التاسع عشر

بعد حوادث عام ١٨٤٥ أصيبت الحركة الفلاحية بالركود . ثم
ابتدأت موجتها بالارتفاع من جديد منذ النصف الثاني من
الخمسينات .

وقد اتصفت الفترة الفاصلة بين موجتي الحركة الشعبية
بتطور البلاد تطورا سريعا في المجالين الاجتماعي والاقتصادي .
ويكفي أن نذكر أن سكان بيروت قد ازدادوا بين السنوات الأربعين
والسنوات الستين حتى الأربعين ألف شخص بينما كان عددهم
يتراوح بين العشرة الاف والاثنى عشر الفا . وازداد انتاج الحرير
بمرة ونصف المرة . فاذا كان قد بني في عام ١٨٤٥ أول مصنع
لغزل الحرير في قرية بتاثر (١) . فقد أصبح عدد مثل هذه المصانع
في عام ١٨٦٠ خمسة أو ستة (٢) . وفي السنوات الخمسين
أفتتح أول بنك في بيروت (براسمال انكليزي) وبني اصحاب

١ - D. Chevallier, Aux origines des troubles agraires Libanais
en 1858, p. 52.

٢ - د. د. بيتكوفتش لبنان واللبنانيون صفحة ١٦٩ .

الاعمال المحليون الفنادق الاولى في المدينة (٣) . وبدأت الشركة الفرنسية في عام ١٨٥٨ ببناء اول خط للمواصلات في سوريا بين دمشق وبيروت (٤) . وخلال هذه الاعوام افتتحت الشركات البحرية الاوروبية خطوطا منتظمة على طول ساحل لبنان . ان كل هذا يدل على تطور العلاقات البورجوازية وعلى ادخال لبنان بالتدريج في نطاق السوق الدولية . وقد صوحت تطور العلاقات الرأسمالية بنمو الفئات البورجوازية وبتباين الفلاحين وانهيارهم اقتصاديا . وليس من قبيل الصدفة ان تكون السنوات الخمسين هي تاريخ بدء هجرة الفلاحين من لبنان التي كان نطاقها يتسع بسرعة . ففي عام ١٨٥٨ هاجر من خمس قرى مارونية فقط خمسة الاف انسان (٥) .

وسرعان ما ظهرت نتائج ادخال البلاد في السوق الدولية ، ففي اعوام حرب القرم وعندما تعاضم الطلب على بضائع سوريا في الغرب ، ازداد تصدير المواد الزراعية الخام والقمح الى اوروبا من سوريا ولبنان ، مما اثر تأثيرا حسنا على حالة الفلاحين الاقتصادية .

ولكن ما ان انتهت الحرب حتى حلت فترة من الانحطاط الاقتصادي في البلاد نتيجة الازمة التجارية العالمية . وانخفضت اسعار المواد الزراعية الخام انخفاضاً شديداً : اذ انقطع الطلب عن المنتجات السورية واللبنانية في السوق الخارجية . وفي عام ١٨٥٨ كان المحصول من الحبوب سيئاً وقد حلت في شتاء عامي ١٨٥٧ - ١٨٥٨ كوارث طبيعية في البلاد الحقت اضرارا كبيرة في دمشق وسوريا الوسطى . ان كل هذه العوامل قد زادت في التضيق على السوق الداخلية . ولم تكن بضائع الانتاج المحلي وحتى الخارجي لتجد سوقا لتصريفها وقد تضاعفت حوادث الافلاس وسط البورجوازية التجارية ، وازدادت الجماهير فقرا واستياء من وضعها .

وفي الاربعينات والخمسينات دب النشاط في حياة لبنان

J. Farley, Two years in Syria, pp. 36, 54.

- ٣

٤ - نشرت جريدة « حديقة الاخبار » البيروتية ان مشروع بناء هذا الخط

هو من وضع التاجر البيروني م. مدور :

(« Journal Asiatique », t. XII, 1858, p. 321).

M. Jouplain, la question du Liban, p. 368.

- ٥

١٧٨

الاجتماعية والثقافية ، وظهر اثر هذا في بيروت بصورة خاصة ، فتحوّلت المدينة الى مركز اقتصادي واجتماعي وثقافي للبلاد وصوحت نمو السكان فيها بتطور الفئة البورجوازية (اصحاب الشركات التجارية والتجار والعملاء التجاريون) وتطور المثقفين (من اساتذة وموظفين كتبة وصحفيين وادباء) .

وفي شتاء عام ١٨٤٧ ظهرت في بيروت اول منظمة ثقافية - تنويرية في سوريا - وهي « الجمعية السورية لدراسة العلوم والفنون » التي اصدرت في عام ١٨٥٢ كتابا بعنوان « اعمال الجمعية السورية » . وكان لهذا الاتحاد مراسلوه في دمشق وطرابلس وصيدا وحيفا ، ثم بعد عشرة اعوام انحلت هذه الجمعية ليظهر عوضا عنها « الجمع العلمي السوري » الذي لم يحصل في البدء على اعتراف رسمي به بسبب الخلافات مع السلطات التركية . ومن الامور التي لها دلالتها نوعية الاشخاص الذين تتألف منهم هذه المنظمات . فقد كانت بنية المنظمة تعكس كالمراة تغيرات الوضع الاجتماعي في سوريا ولبنان .

ومن الاشخاص الذين لعبوا دوراً ملحوظاً في هاتين المنظميتين: بطرس البستاني ، وهو مرب وكاتب اجتماعي منور ويعود بنسبه الى اسرة اقطاعية - اكليروسية ، وناصيف اليازجي وهو شاعر ومرب وكاتب اجتماعي ويعود بنسبه الى وسط يعيش في كنف القصر . وقد قضى هو نفسه سني شبابه في بلاط الامير بشير الثاني . ثم هناك الطبيب والكاتب الاجتماعي ميخائيل مشاقة وهو سليل اسرة من التجار ، وابراهيم طراد وهو ابن اسرة تزاوّل التجارة . الخ .

وقد كانت هاتان المنظمتان تدعوان لتغيير شكل الحياة في المجتمع اللبناني عن طريق نشر الثقافة . وكانتا تهتمان بتبسيط المعارف العلمية الطبيعية لنشرها بين الناس وبمعالجة قضايا التربية والتعليم . وكانت المواضيع الاجتماعية السياسية لا تزال ضعيفة الاثر في نشاطهم ومع هذا فقد ورد في خطاب بطرس البستاني الذي يدافع فيه عن تعليم المرأة تعبير : المساواة بين الناس ، وبالرغم من ان هذا المفهوم لم يكن واضحاً تماماً لدى قائله فان هذا يدل على ان المجال الايديولوجي كان يشهد تكون المقدمات اللازمة لولادة وجهة النظر البورجوازية .

وفي الاول من كانون الثاني عام ١٨٥٨ صدرت في بيروت اول

صحيفة اجتماعية سياسية بعنوان « حديقة الاخبار » وكان محررها هو الشاعر خليل الخوري ، المستخدم في إحدى الشركات التجارية ، وممولها التاجر البيروتي ميخائيل مدور . وقد وضعت الجريدة هدفا لها « نشر المعارف والاخبار من شتى الابواب والمساعدة على تقدم التعليم » (٦) .

وكانت تحتوي على قسم سياسي واخر تجاري وثالث اقتصادي ، وكانت تولي القسط الاكبر من اهتمامها للمسائل الاقتصادية ، فتتحدث عن تطور التجارة ومشاريع ري الارض وتعبيد الطرقات وما شابه ذلك .

وفي عام ١٨٥٨ صدر في بيروت كتاب يتضمن تاريخا للحوادث في لبنان وهو « كتاب اخبار الاعيان في جبل لبنان » لمؤلفه طنوس الشدياق الذي كان مرتبطا ايضا بالنورين السوريين . ان كل هذا يدل على ظهور أشكال جديدة من الحياة الاجتماعية في لبنان ، الامر الذي كان لا بد ان ينعكس على الوضع السياسي داخل البلاد وان يقوي لدى فئات الشعب مشاعر مناهضة الاقطاعية والاتراك .

ان الخط الهمايوني الذي اعلن عام ١٨٥٦ المساواة بين اتباع الامبراطورية العثمانية قد بعث الامل لدى الشعب بالغاء التبعية الاقطاعية ، وابطال امتيازات الفئات الاقطاعية بالنسبة لتوزيع الضرائب (٧) . ولكن هذه الاوهام اخذت تتبدد في نهاية الخمسينات مما زاد من الاستياء العام بين السكان ، وتعمد الوضع نتيجة للارزمة الاقتصادية وبدأت نار الاضطرابات تشب هنا وهناك في مختلف مناطق سوريا ولبنان . واثارت الضريبة الجديدة التي فرضت على المسيحيين عام ١٨٥٩ وهي : « دفع بدل عن الخدمة العسكرية » اضطرابات في سوريا . فرفضت الفئات المسيحية الفقيرة في دمشق دفع الضريبة الجديدة معلنة انها على استعداد لتقديم عساكر ولكنها لا تملك نقودا لتقدمها . وحشدت الحكومة التركية جيوشها في دمشق وقامت بالعديد من الاعتقالات وخصوصا في حي اليدان حيث تسكن الفئات الفقيرة . وهب الفلاحون في اللاذقية ضد حكاهم الاقطاعيين . وابتدأت الاضطرابات ضد الاتراك في نابلس ،

« Journal Asiatique », t. XII, 1858, p. 312.

٦ - لقد استند الفلاحون على الخط الهمايوني في شكاواهم على اضطهاد الاقطاعيين لهم في عام ١٨٥٩ كذلك .

كما انتشر الهياج بين فلاحي القرى المحيطة بدمشق (٨) . وادی استفحال الاستياء بين الفلاحين في لبنان الى نشوب العصيان في كسروان وهو أهم عصيان في تاريخ الحركة الفلاحية في البلاد .

تاريخ دراسة العصيان في كسروان

ان أول واضعي الدراسات حول العصيان في كسروان هم معاصرو هذا الحدث ، ومشاهدوه عيانا من اللبنانيين مثل انطون زاهر العقيلي (٩) ، ومنصور الحاتوني (١٠) . ومن الاجانب مثل الكولونيل الانكليزي تش . تشرشل المقيم في لبنان آنذاك (١١) ، والمؤرخ والكاتب الاجتماعي الفرنسي باتيست بوجولا الذي زار لبنان في خريف ١٨٦٠ (آتيح له ان يشهد شعلة العصيان المنطفئة في كسروان وان يقابل زعيمه طانيوس شاهين) . وقد كتب هؤلاء الاربعة من مشاهدي نضال الفلاحين عن هذا العصيان على اساس ملاحظاتهم واحاديثهم مع المشتركين في الحوادث .

كما ان هناك بعض المصادر التي تشبه اعمال هؤلاء الاربعة من حيث الطابع الاخباري كالكتاب الذي صدر في باريس عام ١٩٠٣ بريشة احد موظفي القنصلية الروسية العامة في بيروت خلال السنوات الخمسين (١٣) . وكرايس المؤرخ والكاتب الاجتماعي فرنسوا لينورمان (١٤) الذي طاف لبنان في خريف عام ١٨٦٠ ، ورسائل ضابط الاسطول الفرنسي الادميرال باربيه دي

٨ - اسرخ « السفارة في القسطنطينية » .

٩ - راجع « كتاب ثورة وفتنة ... » ترجم الى الانكليزية بعنوان : Lebanon in the last years of feudalism, 1840-1868.

١٠ - منصور الحاتوني نبذة تاريخية ...

١١ - Ch. Churchill, The Druzes...

١٢ - B. Poujoulat, la vérité sur la Syrie...

١٣ - « Souvenirs de Syrie (Expédition française de 1860) par un témoin oculaire », Paris, 1903.

١٤ - F. Lenorman, Les derniers événements du Syrie, Paris, 1860; F. Lenorman, Histoire des massacres de Syrie en 1860.

تينان الذي زار الشواطئ السورية في عام ١٨٦١ (١٥) .

وفي الوقت الذي صدرت فيه أعمال تش . تشرشل وب . بوجولا ، صدرت كذلك دراسات حول هذا الموضوع بقلم ريشاردوارد (١٦) . الذي كان يحوز على مواد وثائقية بهذا الصدد، وهي أوراق محاكمة « المسؤولين » عن صدامات الدروز والموارنة في لبنان وعن أعمال التنكيل بالمسيحيين في دمشق عام ١٨٦٠ ، كما صدرت في الفترة نفسها كذلك مراسلات للقنصلية الفرنسية تمس هذا الموضوع .

هذه هي الاعمال الرئيسية التي تتحدث بهذا القدر او ذاك عن العصيان الكسرواني والتي كتبها اصحابها وهم تحت تأثير الحوادث مباشرة .

يتميز طابع العصيان الكسرواني عن طابع حوادث عام ١٨٤١ وعام ١٨٤٥ التي لا يزال من الصعب تحديد مغزاها الاجتماعي حتى الان ، بوضوحه للجميع . فهو حركة عفوية فلاحية قام بها الفلاحون في لبنان ضد اقطاعيهم كتلك الحركة التي اطلق عليها في فرنسا اسم *Jacquerie*

بيد ان معاصري الحوادث يختلفون في تحديد اسباب هذا العصيان وفي تقييم مواقف مختلف الكتل السياسية والاجتماعية من التمردين وفي مجال الكشف عن الصلات التي تربط هذا العصيان بالصدامات بين الدروز والموارنة في عام ١٨٦٠ .

وقلما نصادف في كتب التاريخ اللبنانية والاوروبية ربطا مباشرا للاحداث بالوضع الاجتماعي وبالنظرات السياسية لدى مؤرخي الاخبار وعلماء التاريخ والكتاب الاجتماعيين كالربط الذي نجده في الدراسات المكرسة للعصيان الكسرواني والصدامات بين الدروز والموارنة في عام ١٨٦٠ . ولهذا فان مؤرخ الاخبار وجامع الرسائل انطون ضاهر العقيلي المتأثر بالافكار الدينية الجامدة والذي كان يعلل الكثير من الحوادث بدسائس الشيطان وبقيمها من وجهة نظر الصراع الازلي بين الخير والشر كانت حلوله للمسائل المختلف

١٥ - نشرت الرسائل في كتاب :

P. Rochemonteix, Le Liban et l'expédition française en Syrie (1860-1861), Paris, 1921.

R. Edwards, La Syrie 1840-1862.

عليها في العصيان الكسرواني اقرب الى الواقع من خلول المؤرخ الفرنسي ب . بوجولا الذي تشكلت نظراته تحت تأثير تقاليد المدرسة التاريخية التي يتزعمها او . تيريه وف . غيزو .

وكان انطون ضاهر العقيلي ينتسب لعائلة شارك افرادها في العصيان الى جانب الجناح اليميني . ويتألف هذا الجناح من اكابر الريف الذين وقفوا ضد عدم المساواة الاجتماعية في القرية اللبنانية ولكنهم لم يشاطروا الفلاحين المحرومين من الاراضي طموحهم للاستيلاء على ممتلكات الاقطاعيين . وقد استطاع انطون العقيلي بفضل وضعه الاجتماعي ان يقيم اسباب العصيان تقييما صحيحا ، بدون ان يستعمل في التعبير عنها الاصطلاحات السياسية التي كان يستعملها زملاؤه المؤرخون الاوروبيون . وكان العقيلي يرى ان اسباب العصيان تعود لعدم المساواة الاجتماعية في حياة البلاد (« اقل واحد من بين الخازن كان يهين اكبر واحد من الاهالي ») ، وعدم ضمان حفظ ممتلكات الفلاح وامنه الشخصي (« الفلاح وما بيده لهم » اي الاقطاعيين) . وسوء استعمال مشايخ آل خازن للسلطة . ولم يكن العقيلي يميل لتحويل دور رجال الدين والسلطات التركية في تطور العصيان . وكان يرى بوضوح مدهش بالنسبة لزمناه صلة العصيان بالصدامات الدروزية المارونية لعام ١٨٦٠ . وقد كتب يقول : « ولم يزل البغض يتزايد بين المشايخ والاهالي الى ان وقعت الخلفة بين النصاري والدروز في ناحية الشوف وكان ذلك في ابتداء سنة ٦٠ وسبب وقوعها هو ان البعض من اهل تلك الناحية راموا رفع المقاطعة مثل الامراء بيت ابي اللمع وخلاف مشايخ من دروز ونصاري ... فمشايخ الدروز علموا بهذا الخبر فأخذوا يضطهدون الاهالي ويوقعوا بين الطائفتين » (١٧) .

اما القسيس منصور الحاتوني فيحدد اسباب العصيان بشكل مغاير . ومن المعروف ان الحاتوني كان موجوداً في مكان العصيان وقد حاول ان يصلح ما بين الفلاحين والاقطاعيين . وكان من الواضح انه يقف بعواطفه السياسية الى جانب كبار رجال الدين الموارنة ويميل للدفاع عن مشايخ آل الخازن . وهو يرى ان اسباب نشوب العصيان هي نتيجة لدسائس القائم مقام المسيحي بشير احمد الذي رفض آل الخازن ابداء الطاعة له فقرر ان يعاقب مشايخهم

بتحريض الشعب على القيام ضدهم . ولا يذكر الحاتوني اي صلة اخرى بين الاحداث ، بيد أنه لا ينفي ان دعوة عملاء القائمقام قد صادفت طموحا طبيعيا الى الحرية في نفوس السكان . وعلى هذا يمكن الافتراض بأن الحاتوني كان يجيز وجود مقدمات من شأنها أن تتيح لعملاء بشير احمد اثارا الشعب للقيام بالعصيان وهذه المقدمات في نظره هي طموح الفلاحين لتجريد كافة افراد اسرة الخازن من السلطة وذلك لصالح واحد منهم ، عادل ومحبه للخير . (ونذكر بالمناسبة ان هذا البند من مطالب الفلاحين هو

الوحيد الذي حظي بتأييد كبار رجال الدين الموارنة) .

ان كتابي العقيقي والحائوني يعكسان الاراء التي كانت شائعة في المجتمع اللبناني آنذاك . وبلاستناد الى صدى هذه الاراء في اعمال المعاصرين من الاوروبيين نستدل على انها كانت معروفة خارج حدود جبل لبنان ومع ذلك فان معاني الحوادث الاوروبيين لا يرتقون الى درجة العمق التي يصل اليها العقيقي في تحليل هذه الحوادث ويعلل د . شيفاليه هذه الظاهرة بقوله : « انهم (عملاء الدول الاوروبية - المؤلفة) بحكم انفماسهم في غمرة الدسائس التي تحيكها حكوماتهم لتقسيم الرجل المريض لا يعترفون غالبا بالمغزى الخاص للحركة ، بل ينظرون اليها كمجرد نتيجة للمنافسة بين الدول الاوروبية والجهاز الاداري العثماني » (١٨) ان هذه الملاحظة لا تنطبق على الدبلوماسيين فقط وبل وعلى الاوروبيين الذين كتبوا في السنوات الستين عن الاحداث في لبنان .

وبالرغم من كل الاختلافات في مشاعر التعاطف والنفور السياسية لدى المعاصرين الاوروبيين فانهم يميلون جميعا لتأويل اسباب العصيان الكسرواني خارج نطاق التطور الاجتماعي في لبنان نفسه . وهكذا نجد ان ب . بوجولا مثلا يفتش عن « جذور الشر » في سياسة السلطات التركية وكأنها هي التي كانت تحرض الفلاحين على العصيان ، وفي دسائس القائمقام بشير احمد والعملاء الانكليز .

ويعمد ريشارد ادواردز في كتابه الذي يتميز عن كتاب ب « بوجولا » « الحقيقة عن سوريا » بعدائه للكليركية وبتعاطفه مع

الانكليز الى فضح رجال الدين الموارنة وكانهم هم الذين استفزوا العصيان ضد المشايخ بفرض الانفراد بالنفوذ بين السكان . (وللاحظ أن كلا من بوجولا وادوارد ، شأنهما شأن زملائهما الاوروبيين ، كانا يكتنان مشاعر العداوة للمتمردين) .

ويمكن ان نصادف مختلف الالوان من المزاعم المشابهة فسي بقية الاعمال التي كتبت تحت تأثير الحوادث مباشرة ، كما ان اكثرية الاعمال التي كتبت بعد ذلك وحتى ايامنا هذه تتصف بانها تقف من الحوادث موقفا غير نقدي شأنها في هذا شأن سابقتها .

وقد مر ما يناهز الخمسين عاما قبل ان يعاد النظر في اراء ب . بوجولا و ر . ادوارد . على يد بولس نجيم (جوبلان) (١٩) .

لقد كان بولس نجيم حائرا على ثقافة تاريخية اوروية وكان على ما يبدو ملما بالنظرات التاريخية البورجوازية التقدمية ، ومن الجائر انه قد تأثر ببعض الشيء بأعمال الاشتراكيين الفرنسيين . وقد اعطى نجيم موهبة تأويل المصادر بعمق وفطنة ، وبالرغم من ضيق دائرة مصادره (اذ أنه كان يستخدم اقوال معاصري الحوادث وما نشره اي . تيستا من الوثائق الدبلوماسية وربما كان يستخدم كذلك ارشيف القنصلية الفرنسية في بيروت) فقد تمكن من ان يستخلص منها اكبر قدر من المواد للبرهان على صحة ارائه . وقد نبذ نجيم بجرأة التصورات القديمة عن الحوادث وانشأ سلسلة من المفاهيم الخاصة به . ولكنه للأسف كان احيانا يتبنى كبديهيات بعض الاراء التي لا يمكن النظر اليها الا كفرضيات فقط . اما من ناحية عقيدته السياسية فقد كان قوميا وكان يكره الاتراك ولا يفوت أية فرصة لنقد سياستهم في سوريا . وهو كفالية القوميين البورجوازيين اللبنانيين في بداية القرن التاسع عشر من محبذي السياسة الفرنسية ، الامر الذي يجعله غير موضوعي في تقييمه لهذه السياسة .

ونظرة نجيم الى اسباب العصيان هي نظرة صحيحة في خطوطها العامة على الاقل ، اذ أنه يعتبره نتيجة حتمية لارتفاع سكان لبنان من النواحي الاقتصادية والسياسية والاجتماعية . ومما له اهميته كذلك تعليقه للأسباب التي جعلت النضال الفلاحي في الخمسينات يبدأ في المناطق المارونية الشمالية حيث كانت الرجعية الاقطاعية

تعرب دونما اي رادع ثم ينتقل فيما بعد الى لبنان المتوسط والجنوبي ، حيث كان نشاط الوكلاء يحد من تعسف الاقطاعيين . وبولس نجيم هو أول من لاحظ التدرج في تطور الحركة الفلاحية في لبنان . فقد كتب عن أن فلاحي كسروان نهضوا في البداية ضد سوء استعمال السادة للسلطة ومن ثم من اجل الفناء الامتيازات الاقطاعية وفي سبيل المساواة السياسية والاجتماعية واخيراً في سبيل توزيع الارض . لقد كان الفلاحون اللبنانيون لا يملكون الارض التي يعملون عليها ولهذا كانوا يتعطشون لوضع قانون زراعي شأنهم في هذا شأن الفلاحين الفرنسيين ابان الثورة الفرنسية . ولكن من الصعب ان نوافق مع بولس نجيم على تحليله لتوزيع القوى الطبقية في البلاد ابان العصيان ، كما انه من الصعب ان نوافق معه كذلك على تحديده لقادة العصيان . فهو يرى ان الحركة قامت في البداية برئاسة رجال الدين والبطرك ثم تزعمها بعد ذلك يوسف كرم وصفار السلالات الاقطاعية .

وقد كان من الواضح تماماً لدى بولس نجيم ان الصدمات التي وقعت بين الدروز والموارنة عام ١٨٦٠ لم تكن سوى الشكل الخارجي « لثورة الفلاحين » في جنوب لبنان (*) .

ان التحليل النظري لاحداث نهاية السنوات الخمسين في لبنان الذي وضعه بولس نجيم لم يكن مقبولا لدى معاصريه ، ولم يكن له من اثر في الابحاث التي وضعت في هذا المجال الا في عصرنا هذا اي بعد مضي خمسين عاما على وضعه . فنحن نجد ان عادل اسماعيل (٢٠) يقبل كافة اراء نجيم وان م. كير يشاطره اكثرها (٢١) ، مع انه قد اتيح خلال السنوات العشر الاخيرة اكتشاف ونشر مصادر جديدة لم تكن متاحة لبولس نجيم .

ففي عام ١٩٣٩ اصدرت المجلة التقدمية « الطليعة » كتاب الاخبار الذي ألفه انطون العقيقي ووثائق البطريركية المارونية التي تحتوي على الرسائل المتبادلة بين المتمردين والبطرك الماروني بعد ان اعددها يوسف يزبك للنشر . وهي وثائق على درجة من الاهمية يصعب تقديرها . وقد تابع يوسف يزبك في السنوات

الخمسين نشر مصادر القرن التاسع عشر واعاد نشر كتاب منصور الحاتوني . كما شرع د. شيفاليه بمعالجة ارشيف مشايخ عائلة الخازن المحفوظ في المتحف الوطني في بيروت (٢٢) . وهكذا تتشكل قاعدة جديدة للمراجعة بصدد دراسة العصيان الكسرواني .

آن د. شيفاليه هو اول من وضع تحليلا لبعض قضايا العصيان الكسرواني على مستوى العلم الحديث ، ولكنه اقتصر في تحليله هذا على دراسة الاسباب الاجتماعية والاقتصادية العامة وعلى الوضع الاقتصادي في لبنان قبيل العصيان والعلاقات المتبادلة بين المتمردين وكبار رجال الدين الموارنة (٢٣) .

ولم تجر حتى الان اية محاولة لكتابة تاريخ العصيان ودراسة العلاقات بين مختلف فئات المتمردين الاجتماعية ثم اخيرا الاعتماد على المصادر لتبيان مكان العصيان الكسرواني في الحركة الفلاحية في لبنان القرن التاسع عشر وصلته باحداث السنوات الاربعين وبالصددمات التي وقعت بين الدروز والموارنة في عام ١٩٦٠ .

قبيل العصيان

في عام ١٨٥٤ غادر المسرح السياسي في لبنان تباعا كل من الامير حيدر ، والقائمقام الماروني الذي توفي في ايار ويوسف الخازن والبطرك الماروني الذي توفي في تشرين الثاني . وظهرت وجوه جديدة ارتبطت اسمائها بالحوادث التي شهدتها البلاد بعد ذلك .

ان البطريرك الجديد بولس مسعد الذي اثار ترشيحه معركة ضارية في صيف عام ١٨٤٥ ، تم انتخابه الان دون اثاره خلافات . ذلك ان غالبية الاساقفة الموارنة في منتصف السنوات الخمسين لم تكن تنتسب للاستقراطية الاقطاعية . ولندكر بان بولس مسعد الذي تلقى ثقافته الدينية في روما ، والذي كان يتحدث بثمان لغات

٢٢ — D. Chevalier, Que possédait un cheikh maronite en 1859 ?
Un document de la famille al-Hazen, — « Arabica », t. VII, 1960, janvier.

D. Chevalier, Aux origines des troubles...

(*) والمقصود هنا بالطبع جنوب جبل لبنان (ملاحظة من المرب) .

Adel Ismail, Histoire du Liban.

Lebanon in the last years of feudalism (1840-1868).

كان يعود بأصله الى اسرة من الفلاحين (٢٤) . وكان اخوه بطرس قسيسا بسيطا . وقد كتب تش . تشرشل يقول ان البطريرك الماروني يتميز « بكرهه للاستقراطية الاقطاعية وتعصبه للعقائد الدينية الجامدة التي تدين بها طائفته » (٢٥) . وكانت الكتلة التي رشحته والتي يتمتع طوبيا عون بنفوذ كبير بين افرادها تشاطره موقف المعارضة ازاء الاستقراطية الاقطاعية . وكان رجال الدين يرمون الى التضييق على الاستقراطية الاقطاعية في المجال السياسي كما ضيقوا عليها في مجال ملكية الارض . ولكن بالرغم من كل ما كان يكنه البطريرك ورجاله المقربون من مشاعر العدا للارستقراطية الاقطاعية فان شعور التضامن الطبقي مع الفئات الاقطاعية لم يكن ليركههم ولو للحظة واحدة .

ولم يحتل القائمقام الجديد الامير بشير احمد ابو اللمع منصبه فوراً . فقد احتل مكان حيدر مؤقتا امير اخر من العائلة نفسها اسمه بشير عساف . وبعد اربعة اشهر اعطيت الافضلية لبشير احمد بسبب قربه من الامير السابق (اذ كان متزوجا من بنت الامير حيدر) ، وبفضل الرشاوى الضخمة التي قدمت لوالي صيدا (٢٦) ، وقبل كل شيء بفضل الدعم القوي له من جانب القنصل الفرنسي اي . ليسيبس . بينما كان القنصل الانكليزي مور على العكس يدعم الامير بشير عساف . وقد اثرت الخلافات الانكلو - فرنسية حول تعيين القائمقام على المعركة التي وقعت بعد ذلك بين الاميرين . ولم يكد بشير احمد يصل الى الحكم حتى بدا يطغي ويبغي ، وغير افراد ديوانه ، فعين فيه قضاة موالين له واخذ يحكم في الدعاوى الجنائية والمدنية حسب ما يرتئيه . وقد كان يسعى لاختضاع الارستقراطية الاقطاعية له . . ويصف انطون العقيقي ، وهو من خصوم المشايخ الخازنيين ، تدابير الامير بشير احمد بأنها « عادلة » لان الامير « حكم الحكومة عدل وردع الاقوياء عن الضعفاء » . والى جانب ذلك فقد كان بشير احمد يسيء في توزيع الضرائب ويضطهد فئات كاملة من السكان (٢٧) . حتى ظن الناس

B. Poujoulat, La vérité sur la Syrie..., p. 75.

٢٤ -

Ch. Churchill, The Druzes..., p. 122.

٢٥ -

٢٦ - « ثورة وفتنة ... » صفحة ٦٦ .

٢٧ يبدو ان الامير كان يضطهد السكان الكاثوليكين ارضاء لرجال الدين الموارنة وبهدف ارغام اولئك على الالتحاق بالكنيسة المارونية .

١٨٨

ان الامير بشير قام من القبر » (٢٨) حسب تعبير العقيقي . وبعد استلام الامير بشير للحكم بفترة قصيرة ساءت العلاقات بينه وبين الارستقراطية المارونية الى حد بعيد . واخذ العملاء الانكليز يدعمون المعارضة الاقطاعية التي يتزعمها بشير عساف (٢٩) . وفي صيف عام ١٨٥٧ رفع المشايخ الخازنيون شكوى على القائمقام فحولت الى استامبول وأصر السفير الانكليزي ستافورد ريدكلف على ملاحقتها عند اولي الامر للنظر فيها (٣٠) . ونشب اثناء ذلك صراع عنيف بين انصار بشير احمد وخصومه . وتعدد الوضع في لبنان نتيجة لاحتدام التناقضات الاجتماعية بعد حرب القرم .

وعزمت الارستقراطية الاقطاعية التي اعماها كرهاها للامير على الاستفادة من استياء الاهالي لتحقيق اهدافها ، فأخذت تشجع عقد الاجتماعات لكتابة العرائض والجهر بالاحتجاجات ضد اساءة القائمقام في توزيع الضرائب وجبايتها (٣١) .

وفي خريف عام ١٨٥٧ حضر الى صيدا واليها الجديد خورشيد باشا في صحبة بعض القطعات العسكرية . ويذكر القنصل الروسي موخين انه كانت لدى الوالي الجديد تعليمات بمراقبة حركة العرائض في لبنان . وقد كان موخين يفترض عن حق بأن السلطات التركية كانت لا تزال مهتمة كالسابق بتعقيد الوضع السياسي في لبنان لكي تكون لديها الذرائع المناسبة لالغاء الحكم الذاتي فسي البلاد (٣٢) .

ولهذا فقد دعا الوالي الجديد فور وصوله كافة المستائين لتقديم شكاواهم اليه . ولكنه طالب بايقاف الاجتماعات في البلاد . فانها لت جموع المشتكين الى بيروت (٣٣) مما اقلق الباشا وجعله

٢٨ - « ثورة وفتنة ... » صفحة ٥٤ .

٢٩ - اسرخ « السفارة في القسطنطينية » .

٣٠ - Ch. Churchill, The Druzes..., p. 124.

٣١ - اسرخ « السفارة في القسطنطينية » .

٣٢ - اسرخ « السفارة في القسطنطينية » .

٣٣ - كان عدد المشتكين يمكن ان يصل الى بضعة الوف . وعلى كل حال

فقد بلغ عدد المشتكين على القائمقام الذين قدموا الى بيروت في حزيران من عام ١٨٥٨ حين وصول التركي اتابي الى المدينة الفا وخمسمئة انسان . « السفارة في القسطنطينية » .

١٨٩

يصرخ بأن كل هذه الحركة « نتيجة لفتنة » وبأن يصدر أمرا إلى الجبلين بمغادرة المدينة وإبقاء وكلاء عنهم فقط .

أن الهيجان الذي انتشر في لبنان بقدم خورشيد باشا اضطر السلطات التركية إلى الإسراع لاتخاذ التدابير والقرارات بهذا الشأن . كما تدخل القناصل الأجانب في الأمر فاضطر الباشا تحت إلحاحهم أن يصدر أمرا في بداية كانون الأول يمنع بموجبه تقديم الشكاوى وفي الوقت نفسه أوصى القائم مقام بأن لا يقوم بأعمال من شأنها أن تزيد الاضطراب في البلاد .

وقد جاء عام ١٨٥٨ بتعقيدات جديدة ، ففي نهاية أيار حاصرت فرقة من الجبلين بقيادة الأرستقراطية الإقليمية قرية برمانا حيث يقيم القائم مقام . فهرب هذا إلى بيروت ، وانتقلت السلطة بأكملها إلى يد المقاطعية .

ولم يكن قدوم عطا - باشا من استامبول للنظر في الشكاوى ليغير من الأمر شيئا . فقد ظلت اجتماعات السكان مستمرة ، واتخذت في منطقتي المتن والقاطع طابعا جماهيريا وكان يمكن ، حسب رأي السلطات التركية « أن تبلبل النظام في الجبل وتقضي على طمأنينة السكان » (٣٤) .

ومع أن الأمير بشير أحمد قد عاد إلى قصره تحت حراسة تركية بعد شهر من هربه إلا أنه لم يعد يتمتع بالسلطة . ولم تؤد محاولات الأمير لتنفيذ أمر الباب العالي والشروع بجباية الضرائب إلا لنشر الاستياء من جديد بين الأهالي (٣٥) .

وقد أقلق الوضع في البلاد رجال الدين الموارنة . وكان البطريرك واثقا أن الأرستقراطية بتأريضها نار المعارضة ضد القائم مقام « كالباحث عن حتفه بظلفه » (٣٦) . فراح يحذر مشايخ الموارنة شخصا من مغبة هذا الأمر . وأخذ الأسقف طويا (بتحريض من الباشا والقنصل الفرنسي) يبذل جهوده لتسوية الأمور بسين القائم مقام والمشايخ المسيحيين (٣٧) . وكانت الأرستقراطية الدرزية قلقة أيضا مما آل إليه الوضع . وقد أوصى زعيم مشايخ تلحوق

دروز المتن في رسالة إليهم بعدم الاشتراك في الحركة وباطاعة السلطات وعدم المساهمة في الاجتماعات . كما توجه سعيد جنبلاط إلى مشايخ آل الخازن بمثل هذه الوصية وحذرهم من خطر هذه الأعمال على مقاطعية كافة الطوائف في لبنان وأصر على اتحاد الاقطاعيين في البلاد (٣٨) . أن حوادث عام ١٨٤١ و ١٨٤٥ قد جعلت الأرستقراطية الدرزية أكثر حذرا من ذي قبل .

أن قلق رجال الدين والاقطاعيين الدروز كان له ما يبرره . فحركة العرائض والصراع حول القائم مقام كانا بمثابة الشرارة التي فجرت التناقضات الاجتماعية ، ولم تكن أحداث زحلة وغزير إلا البوادر التي أنبأت بقرب وقوع هذا الانفجار .

فسكان زحلة ، الذين حصلت بينهم وبين أسيادهم الاقطاعيين من الأمراء اللمعيين مشادات قبل هذا ، امتنعوا الآن عن طاعة بشير أحمد أبي ألمع ، (ويبدو أن حركة العرائض ضد الأمير قد ساعدت على هذا) وانتخبوا من بينهم شيخ شباب وشكلوا مجلسا بلديا منتخبا من ستة أشخاص . وقد نشرت جريدة « تايمز » أن سكان زحلة قد نظموا « جمهورية ثيوقراطية » (٣٩) . وظل الأمير يفاوض سكان المدينة طوال ثلاثة أشهر « ولم أمكنه أن يلاشي هذا العمل » (٤٠) .

وامتنع سكان غزير ، وهي قرية لبنانية كبيرة ، عن طاعة أسيادهم من مشايخ حبيش ، وكتب العقيلي يقول أنهم « عملوا شيخ شباب نظير زحلة وكتبو حجج روابط فيما بينهم على هذا العمل (أي الوقوف ضد الاقطاعيين - المؤلف) ولما علموا به المشايخ صاروا يتهددوا الفلاحين على عملهم فحصل بينهم غوشة وراح جملة مجاريح » فتدخلت السلطات وألقت القبض على البعض من الطرفين وخمدت الحركة (٤١) .

وبعد حوادث زحلة وغزير نشب العصيان في كسروان .

٣٨ - المصدر نفسه .

٣٩ - « The Times », 22. VIII, 1860.

٤٠ - « ثورة وفتنة ... » الصفحة ٦٦ .

٤١ - ثورة وفتنة ... الصفحة ٦٦ .

٢٤ - اسرخ « السفارة في القسطنطينية » .

٢٥ - اسرخ « السفارة في القسطنطينية » .

٢٦ - منصور الحنوني ، نبذة تاريخية ... صفحة ٢٦٢ .

٢٧ - اسرخ « السفارة في القسطنطينية » .

العصيان الكسرواني

بدأ الهياج بين الفلاحين في كسروان منذ ربيع عام ١٨٥٨ عندما كانت حركة العرائض في بقية مناطق لبنان الشمالي في أوج نشاطها .

وكانت الفئات الاقطاعية تتصارع حول منصب القائمقامية من أجل اهدافها السياسية النفعية . وكانت جماعة من أسر آل الخازن (٤٢) تدعم بشر عساف ، وتدعم جماعة الاخرى الأمير بشير أحمد . وكانت كل جماعة منهم تريد ان تجر الفلاحين الى جانبها فعند الفريقان الى المناورة مع البعض (٤٣) وإلى استعمال العنف « والشم والضرب » مع البعض الآخر حتى أن الامر كان يصل الى القتل . ولم يتورع المشايخ عن نهب الفلاحين بشكل مباشر من أجل الحصول على الاموال اللازمة لمتابعة الصراع . وقد اشتكى فلاحو كسروان بعد انتهاء الحوادث في خريف عام ١٨٥٨ الى البطرك من ان الاقطاعيين المتنافسين قد حرموهم « الامن والراحة والسكينة » (٤٤) .

وقد تجلّى الهياج بين السكان في البداية على شكل نقاش بين الفلاحين « لتحديد موقفهم من هذا الامر » أي من الصراع الذي يجري بين المشايخ . وكتب العقيلي يقول : « فعند ذلك حصلت المخابرة فيما بين الاهالي عن ذلك بين البعض الذين ليس هم من الاعيان وذلك كل قرية من قرايا كسروان من دون علم من اهل القرية الاخرى لان العرب واقع في قلوب الرعايا (من بيت الخازن) . ان انطون ظاهر العقيلي قد استطاع ان يحدد الاسباب الاولى للعصيان الكسرواني وان يفهم نفسية الفلاحين اللبنانيين ويلاحظ النبضة الاولى التي استدعت انتشار الهياج بين الفلاحين . وقد اشار الى ان الفلاحين بدأوا يعبرون عن استيائهم « باللهج فيما بينهم عن أنهم صاروا كالعبيد بيد المقاطعية وما عاد لهم قول ولا

مشورة في شيء » (٤٥) وكان الاقطاعيون يجبرونهم على توقيع العرائض دون اخذ رأيهم في محتواها بينما جرت العادة في المجتمع اللبناني منذ اقل من مئة سنة على عقد اجتماعات عامة يتمتع الفلاحون فيها بحق التصويت (٤٦) .

وقد اخذ الفلاحون يستنكرون تصرفات المشايخ الذين يمتنون كرامتهم « وكانوا يتكلمون أن الفلاح وما بيده لهم (للمشايخ - المؤلفة ... وان اقل واحد من بيت الخازن كان يهين اكبر واحد من الاهالي » (٤٧) .

ان ب . بوجولا قد استطاع أن يسجل في كتابه محتوى تلك الاحاديث التي كانت تدور في قرى كسروان ، ومما ورد لديه « ان الفلاحين يتهمون المشايخ بانهم لا يظهرون دائماً بمظهر مثال العدل واللين في معاملتهم لهم . حتى أن نساء المشايخ كن يتخذن قرارات تمس شؤون الفلاحين ويبعثن احياناً بخدامهن الى اكواخهم . وقد اصبح من العادة تقديم الهدايا اليهن ايام العيد ، وتقبييل ايديهن بالضرورة كما هي الحال بالنسبة لازواجهن وذلك تمشياً مع ما ينبغي فعله لدى الامراء (الحاكمين) ورجال الدين . وكان على الفلاحين ان يقدموا جرة من القهوة في عرس احدى بنات الشيخ او ابنته . وكانوا يلومون حكام القرى لانهم يعفون انفسهم من الاتاوات المفروضة على الاشخاص ويلقون بأعبائها على كاهل الفلاحين مستخدمين في هذا سلطتهم الشخصية » وكان الفلاحون في نهاية المطاف يتهمون الاقطاعيين باختلاس جزء من الضرائب (٤٨) .

وفي ربيع عام ١٨٥٨ بدأ فلاحو بعض القرى يستبدلون الاقوال بالافعال فشكلوا منظمات سرية ، كان هدفها حتى ذلك الوقت الدفاع المشترك عن مصالح من تمثلهم .

وقد نشأت إحدى هذه المنظمات في قرية عجلتون . « واخذت الرعايا بالاجتماعات ليجدوا لهم طريقة يوقوا ذواتهم بها من هذه المظالم من دون معارضة الاحكام في شيء ، فحصل أولاً اجتماع في قرية عجلتون بين بعض الشبان وتحالفوا فيما بينهم بأنه لا احد

٤٥ - نفس المصدر - صفحة ٧٢ .

٤٦ - راجع الفصل الثاني .

٤٧ - ثورة وفتنة ... صفحة (٧٢) .

٤٨ - B. Poujoulat, La vérité sur la Syrie..., pp. 58, 59.

٤٢ - مشايخ آل الخازن كانوا مالكي منطقة كسروان الاقطاعيين .

٤٣ - وصل الامر الى ان عين المشايخ وكلاء في القرى في شهر اذار من عام

١٨٥٨ من أجل جمع التواقيع على العرائض له الح القائمقام أو ضده ، (منصور

الحوتوني ، نبذة تاريخية ... صفحة ٢٦٣) .

٤٤ - ثورة وفتنة ... صفحة ١٦٨ .

يخون الآخر وانه اذا احد المشايخ تعدى على واحد منهم يكون الجميع مسعفين له حتى الدم « (٤٩) .

وتشكل اتحاد مشابه في قرية كفرديان كان يضم في البدء ثلاثة عشر رجلا فقط . وسرعان ما تمت الصلة بين القريتين وأخذ اعضاء الاتحادين « يخبر بعضهم بعضا بخططهم السرية التي تهدف لحمايتهم من الاضطهاد فقط لا غير » .

وتم في كل من القريتين انتخاب وكلاء لقيادة عمليات الفلاحين . وقد لعب آثنان منهم وهما صالح جرجس صفي من عجلتون وحبيب الخوري العقيقي من كفرديان دورا ملحوظا اثناء العصيان فيما بعد .

وقد عاد مشايخ آل الخازن في الخريف فجددوا نشاطهم ضد القائمقام بدون ان يلحظوا ما يجري في اوساط الفلاحين . وشرع بعضهم يطالب الفلاحين بعقد الاجتماعات وتقديم العرائض لازاحة بشير احمد ، واخذ البعض الآخر يطالب بتقديم الشكاوى على بشير عساف . وقد اشار العقيقي في كتابه الى ان « هؤلاء المشايخ لم يعلموا ان نهاية الامر تعود على رؤوسهم » (٥٠) .

وقد اخذت الاجتماعات تأخذ طابعا معاديا للمشايخ على عكس ما كانوا يتوقعونه منها . وينبغي الافتراض ان الاجتماعات التي عقدت في قرية زوق مكابيل وربما كذلك اجتماعات ريفون وعشقوت والقليعات والتي بادر فيها الفلاحون الى انتخاب وكلاء عنهم قد جرت في هذه الفترة بالذات . وقد شددت هذه الاجتماعات من عزيمه اهالي عجلتون فشرعوا بمفاوضة آل خازن وتقديم مطالبهم لهم ، الامر الذي يعتبر شكلا صريحا من أشكال المعارضة .

وبعد انعقاد الاجتماع الريفي الذي وقف فيه اهالي عجلتون موقفا جريئا ضد المشايخ « طلبوا وجوه البلاد الى قرية عجلتون للتوصل الى اتفاق بينهم وبين الشعب » . وجرى المفاوضات في ايلول من عام ١٨٥٨ ، وحضرها بعض القساوسة كوسطاء بين الطرفين .

ولم يقف الفلاحون في المفاوضات موقف الواثق من نفسه ، بل اخذوا « يبررون » عزمهم على اجراء المفاوضات « بأنهم يرومون

المشايخ كما كانوا أولا وليس عندهم فكر مضر او تغيير » (٥١) . وقد اجاب المشايخ على اقوال الفلاحين بالتهديد والوعيد (٥٢) . وانتهت المفاوضات بدون اية نتيجة ولكنها جعلت الطرفين يأخذان اهبتهما للقتال .

ينبغي الافتراض انه في هذا الوقت بالذات تم العهد الذي أقسم بموجبه فلاحو عجلتون ومزرعة كفرديان وريفون والقليعات وعشقوت وداريا وبقعاتا وبلونه وجعيتا وغزير على توحيد اعمالهم والعمل كيد واحدة . وقد اخبروا البطرك الماروني بولس مسعد بأمر هذا العهد (٥٣) ووجهوا اليه رسالة ذكروا فيها ان الخلاف الذي دب في أسرة آل الخازن (حول القائمقامية) قد « اعدمهم الامن والراحة والسكينة » واشتكوا من عسف الاقطاعيين الذي لا يطاق ولكنهم ذكروا كذلك انه (جبا يحفظ السلامة وملاحظة فخر اجدادهم (اجداد المشايخ - المؤلفة) الماضيين فقد حصل السكون منا اولاً بأن ذلك هو حادث وقتي ويعبر ويزول والان عند ملاحظتنا التامة والمذاكرة بذلك من عمومنا وجدنا ان ما مضى هو بالنسبة للحاضر والمستقبل يحسب كلا شيء فلاجل ذلك ما عاد يمكننا احتمال ما لا يحتمل » . ولهذا أرتأى اهالي القرى المذكورة ان من الضروري الاتحاد « لوقاية حياة كل منا » وحفظا لعرضنا واحوالنا » . وعزموا على النضال عند نزول الاضطهاد بأحدهم عن طريق تقديم العرائض الجماعية للسلطات . ان الوثيقة المذكورة هامة جداً من حيث تطور النفسية الاجتماعية لدى فلاحي كسروان .

فالفلاحون يعترفون ان انتساب الاقطاعيين الى « اسلاف اشراف » آية في العدالة والرحمة ، امر يعطي المشايخ حق السلطة . وهذا ما جعل اهالي عجلتون يطلبون من اسيادهم ان يحذوا في حكمهم حذو المشايخ « الاوائل » . وقد كانت التهديدات التي عبر المشايخ بواسطتها عن عدم رغبتهم في الاقتداء بأسلافهم الاشراف عاملا على توسيع مدارك

٥١ - المصدر نفسه .

٥٢ - « واما المشايخ فبعضها منهم كانوا يتهدون الاهالي بالتهديد الكلي بلتهم يتردونهم من البلاد ويقتلوا منهم » المصدر نفسه .

٥٣ - راجع المصدر صفحة ١٦٧ - ١٦٩ .

٤٩ - ثورة وفتنة ... صفحة ٧٧ .

٥٠ - المصدر نفسه صفحة ٧٩ .

الفلاحين الذين أصبحوا الآن يدحضون التبرير التقليدي لحق الإقطاعيين في السلطة على أساس « أن ما مضى هو بالنسبة للحاضر والمستقبل يحسب لا شيء » « وما عاد يمكن احتمال ما لا يحتمل » في سبيل هذا الماضي .

ولكن ألتنكر للأفكار التقليدية لم يؤد في البداية إلى امتناع السكان عن الخضوع لسلطة الأسياد . وكما قال أهالي عجلتون (فانه) ليس عندهم فكر يضر بالمشايخ أو رغبة في التغيير ، ولكن هذا التنكر مهد التربة لتقبل أفكار المساواة الاجتماعية والسياسية وكان نقطة الانطلاق في توجيه وعي الفلاحين وجهة ثورية .

أن اتحاد القرى وعزمها على مقاومة تعسف الإقطاعيين قد أبهجا الفلاحين بهجة عظيمة . وقد ذكر العقيلي انه بعد انتهاء أحد اجتماعات الفلاحين في كفرديان « أخذ الأهالي بالحدى والفنسا وطلق البارود بعد أن كابدوا تهديدات كثيرات قبل ذلك » من المشايخ (٥٤) .

وهكذا فقد زال الخوف من قلوب الفلاحين وحلت محله الحماسة المتأنية عن العزم على بذل الجهود الجماعية ل إيقاف الاضطهاد والتعسف من جانب المشايخ . وكان هذا الاتحاد وحده كفيلا بأن يجعل الفلاحين يدركون مدى قواهم الخاصة .

هذه هي المشاعر التي كانت منتشرة في اوساط فلاحي كسروان في ايلول - تشرين الأول من عام ١٨٥٨ . وقد انضمت في هذا الوقت إلى الحركة قرى جونية وفيترون وميروبا . وباعتبار آخر فقد عم الهياج كل كسروان المتوسط والجنوبي أما قرى شمالي غربي كسروان فقد « بقيت مستكنة » خاضعة ولم تشارك في الاضطرابات (٥٥) .

وفي غضون هذه الشهور انتخب صالح جرجس صفيير وكيلا رئيسيا للقرى التي رفضت الطاعة . ومن المتعذر أن نحدد الوضع الاجتماعي الذي كان عليه هذا الشخص ، ولكن بما أن المشايخ (ولو عن خطأ) « كانوا يثقون به جداً » ويعتبرون « أنه من

٥٤ - المصدر نفسه صفحة ٧٩ - مما له دلالة ان مثل هذه البهجة قد انتشرت بين أهالي دير القمر في عام ١٨٤١ بعد استلام « رسالة » البطرك التي كان الشعب يعتبرها دعماً فكرياً لمقاومتهم سلطة المشايخ الأسياد .

٥٥ - المصدر نفسه صفحة ٨١ .

غرضهم » (٥٦) إذن يمكن الافتراض بأن صالح جرجس صفيير كان ينتسب للقسم الفني من سكان الريف . وقد رشع الياس نقولا المنير (١٨١٠ - ١٨١٣) لوكالة القرية اللبنانية الكبيرة زوق مكاييل . وكان هذا انسانا مشهورا بملكيتته لمناسج الحرير ولكنه بدأ حياته (٥٧) كصاحب مهنة ثم أخذ يسلف المبالغ الضخمة وكان القائمقام الماروني من مدينيه « الامر الذي يسمح لنا بأن نفترض ان المنير كان ينتسب لأعيان الزوق من التجار الصناعيين والمرايين . وفي عام ١٨٤٨ كانت قائمة اعضاء « الجمعية السورية لاكتساب العلوم والفنون » التنويرية تحتوي على اسم الياس منير (٥٨) . ومن الجدير بالملاحظة ان اصحاب الورشات في الزوق كانت تربطهم بتجار بيروت صلات وثيقة . وبالإضافة إلى هذا فان كنية منير « التي هي لقب مهني حر في كانت غير منتشرة في بيروت على الأرجح حيث لم تكن المهنة متطورة . أن كل هذا يجعلنا نقبل الرأي القائل بأن الياس منير وكيل الزوق هو نفسه عضو « الجمعية السورية » .

ومع اسم الياس منير وصالح صفيير جزئياً ارتبطت الدعوة لأفكار المساواة السياسية والاجتماعية بين فلاحي كسروان (٥٩) . وينقل لنا منصور الحاتوني كلمات الياس منير على الشكل التالي : أن الباب العالي يسعى بانصاف ورأفة لكي يرفرف الامن على رعاياه وهو لا يريد لنا أبدا أن نكون ارقاء كما هو شأن أهالي كسروان الذين استعبدتهم أسرة آل الخازن الكبيرة الععدد .

٥٦ - منصور الحاتوني ، نبذة تاريخية ... ، صفحة ٢٦٩ .

٥٧ - لقد اكتسب جد الياس منير الصوي الأهل لقب أسرته « المنير » من (النيار) التي كان يقوم بصنعها في الزوق (ثورة وفتنة صفحة ٨٠) .

٥٨ - أعمال الجمعية السورية ص ١٦٦ .

٥٩ - استند منصور الحاتوني إلى معلومات عن وجود صلات اقتصادية بين الياس منير وبشير أحمد ليؤكد ان وكيل الزوق الذي هو عمل للقائمقام كان المعرض السري على العصيان وقائده . وقد نبع هذا الرأي من نظرية الحاتوني الاساسية التي تعامل العصيان الكسرواني كنتيجة لفسائس القائمقام الماروني الذي كان يفتش عن السبل المناسبة لابعاد خصومه المخزنيين عن المسرح السياسي . ولكن هذه النظرية لا تصمد لأن في في ضوء اخبار انطون العقيلي ولا في ضوء وثائق العصيان . وبالتالي فاننا لا نملك أي حق في الافتراض ان دعوة الياس منير كانت نتيجة لفسائس القائمقام السياسية .

(يتضمن هذا القول تلميحاً الى الخط الهمايوني الذي اعلن في عام ١٨٥٦ المساواة بين الرعايا بغض النظر عن دينهم . ولكن بالرغم من المعنى الذي ضمنته التركية لهذا المرسوم فان الياس منير يفسره كاعلان للمساواة الاجتماعية لا الدينية اي المساواة التي لا يمكن معها استعباد بعض الناس لبعضهم الاخر) . وهكذا يستخلص الياس منير انه « علينا أن نطلب الاقالة من هذه ونتظاهر رفض تسلط عموم المشايخ عنا وان يكون لواحد منهم فقط تولي الاحكام وله وحده تكون السلطة والسيادة ويكون من الاشخاص **الزردانيين** بالذكاء والمعارف ومحبة الالفه والسلامة ، يميل طبعا للعدل والانصاف ، مبغضا للرشوة » (٦٠) .

ولنلاحظ أن صورة الحاكم العادل في ذهن اعيان الريف كانت أعقد مما هي عليه في أذهان جماهير الفلاحين . فهو يجب ان يتصف بالذكاء والثقافة والسعي الى حفظ أمن الاهالي والى محاربة الرشوة .

وهكذا ففي خريف عام ١٨٥٨ برز بين السكان الهائجين طلب سياسي محدد وهو : **انتخاب مأمور من المشايخ وحرمان كافة الباقين من السلطة** . ان هذا الطلب الصادر من اعيان الريف كان خطوة الى امام بالنسبة لرغبة فلاحى عجلتون التقليدية غير المحددة في ان يحذو والمشايخ حذو اسلافهم .

وفي تشرين الاول من عام ١٨٥٨ اجتمع في منزل صالح صفر وكلاء جميع القرى التي انتشر فيها الهياج . وصدر عن الاجتماع قرار يقضي بـ « نشر راية العصيان على اوامر المشايخ ورفع تسلطهم » (جميعا ما عدا المأمور ، كما يبدو) (٦١) . وكان هذا القرار انذاك لا يزال مقتصر على زعماء الفلاحين فقط .

وقد تسارع تطور الحوادث اللاحقة بسبب الطوارئ التالية التي وقعت في تشرين الثاني وبدء كانون الاول في قريتي الزوق وجونية .

فبينما كان الشيخ عباس الخازن يشتري حريرا في ساحة السوق في زوق مكاييل اهان احد سكان القرية (ويظهر أن هذا كان منافسه في العمليات التجارية) واطهر على ذاته السلطة

المعتادة (٦٢) فأخذ المعتدى عليه يدافع عن نفسه وآزره السكان واضطر الشيخ الى الهرب من القرية (٦٣) .

وقد وقعت حادثة مشابهة في جونية بين الشيخ يوسف وردان الخازن واحد اهالي زوق مكاييل وهو يوسف العجوي اثناء صفقة لشراء القمح . واهان الشيخ منافسه فعاد هذا الى الزوق واخذ يصرخ في سوقها بملء صوته : « ألا اسمعوا يا قوم أن الشيخ وردان قد شتمني وحاول ضربى لو لم أفر هاربا من امام وجهه وأوسعني اهانة وأسمعني كلاما لا يطاق احتماله » (٦٤) .

وكانت العلاقات بين المشايخ والشعب قد وصلت الى درجة كبيرة من التوتر بحيث تحول الخلاف الى صدام . وسرعان ما اندلعت فرقة من الزوق الى جونية وأدركت الشيخ فأجابت على اهائته واستعملت ضده القوة . ولم يستطع منصور الحانوتي الذي كان موجودا انذاك ان يخلص الشيخ من بين ايدي الجمهور الفاضب الا بعد جهد جهيد . وقد ذهبت سدى كل دعواته للصلح الموجهة لسكان الزوق « الذين عادوا وهم يصيحون بالتهديدات ضد المشايخ والتشكيكات من تعدياتهم (٦٥) » .

وبعد هاتين الحادثتين أسرع مشايخ آل الخازن للاجتماع في قرية غوسطا البعيدة عن الاضطرابات لتنظيم النضال ضد الفلاحين . وكان ذلك في اليومين التاسع والعاشر من عام ١٨٥٨ ومنذ تلك اللحظة اخذت الحوادث تتواتر بسرعة .

واخير المشايخ البطرك الماروني بما حدث آمليين أن يستعمل البطرك سلطته الدينية في صالحهم ولكن البطرك اقتصر على اجابتهم بأنه انعم بسبب ما حدث وأنه يخشى ان يؤدي الامر الى « تبليبل نظام الجبل » ودعا المشايخ الى التبر في مغزى هاتين الحادثتين واخبرهم بأنه سيحضر سريعا الى طرفهم للمفاوضة (٦٦) . ويبدو أن البطرك قد فوجئ بالامر ولم يحدد بعد خط العمل الذي سيتبعه . وبعد فترة قصيرة عزم البطرك على ان يلعب دور الوسيط

٦٢ - المصدر نفسه .

٦٣ - ثورة وفتنة ، صفحة ٧٩ ، ٨٠ .

٦٤ - منصور الحانوتي ، نبذة تاريخية ... صفحة ٢٧ .

٦٥ - المصدر نفسه صفحة ٢٧١ .

٦٦ - المصدر نفسه .

٦٠ - منصور الحانوتي - نبذة تاريخية ص ٢٦٨ .

٦١ - منصور الحانوتي صفحة ٢٧ .

السامي شكلياً لكي يصون سلطة الكنيسة ويحتفظ بنفوذه بين الفلاحين . ولهذا فقد امتنع عن مقابلة المشايخ ولكنه بذل كل جهوده لكي يصلح ما بين الطرفين داعياً الفلاحين للتنازل والقبول بحل وسط .

وكان أول قرار اتخذته الاقطاعيون لمجتمعهم في غوسطا هو نبذ الخلافات بينهم وتوحيد القوى والوسائل من أجل اخماد العصيانات الفلاحية . وفي الثالث عشر من كانون الثاني اقسام المشايخ على توحيد جهودهم واوكلوا مهمة الاشراف على العمل الى حصن وقعدان الخازن (٦٧) .

وقد اثار هذا الاجتماع مخاوف كبيرة لدى اهالي قرية زوق مكابل الواقعة بالقرب من هذا الوكر الذي تتمركز فيه الرجعية الاقطاعية . وكتب اهالي الزوق عن مخوفاتهم الى البطرك والقنصل الفرنسي بتاريخ العاشر من كانون الاول آمليين ان يتدخل هذان الاخيران للدفاع عنهم (٦٨) . واخذوا في الوقت نفسه يتأهبون لصد المشايخ بقوة السلاح وتوجهوا الى اهالي قرى كسروان لطلب العون منهم استناداً الى معاهدة الدفاع المشترك التي عقدتها القرى فيما بينها في ايلول عام ١٨٥٨ (٦٩) .

وكان اهالي زوق مكابل محقين في مخوفاتهم . فصاحب القرية ورئيس دير البشارة الراهب يوسف راجي الخازن لم يجرؤ على معاقبة الاهالي الذين هاجموا الشيخ في جونية ولكنه سافر الى غوسطا بطلب من اقاربه لكي ينضم الى الاقطاعيين الذين يتأهبون للهجوم على الزوق ، فتوجهت فرقة مسلحة من اهالي غوسطا الى الزوق ولكنه حال دون وقوع الصدام رسل من قرى شمال غربي لبنان (دلتا ، عرمون ، شبنم ، الجديدة) التي لم ينتشر الهياج فيها بعد والتي لم تكن تريد للوضع ان يتأزم (٧٠) .

وقد اثارت اعمال المشايخ العدائية ردة فعل قوية لدى سكان كسروان . وقرر فلاحو عجلتون وعشقوت والقليعات برئاسة الوكيل

٦٧ - راجع نص الاتفاقية المرسلة الى البطرك في كتاب « ثورة وفئة » ص

١٥٩ ، ١٦٠ .

٦٨ - المصدر نفسه الصفحتان ١٦٥ ، ١٦٦ .

٦٩ - منصور الحلتوني ، نبذة تاريخية .. ، صفحة ٢٧٢ .

٧٠ - المصدر نفسه الصفحة ٢٧١ .

٢٠٠

صالح جرجس صفي مهاجمة المشايخ الى جانب اهالي الزوق . فانحدر قسم من الفلاحين الى القرية المذكورة .

وفي تلك الاثناء وصل الى غوسطا رسولا البطرك : الاسقفان يوسف رزق ونقولا مراد المشهوران منذ حوادث الاعوام الاربعين التي مثلاً فيها خط لمعارضة السياسية داخل المجلس البطركي الماروني . وكان يوسف رزق الذي ترأس الفرقة الشعبية في لبنان الجنوبي عام ١٨٤٥ من انصار استغلال الحركات الشعبية في النضال السياسي . ويبدو انه كان من ذوي النفوذ بين جماهير الفلاحين الواسعة . « اما نقولا مراد فقد كان في عام ١٨٤٤ يدعم الارستقراطية في معارضتها للقائم مقام » وربما كان البطرك قد اعتمد على هذين الامرين بالذات عند اختياره لرسوليته الى منطقة الاضطرابات . وقد حاول الاسقفان ان يؤثرآ على المشايخ وشعب كسروان بقصد تسوية الامور بين الطرفين .

ولكن آل خازن لم يبدوا اي استعداد للتراجع وتوجه الاسقفان الى الزوق حيث اجريا في البداية مفاوضات مع اعيان القرية ، ثم خطبا أمام الشعب في كنيسة القديس مار جرجس فحذرا اهالي القرية من الجرائر السيئة التي سيؤدي اليها الصدام مع الاسياد ودعواهم الى الازعان وطاب الصفح من المشايخ . ولكن لا مركز رسل البطرك الديني وما مكان المفاوضات ، ولا حجج الاسقفين كانت بفاعلية على التأثير في مجرى الحوادث . ويذكر الحاتوني انه « كلما صار الاستعداد لخماد النار كان يزيد سعيها وأوارها » . فقد كانت مواعظ الاسقفين « تزيد الاهلين حماسة وصراخاً وتهيجاً » (٧١) ولكن هؤلاء اجلوا مهاجمة المشايخ الى موعد آخر .

واضطر البطرك بعد فشل رسوليته الى عقد المجلس البطركي الذي توصل الى رأي مشترك بضرورة بذل الجهود لانهاء الخلاف بسبل سلمية . وكانت كل الظواهر تدل على القلق الشديد الذي استولى على كبار رجال الدين . (وهذا يناقض بوضوح الزعم المنتشر في كتب التاريخ بأن رجال الدين كان لهم ضلع في التحريض على العصيان) .

وفي النصف الثاني من كانون الاول عقد في الزوق الديوان المنتخب من قبل الاهالي وصدرت عنه مطالب لا تتمتع بدعم القرى

٧١ - المصدر نفسه ص ٢٧٢ ، ٢٧٤ .

التي سادها الهياج فحسب ، بل وبمؤازرة فلاحي القرى التي كانت تظهر الطاعة للمشايخ (٧٢) .

وقد كانت « البنود المطلوبة التي من أجلها تحصل الراحة لنا (للفلاحين) ولجناب المشايخ تنحصر في التالي :

١ - يجب ان توزع الضرائب على الاراضي والارواح حسب اللائحة المرتبة من سعادة شكيب افندي ، ويجب على المشايخ ان يدفعوا ما يترتب عليهم دفعه بدون ان يلقوا بعثه على كاهل الشعب .

٢ - ان كل الرسوم الاستثنائية التي تجبى من قبل المشايخ تتناقض مع قرارات كلخانة والتنظيمات . وكل من يخرق هذه القرارات والتنظيمات يجب ان يعيد ما جباه .

٣ - الغاء هدايا الاعياد والاعراس والرسوم التي يفرضها المشايخ عند بيع اراضيهم (٧٣) .

٤ - اعطاء مركز المأمور الى شخص لائق يحكم بالعدل ويحمي

٧٢ - لقد وردت هذه المطالب في خطوطها العامة في ملحق الرسالة التي بعثها سكان الجديدة ، وشنغيم ودلبتا وعرمون وغوسطا وبطحا الى البطرک الماروني بتاريخ السابع عشر من كانون الاول عام ١٨٥٨ . « ثورة وفئة » ص ١٦٠ - ١٦٢ . ولهذه المطالب قصة .

فمن المعلوم ان القرى المذكورة آنفا ظلت حتى منتصف كانون اول عام ١٨٥٨ على الاقل « خاضعة » لاسيادها ، وبعد طرد المشايخ من كسروان بقيت فيها مقاومة قوية لقادة العصيان . وقد كتب سكان عرمون والجديدة في الثاني عشر من كانون الثاني عام ١٨٥٩ انهم لم يعطوا قادة العصيان اي وعد بانهم الى جانب الوكلاء (المصدر نفسه صفحة ١٧٠) وفي منتصف كانون اول عام ١٨٥٨ قدم الى هذه القرى سجعان العضيبي وكيل جيونيه وطالبهم باسم اهالي الزوق بالانضمام الى الحركة عندها اجتمع اهالي هذه القرى في دلبتا بتاريخ السادس عشر من كانون الاول و « غب الداولة مع الوكلاء قد اتفق رايبهم » ثم وجهوا رسالة الى البطرک يرجونه مساعدتهم في الحصول على « حقوقهم » . وقد جاء في الرسالة « انظروا حالتنا الضعيفة وانقذونا من يظلمنا .. » ليس بالحاضر بل تكون دائمة دوما (المصدر نفسه الصفحة ١٦٠) .

٧٣ - اعتاد اقطاعيو لبنان على الزام الفلاحين اثناء بيع اراضيهم لهم

بتقديم الهدايا السنوية لاصحاب الاراضي السابقين ، راجع :
D. Chevallier, Aux origines des troubles..., p. 56).

الشعب من المضايقات والمظالم . تقديم كل قرية لوكيل او وكيلين وذلك حسب عدد سكانها من اجل مساعدة المأمور .

٥ - نظرا لان الباب العالي قد منح المساواة العامة والحرية التامة فلا يجب ان يكون هناك تمييز عنصري او امتحان في المعاملة . وبما ان الاسس القديمة للرسوم قد تغيرت فان الضرائب الجديدة تفرض على الجميع . « نرجو ان تأخذ غبطتكم كل هذا بعين الاعتبار » .

وفي احدى شروط الاتفاقية التي عقدت مع المشايخ بعد ذلك بفترة من الزمن صيغ هذا البند بشكل اوضح فجاء كالتالي : « تكون منزلة المشايخ بمنزلتنا في كل شيء بدون استثناء البتة » (٧٤) .
٦ - يجب ان يخضع المأمور الى قرارات البطرک على اساس ان تتم سلطة المأمور على الجميع دون استثناء وفقا للتنظيمات . واذا ارتكب المشايخ اي جنحة ضد الشعب ، فيجب ان يحاكموا كما يحاكم افراد الشعب » .

وهكذا فان البرنامج الذي قدمه الكسروانيون كان يطالب بالاستقامة في تنفيذ خط كلخانة وبنود التنظيمات ، وقبل كل شيء بمراعاة المساواة في الحقوق بين جميع السكان والغاء الرسوم النابعة من تبعية الفلاحين للاقطاعيين وتنظيم شبكة الضرائب (٧٥) .

وكانت متطلبات البرنامج تضمن اعادة تنظيم الحكم في كسروان بحيث تحرم الفئة الاقطاعية من حقوقها وامتيازاتها الاقطاعية وتفسح المجال امام الاهالي للوصول الى الحكم . وكان تنفيذ هذه المطالب قليلا لا بتحسين وضع الفلاحين فقط وبـل وبالمساعدة على تطوير العلاقات البورجوازية .

وكان معاصرو الحوادث ، وحتى معادو المتمردين منهم كالشيخ عباس الخازن يدركون ان متطلبات الكسروانيين تستند الى اساس اجتماعي واسع وتستجيب لمصالح مختلف هيئات الشعب . وقد لاحظ انطون العقيقي ان مقدم الفلاحين طانيوس شاهين

٧٤ - ثورة وفئة ... صفحة ١٧٨ .

٧٥ - ولهذا فان الحركة لم تكن تتضمن من حيث الشكل اي شيء معاد للحكومة . وربما كان هذا هو السبب في ان الحكومة التركية والمبعثات الدبلوماسية الأوروبية لم تول في اول الامر كبير اهتمام للحوادث في كسروان معتبرة اياها جزءا من حركة المرائضي .

كان « يظهر لهم انه هو قدامهم ويقدم كل ما يلزمهم من اي وجه كان » (٧٦) . اما عباس الخازن فقد كتب للبترك أن ديوان الزوق « موجود فيه حكمة غريبة شيطانية لتشريب كل من في بيروت من الرفيع للوضع ما يناسبه من الغايات » (٧٧) .

وتتضمن هذه الملاحظة اشارة مبهمة الى علاقات ما بين الكسروانيين و « اعيان عاميي بيروت » . ومن المعروف أن الكسروانيين كانوا قد وجهوا عريضة الى باشا بيروت في النصف الثاني من كانون الاول . وربما كانت هذه هي الصلة الوحيدة مع « اعيان » المدينة . اما مسألة الصلات المتبادلة مع الشعب البسيط من مركز لبنان التجاري فقد كانت أكثر تعقيداً . ولدينا معلومات تذكر أنه في كانون الاول من عام ١٨٥٨ أي قبيل العصيان أعطى بعض « المواطنين المسالمين طانيوس شاهين نقودا لشراء الاسلحة (٧٨) . وبعد ذلك بفترة قصيرة ، أي اثناء العصيان مد المرابون والتجاريد العون المادي للكسروانيين . ويذكر المؤرخ والكتائب الاجتماعي الفرنسي ف . لينورمان أن بعض رجال المصارف الموارنة في بيروت ، الذين كانوا يتمتعون بصلاحيات مطلقة في تمثيل أبناء دينهم كانوا يحاولون أن ينقلوا الى القسم المسيحي من الجبال البنادق والبارود لكي يستطيع السكان الذين جردوا من سلاحهم تماماً تقريباً منذ حوادث ١٨٤٥ أن يدافعوا عن أنفسهم في حالة هجوم الدروز » (٧٩) .

وتعطينا هذه المعلومات الحق في الافتراض بأن الاوساط البورجوازية في بيروت كانت تعطف على الحركة في كسروان نظراً لان مصالحتها كانت كمصلحة الكسروانيين تتفق مع تحقيق الاصلاحات التي نادى بها الاتراك . وربما كان بقاء الاصلاحات على الورق وعدم تنفيذها هو السبب في الجدل الذي جرى في نهاية السنوات الخمسين بين الاوساط التنويرية والسلطات التركية ،

٧٦ — ثورة وفتنة ... صفحة ٨٣ .

٧٧ — المصدر نفسه صفحة ١٦٤ .

R. Edwards, La Syrie 1840-1862, p. 27.

— ٧٨

F. Lenormant, Histoire des massacres de Syrie en 1860., p. 7. — ٧٩

٢٠٤

هذا الجدل الذي لم يذكر عنه المعاصرون سوى معلومات ضئيلة (٨٠) . وهكذا فإن المطالب الموضوعية في الزوق كانت تستجيب لمصالح الفئات الشعبية الواسعة وتلاقي الدعم من الجميع . ولكن تحديد السبل التي يمكن بواسطتها تحقيق هذه المطالب اثار في الديوان نقاشات تعكس المعركة السياسية الداخلية بين مختلف الكتل لا في الزوق فقط بل وفي جميع منطقة كسروان . وقد كتب الشيخ عباس الخازن للبترك عن هذه النقاشات فقال « فاعقلاء من الاهالي يشربون هذا الديوان ان الغاية هي لتهديب الولاية واصلاحها فقط لا انقراضها وانه ما لم تصل طبقة الهيجان لآخر درجة لا يصير الوصول الى التهديب ، والجهلة من الاهالي حاصل التشريب لكل منهم حسب غايته والمحركين من الاهالي حاصل لهم التشريب بأنهم حيث تورطوا وتشاهروا بالعداوة فما عاد خلاصهم بقا العايلة او ولايتها لانه اي وقت راق الحال لا بد من أن العايلة تلاشيهم » (٨١) .

وهكذا نرى أن الخلافات قد ظهرت في صفوف المشتركين بالحركة المعادية للاقطاعية وهي ما تزال في مرحلتها تلك . وتحدد داخل الحركة اتجاهان يمكن أن نطلق عليهما اصطلاحاً اسم الاتجاه الثوري والاتجاه الاصلاحى . وقد ادت هذه الخلافات فيما بعد الى انقسام مكشوف في صفوف مختلف الكتل من المتمردين مما حدد مصير العصيان .

فما هو الطابع الاجتماعي لهذه الكتل؟ ان اللبنايين المعاصرين يميزون

٨٠ — ذكر المستعرب الروسي ف. ف. غير غاس في تقريره بعد عودته من البعثة العلمية في الشرق العربي ان الامسيات الادبية التي عقدت عند بطرس البستاني وغيره من اعضاء الجمعية والتي عادة ما كان يلقي فيها مختلف الاشخاص خطبا بمدد تطور الثقافة في سوريا . . . قد توقفت نتيجة للشاحنات المختلفة مع باشا بيروت (اى . يو . كراتشكوفسكي . ف. ف. غير غاس « مذكرات هيئة المستشرقين » الجزء III ، ١٩٢٨ ، الصفحة ٧٣ وقد اضطر الجميع السوري القومي الذي شكل في عام ١٨٥٧ الى البقاء بشكل غير رسمي . وقد تغير اسم الجريدة البيروتية الاولى التي اراد مصدرها تسميتها بـ « المصبح المشر » الى حديقة الاخبار (فيليب الطرزي ، طريق الصحافة العربية ، ٥٦ ، ٥٧) . ويبدو ان السلطات التركية قد منعت الاسم الاول لانها وجدت فيه اشارة سياسية الى فجر الازدهار والنهضة في سوريا .

٨١ — « ثورة وفتنة ... » صفحة ١٦٤ .

في صفوف المتمردين بين عقلاء وجهلة ، واضعين في هذين المفهومين تقييمهم الطبقي لنشاط المتمردين . ومع كل ما تتصف به هذه التقييمات من اصطلاح فانها تعني فئات اجتماعية معينة .

وحسب اقوال الشيخ عباس فان العقلاء اناس ينحون منحى اصلاح الحكم في كسروان ولكنهم يقاومون توسع الهيجان حتى الدرجة القصوى اي تحوله الى عصيان .

وكان أكثر المواقف اعتدالا هو موقف « العقلاء » في قرية عرمون (شمالي غربي كسروان) . فقد استطاع هؤلاء ان يمنعوا « جهلة » قريتهم من طرد اسيادهم المشايخ الدحادحة (٨٢) . اما جماعة عقلاء الزوق فقد كانت اكثر جذرية وساهمت في العصيان ولكنها اختلفت فيما بعد مع قادة العصيان وابتعدت عن المعركة .

ان بعض الوثائق التي نشرها يوسف يزبك يعبر عن رأي « العقلاء » من آهالي شمالي غربي كسروان (٨٣) واطلعنا عليها يسمح لنا بتكوين صورة عن الوضع الاجتماعي لهذه الفئة من سكان القرية اللبنانية . فهي تتصف بالخوف من الهزات الاجتماعية (بدليل الشكاوى من ان مقدم « الجهلة » أي وكيل جنوبي كسروان « قد اعدمهم امنهم ») وان ممثلي المنطقة مستأؤون من عرقلة المتمردين للصلة الحرة مع جونية (المقصود على ما يظهر هو زيارة الميناء اللبناني للتجارة) وفي ايار من عام ١٨٥٩ كان هؤلاء مستعدين لمفاوضة طانيوس شاهين ودفع اتاوات مضاعفة له بشرط ان يخضع للبترك وان « ينشر السلام والامن على الجميع » (٨٤) . وكل هذا يدل على اننا بصدد فئة غنية من سكان الريف تزاوّل الربا والتجارة . وربما كانت هذه الفئة في الزوق تضم ايضا اصحاب الورشات المهنية .

اما « الجهلة » فهم في مفهوم عباس الخازن ومنصور الحلتوني تلك الفئات التي كانت مستعدة في كانون الاول ١٨٥٨ ان

٨٢ - منصور الحلتوني ، نبذة تاريخية ... ، صفحة ٢٧٦ .

٨٣ - مثل الرسالة الشهيرة التي كتبها سكان القرى الشمالية الغربية في السابع عشر من كانون الاول عام ١٨٥٨ والمطالب الملحقة بها ، والرسالة الى البترك من « شعب » عرمون والجديدة في الثاني عشر من كانون الثاني سنة ١٨٥٩ ورسالة قرى عرمون والجديدة وشنعير وغوسط ودلبتا في التاسع عشر من ايار عام ١٨٥٩ « ثورة وفتنة ... » ملحقات الوثائق (XIX, IX, III, II)

٨٤ - « ثورة وفتنة ... » ص ١٦٠ ، ١٧٠ ، ١٨١ ، ١٨٢ .

٢٠٦

تطرد المشايخ من البلاد وتلغي سلطة الاقطاعيين الاسياد . وفي خريف عام ١٨٥٩ وقفت هذه الفئة التي وزعت اثناء العصيان اراضي الشيوخ ضد الاتفاق مع المشايخ على اعادة اراضيهم لهم كما كان بنية « العقلاء » ان يفعلوا . وكانت هذه الفئة تضم الفلاحين الذين لا يملكون الارض واصحاب الاراضي الصغيرة والحرفيين الريفيين الفقراء وممثلي الاوساط الفنية الاكثر يسارية من زملائهم في عرمون . وكان تطور الحركة يجبر هؤلاء على الابتعاد عن فئة « الجهلة » .

وفي منتصف كانون الاول من عام ١٨٥٨ ترأس الحركة طانيوس شاهين الذي كتب عنه م . غيز في عام ١٨٥٩ « ان طانيوس شاهين ، الذي كان في الماضي مكاريا وبيطارا والذي كان يسمى نفسه روبن هود ، دكتاتور البروليتاريا الريفية شبه الامي والذي أعلن في عام ١٨٥٠ جمهورية فلاحية في كسروان يظل واحدا من أكثر شخصيات فترة القامقامية غموضا ولكنه بدون شك من أبرزها كذلك » (٨٥) . وكانت هذه السطور لا يمكن ان تنتهم بتعاطفه مع زعيم الجماهير الفلاحية .

ان جميع معاصري الحوادث تقريبا كانوا يعتبرون ان من واجبهم اعطاء صورة عن طانيوس شاهين ولكن هذه الصورة كانت دائما مسبقة ومعادية بصراحة ولا تسمح لنا بتكوين صورة حقيقية عن شخصية روبن هود اللبناني .

لقد ولد طانيوس شاهين في ريفون عام ١٨١٥ وتوفي « مغمورا في عام ١٨٩٥ » (٨٦) . عمل مكاريا وبيطارا واستطاع ان يوفر بعض المال (٨٧) وكان شاهين يتصف بارادة قوية وذهن حي وموهبة في التنظيم ولهذا فقد كان يتمتع بنفوذ كبير بين الاهالي وكانت خطته السياسية تتصف بصفة اثارته الكثير من الجدل والحيرة بين معاصريه ، وهي اللجوء الى اساليب من شأنها ان تحير وتبطل افكار المحيطين به اثناء المعركة السياسية : فلكي يجذب السكان الى جانبه مثلا كان تارة يكتب في رسائله بأن لديه وثيقة من سبع دول تعلن منح الحرية للمسيحيين ، ولا يستطيع أحد ان يحرمهم هذه

Lebanon in the last years..., p. 22.

- ٨٥

Ibid.

- ٨٦

B. Poujoulat, la vérité sur la Syrie, pp. 60-61.

- ٨٧

وعندما أصبح شاهين وكلا أخذ يفاض المشايخ . وقد وضع في أساس المفاوضات على ما يبدو المطالب المذكورة آنفا . (ولم يكن هناك من شيء جديد سوى الاقتراح بتسليم السلطة في كسروان لثلاثة مأمورين من المشايخ بدلا من تعيين مأمور واحد) (٩٦) . وقد ظهر هذا البند الأخير من المطالب بشكل مفاجئ بعض الشيء . ولكن بما أنه من المعلوم لدينا أن كبار رجال الدين الموارنة كانوا في عام ١٨٥٩ يصرون على تسليم السلطة للمأمورين ثلاثة فمن الممكن أن نفترض أن رجال الدين هؤلاء قد قدموا في كانون الأول من عام ١٨٥٨ هذا البند كحل وسط لتسوية الوضع بين الشعب والمشايخ . وقد قبل آل الخازن بهذا المطلب فقدم عندئذ طانيوس شاهين والوكلاء بندا أكثر جذرية : وهو انتخاب مأمور من قبل الشيوخ ومأمور مساعد له من قبل الشعب . فرفض الخازنيون هذا البند وأخذوا يتوجهون بشكاواهم إلى خورشيد باشا .

وفي أثناء المفاوضات دعا طانيوس شاهين والوكلاء الأهالي للنهوض ضد المشايخ دون أن ينتظروا قرارات السلطات التركية . وكلف شاهين مساعديه بشراء أسلحة وفخائر بالنقود المأخوذة من السكان « المسلمين » (٩٧) .

ويؤكد كل من منصور الحلتوني والشيخ عباس الخازن وأنطون العقيقي أن طانيوس شاهين عمد بقصد إثارة الشعب ضد المشايخ إلى اصطناع جو من الذعر بين السكان في ليلة الخامس والعشرين من كانون الأول (عيد الميلاد) مدعيا بأنه قد تعرض لهجوم المشايخ . ولم تكن كلمات طانيوس شاهين شيئا غير متوقعا : فمنذ فترة قريبة حرض المشايخ أهالي غوسطا للهجوم على قرية لزوق وفي الثامن عشر من كانون الأول أخبر سكان مزرعة كفرزبيان البطريرك بهجوم شيخين من آل الخازن في طرف قرية بقعوتا على شخص يدعى الياس الزوقتي وقد أوثقوه وحشروا في فمه مئذيلة وأخذوه صوب أدير (٩٨) . ويتعبير آخر فقد استمر المشايخ يطبقون العنف ضد السكان الذين لا يعجبونهم وكانوا بالتالي يمكن أن يهجموا على شاهين لتصفية حسابهم معه . وقد أثار نبا الهجوم على شاهين

الاضطراب بين الأهالي . وأخذت صيحات « حقيقة لقد أطلقوا المشايخ النار على طانيوس شاهين » تنتشر في الضواحي ، وقد اجتمع في ريفون تلك الليلة حوالي ألف أنسان (٩٩) . وبعد يومين حدث مثل هذا في عجلتون عندما شاع نبا الهجوم على صالح صفير . ويبدو أن الإصرار على الدعوة إلى السلم هو الذي منع وقوع المعركة مؤقتا (١٠٠) . وأجبر الفلاحين على التوجه إلى السلطات التركية بشكوى ضد المشايخ .

وبعد هذه الحوادث توجه وفد من الكسروانيين برئاسة طانيوس شاهين من الزوق إلى بيروت ، وكان في عداده بعض أعيان الزوق (١٠١) . وقد قابل خورشيد باشا الوفد كما كان يقابل مقدمي العرائض ، ولم يسمح بالدخول إليه سوى للوكيل العام وبعض وكلاء القرى (١٠٢) وقد قدم هؤلاء لوالي بيروت عرائض من كافة القرى فيها « تعداد لجميع القبائح » (١٠٣) . ووعد الباشا بالنظر في الشكاوى .

وأمر المشايخ بدورهم السلطات التركية بوابل من طلبات المساعدة . فأصدر الباشا أمرا بإرسال موظف بصحبة مئني جندي إلى الزوق من أجل تحري الحوادث في مكان وقوعها . فوصلت الفرقة إلى كسروان في الأيام الأولى من كانون الثاني عام ١٨٥٩ (١٠٤) وأثار هذا ، على ما يظهر ، اشاعات مفادها أن

٩٩ - منصور الحلتوني نبذة تاريخية ... ، صفحة ٢٧٤ .

١٠٠ - راجع الوثيقة السابعة عشرة بصدد اجتماع الثلاثين من كانون أول سنة ١٨٥٨ (في خميس الثلاثين من الشهر الماضي ..) « ثورة وفئة ... ص ١٧٩ ، ١٨٠ » .

١٠١ - المرجع نفسه صفحة ١٦٤ .

١٠٢ - منصور الحلتوني ، نبذة تاريخية ... صفحة ٢٧٥ .

١٠٣ - ثورة وفئة ... صفحة ١٦٤ .

١٠٤ - من المتعذر تأريخ الحوادث بدقة . وبخطى منصور الحلتوني عندهما يؤرخ وصول الجنود إلى الزوق بالسابع من كانون الثاني وطرده المشايخ بالتاسع عشر من كانون الثاني . بينما تدل الوثائق التي نشرها يزك أن المتمردين طالبوا البطريرك في الثالث من كانون الثاني بإبعاد المشايخ اللاجئين إليه من مقره وقد كتبت بتاريخ الثاني عشر والثامن عشر من كانون الثاني الرسائل الموجهة إلى البطريرك والدالة على أن السلطة كانت في يد المتمردين (ثورة وفئة ص ١٦٩ ، ١٧٠ ، ١٧٢) .

٩٦ - كان المقصود هو تعيين مأمور لكل إقليم - وحدة كسروان .

R. Edwards, La Syrie..., p. 127.

٩٨ - ثورة وفئة ... صفحة ١٦٦ ، ١٦٧ .

« المشايخ يريدون تخريب كسروان » وأدى إلى اجتماع شعبي
تقرر فيه طرد جميع آل الخازن نساء ورجالا من كسروان . وقد
هتف الناس لأول مرة في هذا الاجتماع « بأنهم سوف يملكون أرزاق
بيت الخازن » وكان « مقدم الجميع طانيوس شاهين » (١٠٥) كما
كتب أنطون العقيلي .

وقد رأى الفلاحون في مغادرة الموظف التركي وضابط الفرقة
وبعض الفرسان للزوق وتوجههم إلى غوسطا نية السلطات التركية
على الاتفاق مع المشايخ . وسرعان ما اجتمع حوالي ثمانمائة انسان
من قرى كسروان مسلحين من رأسهم حتى قدمهم « بقيادة شيخ
شباب جونية سجعان العضيبي » (١٠٦) . ويقول الحاتوني في
كتابه « انهم حضروا إلى غوسطا بالحداء والصراخ طالبين قيام
المشايخ من غوسطا ومن كامل قرايا كسروان » فلقبهم رسل خورشيد
بائسا « وأخذوا يسكنون ضجيجهم وينصحونهم ويتملقونهم ليرعوا
عن مقصدهم فازدادوا صياحا وهيجانا وهجموا على منازل المشايخ
وأطلقوا الرصاص عليهم ونزحوهم من أوطانهم مع كامل حريمهم
وأولادهم » (١٠٧) . أما أهالي غوسطا الذين كان مشايخ آل الخازن
يعتمدون على مؤازرتهم فقد ظلوا على الحياد بعد أن شاهدوا البلاد
كلها ناهضة ضد المشايخ . كما لم يجازف الاثراك أيضا بالتدخل
في المعركة الدائرة .

وبعد مهاجمة غوسطا طرد أهالي عجلتون وريفون ومزرعة
كفرنبيان والقرى الأخرى بقية المشايخ من قراهم . واستجار قسم
من الخازنيين برجال الدين واختبأوا في دير بكركي حيث يقيم البطريرك
الماروني وفي الدير الأرمني الكاثوليكي في بزمار . فحاصر المتمردون
الديرين ووجهوا في الثالث من كانون الثاني رسالة إلى بولس مسعد
يطالبون فيها بإبعاد المشايخ بسرعة وألا فأنهم سيهاجمون
الدير (١٠٨) . واضطر البطريرك الماروني للتخلي عن المشايخ وكذلك
فعل غريغوري الثامن رئيس الأرمن الكاثوليك فغادر المشايخ حدود

١٠٥ - المصدر نفسه ، صفحة ٨٤ .

١٠٦ - المصدر نفسه الصفحة ٨٥ . وهناك رواية أخرى تقول ان القائد

كان طانيوس شاهين .

١٠٧ - منصور الحاتوني ، نبذة تاريخية ...

١٠٨ - « ثورة وفتنة ... » ص ١٦٩ ، ١٧٠ .

منطقة كسروان المتمردة .

وتبغى الإشارة إلى أن الفلاحين اقتصرنا فقط على تهديد
المشايخ ولكنهم تجنبوا سفك الدماء . ولم تقع حوادث انتقام شعبية
سوى مرة واحدة في عجلتون، حيث كان المشايخ قد نكلوا بالسكان تنكيلا
فظيما ووحشيا (١٠٩) . فقد صوب طرد المشايخ من كسروان
بالاستيلاء على أراضيهم وممتلكاتهم .

هكذا وصف المعانين بدء العصيان . وتدلنا هذه الأوصاف
على هيجان الشعب إلى الحد الأقصى وعلى عفوية أعماله . ومع
ذلك فقد أخذت عناصر التنظيم تظهر منذ بدء العصيان ويذكر منصور
الحاتوني أنه بالرغم من أن بعض الفلاحين قام بنهب أحياء المشايخ
في عجلتون والقلبيات ومزرعة كفرنبيان وبلونة فقد أذعن المتمردون
لأوامر طانيوس شاهين وألقوا الحجز على أرزاقهم (أرزاق المشايخ
- المؤلف) (١١٠) .

وبعد طرد المشايخ في الثالث عشر أو الرابع عشر من كانون
الثاني أصدر طانيوس شاهين إيعازا بعقد اجتماع عام في ريفون
لوكلاء قرى كسروان (إذ أن مركز الحركة قد أصبح الآن في ريفون) .
وربما كان هذا هو الاجتماع الأول للممثلين الشعبيين (١١١) بعد
الغاء سلطة المشايخ . وتوجه الخيالة لدعوة الوكلاء من شمالي
غربي كسروان ولم يكن الأسباط قد طردوا من هناك ولكن الفلاحين
كانوا مهتاجين احتياجا شديدا .

وتوجه إلى المناطق المجاورة في الوقت نفسه دعاء « نشر
الحقيقة بين جميع الناس » المستعدين للانضمام إلى المتمردين .
ونظرا لقيام معارضة للعصيان في شمالي غربي كسروان ولتواتر
الأخبار من هناك « بأعمال تظهر من البعض ... ضد أعمال
المتمردين وخير الجمهور » (١١٢) فقد اصطحب الدعاء فرقة مهمتها
صد الأعمال العدوانية . ونفذ هؤلاء مهمتهم بنجاح إذ انضمت قرى
غوسطا ودلبتا وشنشعير وعرمون وعجلتون إلى التمرد .
ويمكننا أن نتابع تاريخ العصيان فيما بعد ذلك بخطوطه العامة

١٠٩ - المصدر نفسه صفحة ٧٢ .

١١٠ - منصور الحاتوني نبذة تاريخية ... ، صفحة ٢٧٦ .

١١١ - لم تصلنا للأسف قرارات هذا الاجتماع .

١١٢ - ثورة وفتنة .. صفحة ١٧٠ - ١٧١ .

فقط . فقد نظم الفلاحون المتمردون حكمهم بقيادة طانيوس شاهين فزرعوا أراضي المشايخ ومنعوا الشركاء من دفع الربيع لال الخازن فتوجه هؤلاء الى السلطات التركية للمطالبة باعادة حقوقهم لهم . وأخذوا يحيكون الدسائس سرا ضد المتمردين معتمدين على دعم كبار رجال الدين الموارنة المتعاطفين معهم . وأقام المشايخ في منطقة العصيان صلات مع الناس المخلصين لهم وأخذوا يزورون القرى سرا ويبذرون بين الاهالي بواسطة عملائهم بذور الهلع من نوايا السلطات التركية العدوانية مهئين بهذا تربة مناسبة لعودتهم الى كسروان (١١٣) .

وقد طرح بائنا بيروت على بساط المناقشة في المجلس مسألة العلاقات بين الفلاحين والمشايخ في كسروان و (مسألة القائمة) . وأسرع كبار رجال الدين الموارنة أثناء ذلك للتوسط في المفاوضات بين المشايخ والفلاحين لكي يملوا شروطهم على كلا الطرفين . وفي اذار من عام ١٨٥٩ دعا بولس مسعد قسما من الوكلاء واقترح عليهم تسوية العلاقات مع المشايخ على أساس الاعتراف بسلطة ثلاثة مأمورين منتخبين من قبل الخازنيين . فأجاب المتمردون متلهفين بأنهم ليس هم الذين يعينون ويصادقون على تعيين الموظفين في كسروان ولهذا فان هذه المسألة تنتظر حلها في بيروت ، وهم بالاضافة الى هذا يوكلون سلفا مهمة تمثيل مصالحهم للوكيل العام الذي يترتب على « غبطته » أن يتوجه اليه (١١٤) .

ولم يسفر توجه البطرك الى طانيوس شاهين عن النجاح . فقد رفض الوكيل العام الحضور « للثم مواطىء أقدام (البطرك) وبحث قضية المأمورين الثلاثة ما دامت هذه القضية تبحث في مجلس بيروت . وكان هذا الرفض الجريء يحمل توقيع طانيوس شاهين وثلاثين وكلا معه . (١١٥)

وارسل الفلاحون الى البطرك في الوقت نفسه مذكرة تحتوي على شروط تسوية العلاقات مع الخازنيين . والى جانب المطالب المعروفة سابقا كالمساواة والغاء التعسف كانت المذكرة تتضمن بندا يطالب المشايخ بدفع المصاريف التي انفقها الفلاحون

وكلأؤهم اثناء العصيان (١١٦) . ورفض المتمردون بحزم اقتراح البطرك مصريين على تنفيذ البند القائل « بأن المشايخ لا يكون منهم أحد مأمورا علينا » (١١٧) . وهكذا فقد كان برنامج الفلاحين الجديد اكثرت جذرية من المطالب التي قدموها في كانون الاول من عام ١٨٥٨ قبيل العصيان . ولكن البرنامج تجاهل قضية الارض ولم يحتو على مطالب خاصة بفقراء الريف .

وفي آيار وقعت الحيرة والارتباك بين المتفاوضين في المجلس وفي البطركية على حد سواء . وتشهد على هذا ، الرسالة التي بعثها شخص يدعى يعقوب البيطري الى البطرك يخبره فيها بأن الفلاحين لا يرغبون القبول بمأمور من صفوف المشايخ و « ان لهم حقوقا يريدون أخذها من دون واسطة احد » وقد عزموا على نوالها « بدون مسوغ شرعي » (١١٨) .

وقد اصبح وقوع الخلاف مع السلطات التركية امرا واضحا وقررت هذه الاخيرة اللجوء الى استعمال السلاح . وكان هذا فيما بين آيار وحزيران من عام ١٨٥٩ . ونظرا لان الفرق التركية الموجودة في جونية والزوق اضطرت بسبب ضعفها وانعدام الامل لديها الى الوقوف موقف المتفرج فقد وجه الباشا قوى جديدة نحو حدود كسروان . وكان المتمردون على علم تام باستعدادات الاتراك الحربية بواسطة رجالهم في بيروت . وقد تسلم طانيوس شاهين بشكل خاص نبأ يفيد بأن الجنود الاتراك ينوون الانحياز الى جانب الفلاحين عند وقسوع أول صدام بين الطرفين (١١٩) . واستعدادا لصد ضربة الفصائل التركية قوى المتمردون فرقهم وخصصوا لها كمية استثنائية من الخبز والنقود ففرضوا قرشا على كل شخص لسد حاجات المقاتلين (١٢٠) . وكانت آفاق الصدامات المسلحة في كسروان تقلق رجال

١١٦ - من المعروف ان بعض اعيان الريف كوكيل الزوق حبيب الجبائي قد انفقوا على تنظيم العصيان من اموالهم (منصور الحوتوني ، نبذة تاريخية ... صفحة ٢٨) .

١١٧ - « ثورة وقتلة ... » الصفحة ١٧٨ .

١١٨ - المصدر نفسه ص ١٨٠ .

١١٩ - المصدر نفسه صفحة ١٨٤ .

١٢٠ - المصدر نفسه صفحة ١٨٠ ، ١٨٢ .

١١٣ - ثورقوتة ... ص ١٧٢ ، ١٧٥ ، ١٧٦ ، ٢٠٩ .

١١٤ - المصدر نفسه ، صفحة ١٧٣ .

١١٥ - المصدر نفسه ص ١٧٦ ، ١٧٧ .

الدين أشد القلق : إذ ان العمليات الحربية كانت تهدد بالخطر ، العديد من الادييرة المارونية والاراضي التي تملكها (١٢١) . وبالإضافة الى هذا فان انتصار الاتراك كان يمكن ان يؤدي الى احتلالهم للبنان وهو أمر غير مرغوب فيه بالنسبة لرجال الدين المسيحي . وبالعكس فان نجاح المتمردين الذي يمكن جدا ان يتحقق في حالة تعاطف الجنود الاتراك معهم سيؤدي الى تطور الحركة الشعبية مما كان يخيف رجال الدين . وكان البطرك لا يزال يعلق آمالا على المفاوضات مع المتمردين . ان كل هذا قد دفع رجال الدين الى محاولة الحؤول دون وقوع الصدامات المسلحة . وقد توجه بولس مسعد بطلب المساعدة من القنصل الفرنسي ، فاحتج هذا على أعمال السلطات التركية التي خرقت حق لبنان في الحكم الذاتي ودعمه في هذا القائم مقام المسيحي وأعضاء مجلسه . فقررت السلطات التركية التريث حتى تحين الفرصة الملائمة للتدخل السافر في شؤون لبنان وسحبت فصائلها المسلحة من لبنان الشمالي . ويبدو ان المتمردين اعتبروا انسحاب الفرق التركية من الزوق وجونية نصراً لهم وأخذ الفلاحون يغنون في مدح طانيوس شاهين أغنية تقول : « يا بيكنا من ريفوني يا ابو السيف المسنوني انت اللي طردت العسكر من جونية » (١٢٢) وفي تشرين الاول من عام ١٨٥٩ تجددت المفاوضات بين المتمردين والبطرك ، وشارك فيها من جانب المتمردين طانيوس شاهين ومن الجانب الآخر كاتم اسرار البطرك يوحنا حبيب وممثل القنصل الفرنسي ورئيس ارسالية العازريين ف. ليروا وعميل القائم مقام عيد حاتم . وتراجع البطرك هذه المرة بناء على رغبات القنصل الفرنسي فاقترح على المتمردين انتخاب « مأمورين من الفلاحين ومعهم ثالث براني » (١٢٣) . وذلك بدل

١٢١ - كان عدد الادييرة المارونية فقط الموجودة في منطقة كسروان في السنوات السبعين اربعة وعشرين دييرا تضم اربعمئة واربعين راهبا ، وفي منطقة المتن المجاورة ثلاثة وخمسين دييرا تضم اربعمئة وسبعة رهبان (ك.م. بيتكوفتش « لبنان واللبنانيون » ، ص ٢٢٧ ، ٢٢٨) ولذا ذكر بان الادييرة والكنايس كانت تملك اراض يعمل فيها الرهبان والشركاء .

B. Poujoulat, la vérité sur la Syrie, p. 62.

١٢٢ -

١٢٣ - « نورة وفئة ... » ص ١٨٩ ، ١٩٠ .

٢١٦

ثلاثة مأمورين من آل خازن . وكان المفروض ان يكون الثالث هو الشيخ يوسف كرم المشهور بصلاته مع رجال الدين الفرنسيين والوارنة . ولكن طانيوس شاهين أصر على انتخاب مأمور من الشعب . فأخذ رجال الدين يميلون الى الاخذ بهذا الاقتراح بشرط أن لا يكون هذا المأمور هو طانيوس شاهين نفسه وذلك لتجريدته من سلطته ونفوذه في كسروان . وحاول البطرك والقنصل الفرنسي الضغط على شاهين . وربما كان هذا الضغط مرتبطا بتلك الحادثة التي رواها شاهد العيان الذي كتب ان « البطرك الماروني بعد ان شاهد ما يتهدد النظام الاجتماعي في الجبل اخذ يقوم بالمناورات لابعاد طانيوس شاهين من كسروان . فأتى هذا الاخير الى البطرك بموكب مهيب وهو يمتطي بغلا أبيض ويحف به مساعده ولكن امتنع عن تنفيذ رغبة زعيمه الديني طامعا في تنفيذ الرسالة (١٢٤) .

ومع ان رجال الدين كانوا قد استعدوا تمام الاستعداد لهذه المفاوضات (إذ أنهم كانوا يقومون بالدعاية لاقتراحاتهم بواسطة القساوسة ، وينظمون العرائض وما شابه ذلك) الا أن مساعيهم باءت بالفشل . ولم تسفر المفاوضات في هذه المرة عن التوصل لاتفاقية بشأن الحكم في كسروان .

وكانت الحركة قد اتخذت اثناء ذلك ابعادا كبيرة مما اقلق رجال الدين والاقطاعيين اللبنانيين وحتى أعيان الريف الذين اشتركوا في العصيان ، ولا يمكن ان نلم بأسباب هذه الظاهرة الا بعد استعراض تنظيم السلطة والتدابير التي اتخذت في منطقة العصيان .

تنظيم السلطة وتدابير المتمردين الاجتماعية

لقد شمل العصيان كل مقاطعة كسروان العائدة لمشايخ آل الخازن والتي يناهز عدد سكانها خمسة عشر الف نسمة

آل الخازن والتي يناهز عدد سكانها الخمسة عشر الف نسمة (١٢٥). وقد انضم الى العصيان خلال عام ١٨٥٩ وبداية عام ١٨٦٠ قرى المقاطعات المجاورة مما يجعل من المتعذر تعيين حدود منطقة العصيان وعدد المشاركين فيه تعيينا دقيقا . ولكن هناك ما يجعلنا نفترض بأن عددهم كان يتراوح بين العشرين والثلاثة وعشرين الف نسمة .

وبالرغم من تأكيدات المتمردين المستمرة على طاعتهم للاتراك والقائم مقام (١٢٦) فقد شكلوا في الواقع جمهورية فلاحية مستقلة في منطقة العصيان (١٢٧) . ومنعوا مشايخ آل الخازن من الدخول اليها . وكان الموظفون الاتراك يأتون الى هناك من أجل مفاوضة قادة المتمردين فقط . كما أن المتمردين كفوا عن جباية الضرائب للسلطات التركية ، وشكلوا أجهزة للحكم غير معترف بها من قبل الاتراك .

وكان الجهاز الاعلى للسلطة في منطقة العصيان هو الاجتماع العام الذي يضم ممثلي القرى الوكلاء الذين يناهز عددهم التسعين شخصا . وكان مثل هذا الاجتماع يعقد بشكل خاص خلال الايام الاولى من طرد المشايخ ، ثم اصبح يعقد جلساته بعد ذلك لمناقشة قضايا العصيان الهامة . وكانت الوثائق التي ترتدي اهمية كبرى بالنسبة للمتمردين توقع من قبل كافة الوكلاء المشاركين في الاجتماع . وكانت قرارات الاكثريّة تتمتع بصفة القانونية ، وقد اخذ البطرك هذا الامر بعين الاعتبار فدعا

١٢٥ - أصبحت المنطقة بعد التقسيم الاداري الذي جرى فيها بعد تقسيم مديريات غوسطا والجرد والزوق وصريا . وقد ورد في وثائق العصيان اسم ثلاثين قرية تقريبا يبلغ عدد سكانها وحدها احدى عشر الف نسمة ومن بينها قرى كبيرة كقرية غزير ٢٣٠٠ والزوق ١٧٠٠ ومزرعة كفرديان ١٦٠٠ وعجلتون ٦٠٠ وعشقوت ٥٥٠ وريفون ٢٣٠ شخصا . وكانت النساء تلعب في اكثر الاحيان دورا فعالا في العصيان (بالاستناد الى المعطيات الاحصائية التركية لعام ١٨٦٢ المذكورة في كتاب ك.ر. بيتكوفتش « لبنان واللبنانيون ») .

١٢٦ - « ثورة وفتنة ... » ص (١٨١ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢١٥) .

١٢٧ - يذكر انطون العقيقي ان طانيوس شاهين كان يخطب باسم « الحكومة الجمهورية (الشعبية) المصدر نفسه ص ٨٧ » .

اليه الوكلاء بقصد التأثير على المتمردين . (١٢٨) وكان انتخاب ممثلين عن القرى وارسالهم الى الاجتماعات العامة شرطي انضمام هذه القرى الى العصيان (١٢٩) .

وفي فترة ما بين الاجتماعات كان يستلم ادارة المنطقة الوكيل العام طانيوس شاهين ، المنتخب من قبل اجتماع الوكلاء قبيل العصيان ، والمتمتع بنفوذ لا حدود له بين المتمردين مما جعل المعاصرين يسمونه « الدكتاتور » شاهين (١٣٠) . وكان نفوذ طانيوس شاهين يعود الى سمعته الحسنة الذائعة وشعبيته بين الاهالي (١٣١) ، والى اعتبار ان الوكيل العام يعبر عن المصالح العامة . وقد ظهرت هذه الفكرة الاخيرة بوضوح في رسالة وكيل قرية مزرعة كفرديان حبيب الخوري العقيقي ، الذي كتب مخاطبا طانيوس شاهين : « فاذا كان لازم حضورنا الآن لنحضر على جناح السرعة ولو كانت مصلحتنا ضرورية حيث انها خصوصية ومصلحتكم عمومية » (١٣٢) .

وقد تكون هذا الرأي نتيجة منح الشعب طانيوس شاهين مطلق الصلاحية في توجيه المفاوضات مع الحكومة والاشراف عليها ، كما ورد في الرسالة التي بعث بها الفلاحون الى بولس مسعد (في اذار من عام ١٨٥٩) حيث كتبوا : « نحن جمهورنا الكامل قدمنا الى غبطتكم والى باب الحكومة وكيل عام يجاوب عنا بما نحن طالبينه من بيت الخازن وبما يجد عليه يشاورنا ... وان صدر امركم في الجواب ليد وكيلنا العام في ريفون حتى نستعمل بما تأمرون به » (١٣٣) . وبالرغم من الصلاحيات الواسعة التي كان يتمتع بها طانيوس شاهين فانه لم يكن يستطيع ان يتخذ

١٢٨ - « ثورة وفتنة ... » ص (١٧٢ ، ١٨١) .

١٢٩ - يمكننا ان نستنتج هذا من الوثيقتين (XLIV) et (XLV) ثورة وفتنة ... ص ٢١٢ . « Lebanon in the last years... », p. 141.

١٣٠ - Ch. Churchill, The Druzes..., p. 127.

١٣١ - مما يشهد على هذا تلك الاغاني التي كان الفلاحون يمدحونه بها : (B. Poujoulat, la vérité sur la Syrie..., p. 62).

١٣٢ - « ثورة وفتنة ... » الصفحة ١٧٥ .

١٣٣ - المصدر نفسه الصفحة ١٧٣ .

القرارات الهامة بنفسه . وقد كتب يوحنا حبيب يقول : « ان الحلف الجاري بينهم ووكالته العامة يقتضيان أخذ رضاهم قبل القرار ولهذا استحسن صيرورة اجتماع عمومي » (١٣٤) .
وكان طانيوس شاهين يتمتع بحق دعوة الوكلاء للاجتماع ، وبالسطة القضائية ، بالرغم من وجود جهاز قضائي في منطقة العصيان وهو الديوان في الزوق . ويبدو ان الجهاز الاداري الذي كان الوكيل العام يتصرف به لم يكن بالجهاز الضخم وهو يتألف من : المنادين (معلمي الاوامر) والخيالة والمهيجين الذين كانوا ينفذون اوامره . كما كان تحت امرته فرقة مسلحة تضم بضع مئات من الرجال (١٣٥) . وفي حالات الضرورة كانت القرى تضع فرق متطوعيتها تحت امرته . وكانت مصاريف الفرقة المسلحة تؤخذ من الرصيد العام الموجود في بيت طانيوس شاهين ومن الرسوم الاستثنائية التي فرضها المتمردون (١٣٦) .
وكانت منطقة العصيان تطبق نظاما ثوريا وتعاقب خصوم السلطة الفلاحية والمخيلين بالامن العام بمختلف العقوبات بما فيها السجن (١٣٧) .

وكان وكلاء القرى هم الذين يمثلون السلطة في قراهم . وكل قرية كانت تنتخب عددا من الوكلاء يتراوح بين اثنين وسبعة ، ويقوم هؤلاء بصيانة الامن العام والنظام وبدور المرجع القضائي الاول لتسوية النزاعات بين الفلاحين . ويساعدهم في اعمالهم اعوان من ابناء قراهم بالذات .

١٣٤ - المصدر نفسه الصفحة ١٩٨ .

١٣٥ - المصدر نفسه ، صفحة ١٨١ .

١٣٦ - كتب انطون العقيقي عن الرصيد يقول « جمع طانيوس شاهين جانب من املك المشايخ في الساحل والجرد اتكان من الحرير او من الحنطة ووضعها في بيته وكان يأخذ ذلك بقوة الجمهور وفتح خروجه في بيته الى الشارد والوارد » (المصدر نفسه ص ٨٧) .

١٣٧ - R. Edwards, La Syrie 1840-1862, p. 128.

بين الوثائق التي نشرها يريك هناك مثلا رسالة طانيوس شاهين التي يعلم فيها رجال الدين في قرية هرمون بقرار الديوان (في الزوق ؟) ان يصير التنبيه في كافة المحلات ان من يشرب عرقا او خبزا خارجا عن محله ويصير منه رذالات سيماقب بالسجن « ثورة وفتنة ... » صفحة ٢٠٨ .

هذا ما كان عليه تنظيم الحكم الجديد بالنسبة للبلاد ؛ الحكم المستند على مشاركة الشعب مشاركة واسعة في الادارة والذي الفى نظام الحكم الاقطاعي القديم . فما هي الفئات الاجتماعية التي كانت تعبر هذه السلطة عن مصالحها في القرية اللبنانية ؟

ان الوضع الاجتماعي لبعض الوكلاء يتيح لنا تحديد الفئات الاجتماعية في الريف الكسرواني التي شاركت بنشاط نفسي العصيان . فبين الثلاثة والثمانين وكيلا الموقعين على بيان استسلام قرى كسروان (في ٢٩ تموز عام ١٨٦٠) كان هناك عشرة قساوسة ، ولا أقل من ثلاثة مرابين . وكان اثنان وثلاثون وكيلا يملكون أختاما للمهر (مما يجعلنا نفترض انهم كانوا من الفئة الموسرة) . اما وضع البقية فلا يمكننا تحديده . ان هذه المعطيات وحدها تدلنا على اشتراك اعيان الريف وصغار رجال الدين في الحركة ، الامر الذي وجد تعبيراً عنه في السياسة الداخلية لقادة العصيان . ونذكر بهذا الصدد ان مصالح رأس المال التجاري والرئوي كانت مصانة في منطقة العصيان : وقد قبل طانيوس شاهين الطلب القاضي بتحصيل الديون والغرامات التجارية من المدينين ، كما ان بيان التاسع والعشرين من تموز قد نص على عودة المشايخ الى اراضيهم بشرط ان يدفع المشايخ والفلاحون جميع ديونهم حتما (١٣٨) .

ولكن تدابير قادة العصيان لم تكن تعبر فقط عن ميول اعيان الريف . اذ ان ابعاد المشايخ من منطقة العصيان قد اتاح تحقيق المساواة بين جميع اهالي كسروان والقضاء على التعسف الاقطاعي ، الامر الذي كانت تطالب به جميع الفئات في القرية اللبنانية .

واخيرا فان التدابير التي اتخذتها سلطة العصيان في المجال الزراعي كانت مفروضة من قبل الفلاحين ذوي الاراضي الصغيرة والذين لا يملكون ارضا .

وكما ذكرنا آنفا فقد استولى المتمردون اثناء العصيان على ممتلكات مشايخ آل الخازن من الادوات المنزلية الكثيرة والمجوهرات والاسلحة والنقود والمنتجات الزراعية ، الحنطة

١٣٨ - « ثورة وفتنة ... » الصفحات (١٧٤ ، ١٩٠ ، ٢٠٧ ، ٢١٥) .

والشرانق - والأرض (١٣٩) . وقد كتب انطون العقيقي يقول: « وصار الاهالي يعطون املاك المشايخ من قطع احراش وتكسير ابواب حارات المشايخ وأخذ حاصلاتهم من حرير وحنطة وزيت وكروم وكل ما يمكن أخذه » (١٤٠) .

وكانت الممتلكات المنقولة والأشجار المقطوعة « تستعمل للصالح العام » (١٤١) أو توزع بين الفلاحين . كما وزعت بين الشعب كذلك شجرات التوت التي كان المشايخ المعوزون يجمعون محصولها بأنفسهم . أما الأراضي التي كان الفلاحون « يملكونها حتى ذاك الوقت كخدم أو شركاء » فقد أصبحت تستثمر بدون دفع ريع للاقطاعيين . وبتعبير آخر فقد انتقلت الأرض إلى أيدي الذين يعملون عليها (١٤٢) . وقد كان مثل هذا الحل لقضية الأرض أنسب ما يكون لفلاح لبنان ، حيث لم تكن توجد ملكية مشاعية ولا توزيع للأراضي المزروعة . وبالتالي فإن العصيان الكسرواني لم يعرف اشاعة الملكية بين المتمردين أو التوزيع المتعادل كعصيان البابديين في إيران أو عصيان التايبتيين في الصين .

وقد شرع قادة العصيان في كسروان بالاستيلاء على أراضي المشايخ وحظروا على الشركاء دفع الريع لأصحاب الأراضي » . وقد كتب العقيقي يقول : « وكانوا (الفلاحون - المؤلف) إذا

D. Chevallier, Que possédait un cheikh maronite en ١٣٩ 1859; Un document de la famille al-Khazen.

١٤٠ - « ثورة وفتنة ... » صفحة ٨٧ .

Ch. Churchill, The Druzes..., p. 126.

١٤١ -

١٤٢ - يمكن أن ننهي إلى هذه النتيجة استناداً لما يلي من أقوال

ب. بوجولا وروشمونتيه : « لم يكن هناك في الحقيقة مصادرة للممتلكات بل كان

هناك استعمال للعقارات لصالح الفلاحين العام » . (B. Poujoulat, La vérité sur la Syrie..., p. 61).

وفي عام ١٨٦٠ صدر أمر للفلاحين « باعادة العقارات التي استولوا عليها بالقوة لسيادتهم القدامى ... وبدفع تعويض عن الاستعمال غير القانوني لهذه الممتلكات وبأن يبنوا منذ هذه اللحظة بدفع الريع التام والاجرة وبقية ما يتوجب دفعه لأصحاب الاملاك » .

(P. Rochemon teix, Le Liban et l'expédition française en Syrie 1860-1861), p. 169.

وجدوا احد شركات المشايخ أخذ إلى معلمه شيء كانوا يترصدونه وياخذون منه كلما يكون معه » (١٤٣) .

ومع أن مفعول هذا الحظر كان مقتصرًا على أراضي المشايخ الخازنيين ولا يطبق على الشركاء الذين يعملون في أراضي أعيان الريف والكنائس والاديرة الذين ظلوا يدفعون الريع كالمسابق إلا أنه أثار استياء أعيان الريف الذين كانوا يخشون أن تؤدي الحركة المتنامية إلى الاستيلاء على أراضيهم الموحدة للشركاء (١٤٤) .

ولهذا فقد أدت التدابير بشأن الأرض إلى نشوب صراع داخل صفوف المتمردين ، لم يكن يظهر للعيان بسبب الخطر الواضح الذي يهدد بعودة الشيوخ الخازنيين للحكم ، ولكن ما إن كاد البطرك والسلطات التركية توافق على تنحية مشايخ آل الخازن عن السلطة في كسروان حتى حصل الانشقاق في صفوف المتمردين . وعندها أبدى وكلاء الزوق وأهالي السهل وغيرهم من الناس « العقلاء » استعدادهم للقبول باقتراح البطرك القاضي بانتخاب مأمور من اوساط الشعب واعادة آل خازن إلى مقاطعاتهم فيما بعد . وقد تجلت بهذا محدودية مطامح أعيان الريف اللبناني الذين قنعوا تمام القناعة بالفناء تعسف مشايخ آل الخازن، الأمر الذي يعلل بالخصائص النوعية التي تتصف بها هذه الفئة نصف البرجوازية ، نصف الاقطاعية من حيث جوهرها الاجتماعي (فقد كان ممثلوها يزاولون التجارة والربا ويملكون ورشات

١٤٣ - « ثورة وفتنة ... » صفحة ٨٧ . أن أمثال هذا الحظر مشهورة في تاريخ الحركة الفلاحية ، يكفي أن نتذكر ما كتب على مشنقة ليموزين (في فرنسا) عام ١٧٨٩ : هنا سيشتق كل من تسول له نفسه دفع الريع للاقطاعي والاقطاعي نفسه فيما إذا جرؤ على ابداء مثل هذا الطلب » (تاريخ العالم) الجزء السادس . موسكو ١٩٥٩ صفحة ٢٢) .

١٤٤ - وقد انعكس هذا الاستياء في كلمات انطون العقيقي الذي كتب يقول: « حتى إذا نظروا احد أخذ شيء إلى المشايخ انكان من شركائهم أم من خلفهم كانوا ياخذونه منه جبرا وبهذه الوساطة حصل الفقر على الجميع انكان من المشايخ لاجل ضبط املاكهم وزيادة مصارفهم وأن كان من الاهالي لعدم شغلهم في ما خص المعاش واعتكافهم إلى الامر المنكر وصار ضيق عظيم » (سورة وفتنة ... » ص (٨٨) .

حرفية وكانوا في الوقت نفسه يوظفون الاموال للحيازة على الاراضي التي يعمل فيها الشركاء .
وكانت غالبية الفلاحين تقف بشدة ضد اراء موسري الريف .
وقد كتب يوحنا حبيب يقول « واما وكلاء الزوق فالجهلة قاموا ضداهم وصاحوا بصوت عال ان مأمورهم الاميكيو (اي طانيوس شاهين) « (١٤٥) ذلك لان اسم طانيوس شاهين كان مرتبطا في ذهن الفلاحين بالتدابير التي اتخذت بشأن الارض . ولم يقتصر الصراع على المسادات الكلامية بل تعداها الى الاصطدامات المسلحة بسبب رفض بعض القرى الخضوع لطانيوس شاهين ، وقد كان انتصاره عليها سببا في تقوية مواقع الوكيل العام والفئات الفقيرة التي آزرته . ويمكن القول انه منذ ذاك الوقت اخذت سلطة المتمردين تعبر قبل كل شيء عن مصالح الفلاحين الذين يملكون اراض قليلة والذين لا يملكون شيئا مما دعا المعاصرين للكتابة عن « التمرد المستفحل » . وقد اخذ المتمردون في كسروان يبحثون عن دعم لهم لدى فلاحى المقاطعات الاخرى وينظمون بينهم شبكة من المحرضين على العصيان (١٤٦) .

وساعد نجاح الفلاحين المتمردين في كسروان ودعايتهم على نشر الهياج في سائر لبنان . فساد الهيجان بين فلاحى المناطق التي تقع في شمال كسروان وانتقلت الاضطرابات الى منطقة اللاذقية . ورفض الفلاحون العلويون في ناحية صافيتا دفع الضرائب للسلطات التركية (١٤٧) فيما بين عامي ١٨٥٨-١٨٥٩ ثم امتد الهياج الى القائمقامية الدرزية « فاصبح المسيحيون

١٤٥ - « ثورة وفتنة ... » ص ١٩٣ .

١٤٦ - يمكن ان نحكم على طابع الدعوة التي كان ينشرها المتمردون من الخطاب البالغ الذي القاه شاهين في اهالي ناحية جبيل . وقد ورد في هذا الخطاب قوله : « ان لدى بيورلدا (امرا) من سبع دول يقضي بتحرير كافة المسيحيين الذين لا يجب ان يبقوا بعد الان عبيدا لاحد . فاذا كنتم ترفقون في التحرر من نير العبودية فلا احد يستطيع ان يمنعكم ان كان مشرا او قائمقاما حرروا انفسكم دون ابطاء ولا تهربوا شيئا . واذ لزمكم جيش مساح فاخبروني بهذا كي ارسله لكم ... واخبروني باسماء وكلاء كافة القرى التي تقف بجانبنا » .

١٤٧ - اس ر خ « السفارة في القسطنطينية »

٢٢٤

- حسب قول شاهد عيان - يضيقون ذرعنا بتبعيتهم التي لا تطاق للمشايخ الدروز الذين يستثمرونهم دون شفقة (١٤٨) .
وعندها كتب يوحنا حبيب في رسالته للبترك تلك الجملة التي يقول له فيها : « لم يزل حاصل الوهم من وقوع الفتنة بين النصارى والدروز » . (١٤٩)

فما الذي يمكن ان تعنيه هذه الجملة ؟

في نهاية عام ١٨٥٩ اخذت المفاوضات بين المتمردين والبترك تدور في حلقة مفرغة وفشلت بهذا محاولات كبار رجال الدين لوضع الحركة تحت اشرافهم ، والادعى من هذا ان الحركة كانت آخذة في التوسع . وربما كان هذا ما جعل رجال الدين يفكرون بتأريث نار العداء من جديد بين الدروز والموارنة لاستغلال الفرصة واثارة الصدامات ودفع فلاحى كسروان للاشتراك فيها .

الفصل الخامس

الصِّدَامَاتُ بَيْنَ الدُّرُوزِ
وَالْمَوَارِثَةِ عَامَ ١٨٦٠

* الاحتلال الفرنسي للبنات
* النظام الأساسي في لبنان

الصدامات بين الدروز والوارنة عام ١٨٦٠

منذ حرب القرم أخذ وضع الاهالي المسيحيين في المناطق المختلطة يتدهور بشكل ملحوظ . وقد كتب تش. تشرشل ان معاملة المشايخ الدروز « للمسيحيين الموجودين تحت حكمهم المباشر كانت تنتقل من سيء الى اسوأ . أما النواب الذين عينوا لدى زعماء الدروز ليلعبوا دور الوسيطاء في حالات وقوع خلاف بين الدروز والمسيحيين فقد اصبح لا شأن لهم وكانوا يحضرون كمنظارة صامتين لا فائدة منهم للخير او الشر . ووصل الامر الى ان المشايخ أصبحوا يغيرون على القرى المسيحية ويسكنون خيالتهم في منازلها ويغتصبون الاموال وينهبون المواشي والدواجن وغير هذا من المواد الغذائية ، وكانوا في حالة المقاومة ينزلون بمقاوميههم اقصى انواع العقاب » . ومع كل يوم كان يزداد الخطر الذي يتهدد « الحياة والممتلكات في المناطق الدرزية » (١) .

وكانت المقاومة الكبرى تأتي كما في عام ١٨٤٥ من جانب مدينة دير القمر التي هي حسب قول تش. تشرشل « مركز

القوة والازدهار الذي كان بمثابة نجم آمالهم (المسيحيين - المؤلفة)
المشع والمركز الذي يقف في وجه أعمال الدروز غير المشروعة »
ومن مدينة زحلة - المدينة الواقعة على حدود البقاع » والتي كانت
تبدي مقاومة جبارة لميول النهب والسلب لدى الدروز الذين
اعتادوا منذ زمن طويل على ان ينظروا الى هذه المنطقة الخصبة
ذات القرى العديدة كحقول فسيح لاعمال النهب والسلب « (٢) .
وكانت مدينة دير القمر قد رفضت الخضوع لاسيادها
الاقطاعيين منذ الاعوام الاربعين واصبحت تحكم من قبل موظف
تركي ومجلس بلدي . اما زحلة فقد شنت نضالا عنيدا ضد
اسياد المدينة منذ الاعوام الخمسين ، وتوج هذا النضال برفض
دفع « الاتاوات القانونية » لالسياد وتشكيل « مجلس بلدي
خاص » . وكانت كل من دير القمر وزحلة تملك قوى مسلحة
- في حدود الالفي محارب للاولى وثلاثة الاف محارب للثانية .
وقد عقدت المدينتان فيما بينهما معاهدة اتحادية (٣) .

وهكذا نجد ان دير القمر وزحلة يشكلان ظاهرة غريبة
تماما في حياة المدن الشرقية التي لم تكن عادة خلال تاريخها
كله تتمتع بحق الادارة الذاتية .

ولم يكن يمكن ان تبرز مثل هذه الظواهر في البلاد الا
بعد ان تشكلت الظروف المناسبة لظهورها في فترة ولادة العلاقات
الراسمالية وانتعاش الحركة المعادية للاقطاعية .

وقد كانت الاشكال التنظيمية للحركة المعادية للاقطاعية
في المناطق المختلطة في نهاية الخمسينات تشبه في العديد من
صفاتها الاشكال المماثلة لها من النضال ضد المشايخ الدروز
في الاعوام الاربعين . فقد بدأت تتشكل مجددا في جنوب لبنان
عام ١٨٦٠ فرق شعبية برئاسة شيوخ الشباب ، وكان لدى كل
من هؤلاء ، حسب اقوال ابي شقرا ، قائمة بأسماء شباب
فرقتهم ، وكانت القوائم تسلم الى شيخ المشايخ الذي يترأس القوى

Ibid., pp. 103, 107.

- ٢

Ibid., pp. 105, 167, 181, 182.

- ٣

كان للمجلس البلدي في دير القمر يتمتع بنفوذ كبير في الناحية الى حد انه
منع أحد الاسياد القدامى من مشايخ آل نكد من بناء منزل على ارضه الخاصة
بالقرب من المدينة .

٢٣٠

المسلحة في سائر المنطقة . وكان يطلق على محاربي هذه الفرق
اسم « الجهالي » وكانوا في هذه المرة يرتدون ملابس خاصة
بهم (٤) . وبتعبير آخر فان قوى الفلاحين المسلحة قد بدأت
تأخذ طابع الفصائل النظامية ، برئاسة اناس معروفين منذ حوادث
الاعوام الاربعين مثل ابوسمرا غانم ويوسف الشنتيري وغيرهما...
وكان النضال يجري بقيادة منظمة تدعى « الرابطة المسيحية
المحلية » ومركزها بيروت . وكان لها فروع في جبل لبنان .
وكانت هذه الرابطة قد تألفت رسميا لمساعدة المحتاجين والمرضى
ولكن اللجنة المركزية للرابطة كانت تقوم فعليا خلال عام ١٨٥٩
و ١٨٦٠ بالاستعداد للصدامات المسلحة بين الدروز والوارنة
وكانت ترسل المنظمات العسكرية الى البلاد وتشتري الاسلحة
وتوزعها بالمجان على اللجان المحلية التي كانت بدورها توزعها على
فرق الفلاحين (٥) .

وكان مولو المنظمة هم ، على ما يبدو تجار ومرابو بيروت
ودير القمر . وكان في عداد اللجنة المركزية لهذه المنظمة الناجر
البيروتي نقولا نقاش و « المصرفي » نعوم قيقانو والتاجر و « المصرفي »
ميشيل فرج الله والتاجر أيوب طرابلسي من دير القمر وغيرهم...
وكان يترأس الرابطة المطران طوبيا عون ، وقد لعب القساوسة
القرويون دورا فعالا في لجانها الفرعية .

ونحن للأسف لانملك موادا تسمح لنا أن نحكم بثقة على طابع
واهداف هذه المنظمة . وكما كان الامر في السنوات الاربعين فقد
كانت الجماهير الشعبية الواسعة من الاهالي المسيحيين ترى في
الصدامات مع الدروز سبيلا للخلاص من تعسف الاقطاعيين الدروز،
ولذلك فقد كانت تدعم الرابطة . كما كانت هناك قوى داخل المنظمة
وخارجها ترى مصلحتها في معارضة الشعور المعادي للاقطاعية
بالتعصب الديني وتوجيه الحركة الفلاحية المتعاطفة في طريق الصدام
بين الاديان . وكانت هذه القوى تؤثرت العداءة المارونية الدرزية
بشدة ، وقد فاق الجميع في هذا المضمار كبار رجال الدين الموارنة
الذين ترأسوا المنظمة في عام ١٨٦٠ . وأخذوا ينشرون في لبنان كل

٤ - ابو شقرا ، الحركة ... ص (١٠٢-١٠٤)

٥ - ذكرت صحيفة The Times « 21. VII. 1860 » انه تم توزيع اربعة

عشر الف بارودة .

ما يكتبه ذوو المناصب الدينية في مباركة الحرب الدينية (٦) وقد عمد رجال الدين الموارنة الذين كانوا سابقا يغارون من العقائد المسيحية الأخرى الى الاعلان عن موقفهم المتسامح — من الارثوذكسيين والكاثوليكين اليونان من أجل توحيد القوى المسيحية (٧) .
وقد بذل رجال الدين جهودا خاصة لتحريض الفلاحين الكسروانيين ضد الدروز . و « رسموا لاتباعهم لوحة مؤثرة لآلام المسيحيين في الوسط وصرخوا لهم بأن شمال لبنان نفسه لن يسلم من غارات الدروز اذا لم يهاجمهم الموارنة في عقر دارهم لطردهم من لبنان » (٨) .

وقد لقي تحريض رجال الدين تربة مناسبة له ، اذ ان انظار المتمردين الكسروانيين اتجهت في صيف عام ١٨٦٠ الى الهياج المتزايد بين الفلاحين المسيحيين في لبنان الجنوبي . وليس من المستبعد أن يكون طانيوس شاهين قد توجه بدعوة الى أهالي القاتمالية الدرزية للانضمام الى العصيان . ولهذا فعندما توجه الموارنة في المناطق المختلطة الى الكسروانيين لطلب المساعدة وعدهم طانيوس شاهين خيرا (٩) . لقد كان الكسروانيون يؤمنون برسالتهم التحررية وكانوا مستعدين لحماية الفلاحين الموارنة من تعسف الاقطاعيين الدروز .

وسرعان ما أعطى نشاط رجال الدين أكله : اذ توترت العلاقات بين الدروز والموارنة توترا شديدا وجرت سلسلة من الحوادث بسبب التعصب الديني بيد أنه لم يجر خلالها مساس بالقضية الزراعية أو تقديم طلبات مناهضة للاقطاعية وذلك خلافا لما جرى أثناء حوادث عام ١٨٤٥ . لقد كانت النزاعات الدينية هي التي تحتل مكان الصدارة في أحداث عام ١٨٦٠ .

ولم تكن جهود رجال الدين وحدها هي التي هبأت لوقوع الصدامات بين الدروز والموارنة . ففي العشرين من آب عام ١٨٦٠ لمح اللورد بالمستون في البرلمان الى اشتراك فرنسا في الحوادث

٦ - تسود صحيفة « The Times » في عدها « 17, IX, 1860 » نص رسالة الاسقف صافروني .

٧ - R. Edwards, La Syrie 1840-1862, p. 132.

٨ - Souvenirs de Syrie..., p. 26.

٩ - « ثورة وفتنة ... » صفحة ١٠٦ .

بقوله : « قبل بضعة أشهر من نشوب الصدامات سرت بين المسيحيين الأتراك والأوريين اشاعات عن صدامات ستقع في سوريا . ومن المعروف جيدا ان احتياطات ضخمة من الاسلحة — الاسلحة الأوربية الآتية من أوروبا — قد أرسلت الى الموارنة » (١٠) وكانت الاوساط الحكومية في انكلترا تعرف أمر الصلات الوثيقة بين رجال الدين الموارنة وفرنسا ، وتعلم ان هذه الأخيرة قد أرسلت عدة ممرات اسلحة الى سوريا في السنوات الأربعين وتعلم أخيرا ان يوسف كرم قد اشترى بنادق في مارسيليا (١١) ، ولهذا لم يكن لديها شك في أن فرنسا هي التي أرسلت الاسلحة الى لبنان عام ١٨٦٠ كذلك .

ان تحليل سياسة الحكومة الفرنسية الداخلية والخارجية الذي نشره كارل ماركس في جريدة « نيويورك ديلي تريبيون » يلقي الضوء على الدوافع للسلوك الفرنسي في سوريا . فبعد دراسة الوضع الداخلي للامبراطورية الفرنسية وحالة الامور السياسية الأوربية استنتج ك. ماركس ان نابليون الثالث « وجد نفسه مضطرا للتفتيش عن أي حملة صليبية جديدة مثيرة ليغرق إمبراطوريته من جديد بالهذيان الحربية » . ان فشل سياسة نابليون الثالث الخارجية في ايطاليا وبروسيا وخلافه مع البابا الذي الحق « الضرر بتلك الدعامة التي كان يستند عليها نفوذه بين الفلاحين وهي رجال الدين الكاثوليك في فرنسا » ، والازمات المالية والسياسية الداخلية ، ان كل هذا تصادف زمنيا مع ظهور « تلك الحقيقة التي لا يمكن انكارها وهي ان روح التمرد الفولية (الروح الفرنسية) تبعث من تحت الرماد من جديد وان استمرار سيطرة مفتصب السلطة متعلقة من جديد بتنظيم حرب كبيرة جديدة كما حدث بعد عامين من الانقلاب العسكري Coup d'état ثم بعد عامين آخرين في أعقاب حوادث القرم . فلاشغال حرب أوربية شاملة يمكن بواسطتها تفادي الثورة كان لا بد من « أحداث المجازر الفظيعة في سوريا لكي تتخذ ذريعة للتدخل الفرنسي » . وهكذا نرى ان ك. ماركس كان يعتبر ان العملاء الفرنسيين بالذات هم الذين نظموا « المعركة السياسية

The Times, 21, VIII, 1860.

The Times, 6, XI, 1860.

الدينية على الساحل السوري » (١٢) .

في ضوء تحليل ك. ماركس هذا ودراسة نشاط رجال الدين الموارنة المرتبطين بفرنسا ، تكتسب معنى خاصا كلمات القنصل العام الفرنسي في بيروت الذي استدعي في نهاية عام ١٨٥٩ ، ادموند دي ليسيس . عندما قال متحدثا عن خلفه في منصب القنصلية الكونت « بينتيفوليو » : بعد ستة أشهر سيفرق لبنان في النار والدماء وسيكون بينتيفوليو من المساعدين على هذا (١٣) . وقد تحققت تنبؤات أ. دي ليسيس بدقة مدهشة .

ان بريطانيا ، شأنها شأن فرنسا ، لم تقف موقف المتفرج من الحوادث في سوريا . وكانت سياستها في عامي ١٨٥٩ و ١٨٦٠ تقوم في التشجيع العلني ، ان لم يكن في الدعم السري ، لاستعدادات الدروز الحربية . وردا على نشاط « الرابطة المسيحية » اقام المشايخ الدروز صلات مع اقطاعي حوران ، ونظموا دعاية دينية بين الفلاحين الدروز داعين اياهم الى اباداة المسيحيين (١٤) ، وقاموا بشراء الاسلحة والذخائر (١٥) . ولاعاقبة تسليح الفلاحين المسيحيين ارسل اعيان الدروز الى منطقة صيدا حرسا لنزع الاسلحة من المسيحيين الذين ينقلونها خارج المدينة ، بينما كان الدروز ينقلون الاسلحة الى الجبال بحرية (١٦) .

وكان المشرف على نشاط الارستقراطية الدرزية هو الشيخ سعيد جنبلاط ، الذي يعتبر دعامة للنفوذ الانكليزي في لبنان . فقد كان يعتقد اجتماعات سرية للارستقراطية الدرزية في مقره في المختارة ويمسك بيده جميع خيوط المؤامرة الدرزية . وينبغي الافتراض ان القنصل العام الانكليزي كان على علم بنشاط الاعيان الدروز . فقبيل

١٢ - له ماركس : الحوادث في سوريا - الدورة البرلمانية الانكليزية - حالة التجارة البريطانية - له ماركس و ف. انجلز ، المؤلفات ، الطبعة الثانية ، الجزء ١٥ ، الصفحة ١٠٢ .

١٣ - P. Rochemonteix, Le Liban et l'expédition..., p. 36.

١٤ - Iskandar Abkarius, The Lebanon in turmoil..., pp. 115-116.

١٥ - « Souvenirs de Syrie... », p. 10.

وزع المشايخ الاسلحة على الفلاحين الدروز بعد بدء الاصطدامات فقط .

١٦ - F. Lenormant, Histoire des massacres de Syrie en 1860,

p. 11.

وقوع الاصطدامات بين الدروز والموارنة اخذ الشيخ سعيد جنبلاط يسأل القنصل العام الانكليزي (مور) كيف ينبغي عليه ان يتصرف في الوضع القائم . وقد نصحه القنصل نصيحة لا تحتل التأويل وهي عدم القيام بأعمال سافرة كي لا يفضح نفسه . وقد نفذ الشيخ هذه النصيحة بدقة : فامتنع عن المشاركة في العمليات الحربية ، وحتى انه ارسل أغذية الى دير القمر التي كانت محاصرة من قبل الدروز وخبا عنده بعض المسيحيين (١٧) . وكان يقود سرا جميع العمليات الحربية ضد المسيحيين .

وقد قدم العملاء الانكليز المساعدة الى الدروز أثناء العصيان . فشارك الكولونيل ش. تشرشل سرا في وضع خطط الدروز الحربية (وخاصة في عملية الاستيلاء على زحلة) (١٨) وكان البشرون الامريكيون المتمتعون بالحماية الانكليزية يتجولون بحرية في لبنان الفارق في الدم . وقد تمكنوا من اكتساب عطف الدروز الى جانب أتباعهم البروتستانتين القليلي العدد (في حاصبيا مثلا) وفضلا عن هذا فقد شارك البروتستانتون اللبنانيون (بتشجيع من المبشرين الامريكيين دون شك اذا لم يكن بضغط منهم) في العمليات الحربية الى جانب الدروز (١٩) .

وقد كتبت الصحافة الاوربية كثيرا عن نشاط السلطات التركية الاستفزازي قبيل الاصطدامات . وسرت شائعات تقول ان الاتراك زودوا الدروز بالاسلحة من مستودع استامبول ولكننا لا نستطيع ان نتأكد من صحة هذا الامر ومن صحة معطيات الصحفيين الاخرى (٢٠) . ان سياسة السلطات التركية المخادعة في لبنان لم تظهر بكامل صورتها الا أثناء الصدامات .

وقد كان النذير الاول في وقوع مأساة عام ١٨٦٠ الدمية هو حوادث الخامس عشر من آب عام ١٨٥٩ التي وقعت في قرية بيت مري التي تبعد عن بيروت مسافة سفر بضع ساعات (*) . وقد

١٧ - ١ س ر خ « السفارة في القسطنطينية » .

١٨ - H. Jessup, Fifty three years in Syria, New York, 1910, p. 174.

١٩ - Ibid.

٢٠ - « The Times », 23, VIII, 1860.

(*) نسبة لوسائل النقل انذاك بالطبع (ملاحظة من العرب)

حالت السلطات التركية وقتها دون وقوع الكارثة بأسراعها في ادخال جيوشها الى لبنان .

وفي نيسان عام ١٨٦٠ ابلغ موحسين القنصل الروسي في القسطنطينية لوبانوف - روستفسكي بأن لبنان في حالة الهدوء الذي يستحق العاصفة . وكتب يقول « ان كل هذا يدفعنا الى الاعتقاد بأن الحرب الاهلية ستندلع في الجبال بعد جمع المحصول » (٢١) . وبالرغم من أن بعض الاشخاص لفتوا انظار القناصل وخورشيد باشا الى الوضع في البلاد الا انه لم تتخذ اية تدابير بهذا الخصوص .

وفي الرابع عشر من أيار عام ١٨٦٠ حدث أول صدام جدي بين الفلاحين المسيحيين من احدى قرى جزين وبين دروز قرية في مقاطعة الشوف بسبب قتل ثلاثة من المسيحيين . وبما أن جمع الشرائق لم يكن قد انتهى بعد فقد قرر الاقطاعيون الدروز (مقاطعجية جزين وسعيد جنبلاط والقائمقام الدرزي) والموظف التركي أن يخمّدوا المشاجرة . فوافق الدروز على المفاوضة ، بينما رفضها المسيحيون بضغط من أبي ستمرا الغانم ، المشهور في حوادث العصيان ضد المصريين وعضو اللجنة المحلية « للرابطة المسيحية » ، وطرّدوا أمناء الشيخ سعيد وترك الاهالي في العديد من القرى المسيحية أعمالهم في الحقول وتسارعوا لحمل السلاح . واخذت فرقة الخيالة التي تشكلت في زحلة تشن الغارات على الدروز (٢٢) . وعقدت الاجتماعات (٢٣) في عدد من قرى لبنان الاوسط تحت اشراف « الرابطة المسيحية » كما يبدو . ولكن دير القمر بقيت في حالة ترقب . فبعث الاسقف طوبيا برسالة الى أهل المدينة بتاريخ العشرين من أيار عام ١٨٦٠ يعبر لهم فيها عن رضاه الابوي عليهم لانهم يحبون « الوطن والسلام والطمأنينة والراحة المنزلية » ولكن حذرهم من خطر هجوم الدروز عليهم . واختتم رسالته بتهديد أهل دير القمر الذين يقفون من الدروز موقفا سليم النية . وبعد بضعة أيام أعرب الاسقف بصراحة عن أنه « اذا لم يخضع أهالي دير القمر وظلوا على رفضهم للذهاب الى المعركة » فأنني سأدعو الدروز والمسيحيين

٢١ - اس ر خ « السفارة في القسطنطينية » .

٢٢ - R. Edwards, La Syrie, 1840-1862, p. 135.

٢٣ - اس ر خ « السفارة في القسطنطينية » .

للهمجوم عليهم » . (٢٥)

وفي السادس والعشرين من أيار حصل تشابك بين جماعة من الفلاحين الدروز والمسيحيين قرب بوابة بيروت . وقد ارتث الطرابلسي ، وهو أحد أعضاء لجنة « الرابطة المسيحية في بيروت » ، (٢٦) نار المشاجرة التي أسفرت عن مقتل أحد الدروز . وفي اليوم التالي قتل الدروز أحد الاثرياء المسيحيين من أهالي دير القمر . ومنذ تلك اللحظة بدأت ملاحقة الدروز جماعيا واخذت الفرق المسيحية تشن الغارات في كل مكان بقيادة اللجنة المركزية « للرابطة المسيحية » وتوزعت الى المناطق المسيحية في لبنان رسائل شبيهة برسالة طوبيا الى أهالي دير القمر لدعوة الاهالي الى التأهب للقتال في لحظة صدور الاوامر . ثم أرسل طوبيا خيالا الى طانيوس شاهين ليطلب منه الاسراع في الهجوم . وتوجه البطريرك الماروني برسالة الى المسيحيين يهددهم فيها بأنه سيفلق الكنائس في القرى التي لن يشارك أهاليها في الحرب (٢٧) .

ثم جرت الحوادث بعد ذلك على الشكل التالي : في الثامن والعشرين من أيار وصلت فرقة طانيوس شاهين الى المتن ، فأرسلت السلطات التركية في اليوم التالي جيوشها الى الحازمية لغلاق الممر بين لبنان الشمالي والوسط ، مما أربك الفرق المسيحية (وساعد كما يظهر ، مساعدة كبيرة على الانتصار الذي أحرزه الدروز في هذه المنطقة فيما بعد) . وفي اليوم التالي بدأت فرق المسيحيين من دير القمر وزحلة الاشتراك في العمليات الحربية . ووجهت هجماتها بالدرجة الاولى ضد القرى العائدة لكبار المشايخ الدروز (٢٨) . وبعد الاول من حزيران استلم الدروز زمام المبادرة فحاصروا دير القمر وزحلة (٢٩) ووصلت من حوران الى البقاع فرقة اسماعيل الاطرش بدعوة من سعيد جنبلاط . وفي الثامن عشر من حزيران هاجم الدروز

٢٤ - R. Edwards, La Syrie 1840-1862, pp. 136, 137.

٢٥ - Ibid., p. 138.

٢٦ - The Times, 17, IX, 1860.

٢٧ - اس ر خ « السفارة في القسطنطينية » .

٢٨ - المصدر نفسه .

٢٩ - R. Edwards, La Syrie 1840-1862, p. 149.

زحلة ، ثم نهبوا وأحرقوها . وقد كان الدروز قبل ذلك قد استولوا في الثامن من حزيران على القرية الكبيرة حاصبيا وقاموا مع الجنود الاتراك بذبح الاهالي الذين اختبأوا في قصر الحاكم ، وكان مصرير أهالي راشيا نفس مصرير ستابقتها . وهاجم الدروز مدينة دير القمر ، بعد أن التى أهلها السلاح بناء على طلب الضابط التركي ، فنهبوا وذبحوا جميع السكان تقريبا بالاشتراك مع الجنود الاتراك .

وقد حدثت مثل هذه الفظائع في عدد آخر من قرى لبنان الأوسط الجنوبي . وكانت المناطق التي كابدت بشكل خاص هي المتن والبقاع الغربي والشوف والشحار والغرب وجزين . وكنت تستطيع أن ترى من بيروت ليلا السنة اللهب تتصاعد من القرى في الجبال . ويعتقد المعاصرون أن ما حال دون وقوع المجازر في بيروت وصيدا هو وصول الفرقاطة الروسية « ايليا مومتس » وباخرة فرنسية الى المينائين المذكورين .

وقد أحرق ما يقارب مئة وخمسين قرية مسيحية والحق الضرر بعشرات القرى الدرزية في المتن . وأصبحت المدينتان اللبنانيتان المزدهرتان زحلة ودير القمر تريضان تحت الانقراض . وقد مات قسم من سكانهما وفر قسم الى بيروت . وقد سقط في هذه الصدامات آلاف القتلى وفقد الآخرون مساكنهم وأموالهم (٣٠) . وأبديت كل المزروعات تقريبا وقطعت أشجار التوت . ومألت جموع اللاجئين بيروت وكسروان وقد لجأ الى المنطقة الأخيرة وحدها أربعون ألف نسمة وبدا الجوع وانتشرت الاوبئة . حتى أن الفزع استولى على التجار الاوربيين وأسرع مكتب البنك العثماني باخراج ممتلكاته من بيروت . وفر أغنياء بيروت عن طريق البحر الى الاسكندرية واستطامبول . وتوقفت المفازل وذهب العمال للقتال . أن تاريخ لبنان لم يعرف مثل هذا الصراع الدموي بين الاهالي من قبل .

٣ - لقد قاسى من هذه الصدامات الفلاحون واهالي المدن الفقراء بشكل رئيسي ذلك لان الاقطاعيين الدروز كانوا اثناء الحرب يحتفظون لا بسمعتهم بين الفلاحين الدروز فقط بل وبمراكزهم الاقتصادية وقد استطاعوا ان يصفوا حساباتهم مع دائيهم من تجار دير القمر بتركهم اياهم احياء لقاء مبالغ ضخمة . وعندما كان الفلاحون الشركاء المسيحيون لا يشاركون في الحركة الفلاحية ، كان الاقطاعيون يحمونهم من هجمات الفرق الدرزية . وقد كان سعيد جنبلاط مثلا يحمي مستاجري اراضيهِ في جزين (ا س د غ «السفارة في القسطنطينية») .

ولم تكن الدول الاوربية التي ساعدت على نشوب الصراع الى هذه الدرجة أو تلك ولا الحكومة التركية ولا رجال الدين الموارنة يتوقعون مثل هذه العواقب الفظيعة لسياساتهم .

ولم تتوقف العمليات الحربية الا في نهاية حزيران، وفي السادس من تموز بعد التدخل الفعال من قبل قناصل الدول الاوربية الذين كانوا يخشون وقوع صدامات مشابهة استطاع خورشيد باشا أن يصل الى عقد اتفاقية بايقاف الصدامات بين الزعماء الاقطاعيين من الدروز والمسيحيين . وكانت الاتفاقية تنص على رفض المسيحيين التعويض عن الخسائر وعلى الاحتفاظ بكل امتيازات الاقطاعيين الدروز (٣١) .

وما كادت الصدامات تتوقف في لبنان حتى بدأت مجزرة المسيحيين في دمشق كاستمرار للمذابح اللبنانية . وقد تمكنت مناطق كسروان ولبنان الشمالي من تفادي غارات الدروز والخسائر المادية . بيد أن الحركة الفلاحية في كسروان أصيبت بضربة سياسية ومعنوية قوية . اذ عادت فرق طانيوس شاهين الفلاحية التي شنتها فصائل الاتراك الى كسروان . وقد حلت الفوضى والحيرة في صفوفها . وتأرجحت سمعة السلطة الفلاحية ، وانهمر سيل اللاجئين الى كسروان ، فلم تستطع سلطة الفلاحين أن تحافظ على تنظيمها في مثل هذه الظروف . أما المعلومات عن العصيان الكسرواني فيما بعد ذلك فهي معلومات عرضية وغير منظمة .

ان مشايخ آل الخازن لم يشاركوا في حوادث الدروز والموارنة وعندما توقفت العمليات الحربية اتفقوا على ما يظهر مع كبار رجال الدين الموارنة على اعادة حقوقهم لهم في كسروان . وضغط الاسقف طوبيا على المتمردين مكرها اياهم على الاستسلام . وربما لم تسر الامور بدون ضغط من جانب القنصل الفرنسي كذلك . وفي التاسع والعشرين من تموز عام ١٨٦٠ وقع وكلاء كسروان على « بيان قرى لبنان » الذي عبروا فيه عن موافقتهم على عودة المشتايخ الى كسروان واعادة حقوقهم في الممتلكات (٣٢) . ولم يحتو البيان على حلول لقضايا الادارة السياسية وظل طانيوس شاهين بعض الوقت على رأس الجهاز الاداري . وظلت المنطقة بضعة أشهر بعد توقيع

الاتفاقية لا تدفع الضرائب للاتراك . أما المشايخ فلم يستطيعوا تسليم ممتلكاتهم (٣٣) . ويبدو ان مختلف القرى كانت تسلم في أوقات مختلفة ، فقد اعترفت الزوق مثلا بسلطة القائمقام المؤقت يوسف كرم في تشرين الثاني ١٨٦٠ . أما قرى كسروان الشرقي فلم تعترف بها حتى بداية عام ١٨٦١ (٣٤) بيد أن مصير العصيان ككل كان قد تقرر .

الاحتلال الفرنسي للبنان

في الرابع من تموز عام ١٨٦٠ ظهرت في الصحافة الانباء الاولى عن الحوادث في سوريا ، وفي الخامس من تموز توجه وزير الخارجية الفرنسي توفمينل الى السفير الانكليزي في فرنسا اللورد كوفلي بتصريح يتضمن ضرورة التدخل في الشؤون السورية . وفي الثامن عشر من تموز ادلى القنصل الفرنسي في لندن الكونت بيرسيني الى اللورد راسيل برأي الحكومة الفرنسية حول حتمية ارسال جيوش أوربية الى سوريا . وكانت الحكومة الفرنسية تعتمد على أن الدول الأوروبية ليست مستعدة لارسال الجيوش ولهذا فهي ستمنح فرنسا حق احتلال سوريا بمفردها . وقد أجابت الحكومة الانكليزية في اليوم نفسه بأنها لا تستطيع أن تعارض الاحتلال الأوربي لسوريا ووافقت على ارسال أسطولها في البحر الابيض المتوسط لحراسة الساحل السوري . ولكن بشرط يقتضي بضرورة عقد مؤتمر دولي يحدد مواعيد وأهداف الحملة على سوريا .

وبعد ثلاثة أيام أي في الحادي والعشرين من تموز أعيد في طولون كل شتاء من أجل توجه الجيوش الفرنسية ولم يبق سوى صدور قرار الاجتماع الدولي المنعقد في باريس . وقد بذل المندوب التركي في هذا الاجتماع أقصى ما يمكن بذله من النشاط لكي يحول دون اصدار قرار باحتلال سوريا ولكن مندوبي فرنسا والنمسا وبريطانيا العظمى وبروسيا وروسيا وقعوا في الثالث من آب عام

١٨٦٠ بروتوكولا حول احتلال الجيوش الفرنسية لسوريا (٣٥) لمدة ستة أشهر .

ويقضي البروتوكول بأن تحافظ أساطيل الدول الأوروبية على النظام في الساحل السوري . وقد توجه الى سوريا جيش فرنسي لا يزيد عدد جنوده عن ستة آلاف جندي . ولكن الفرنسيين استطاعوا الحصول على السماح بمضاعفة هذا العدد في حالات الضرورة وبعد موافقة الدول الأوروبية . وكان على سكان سوريا تحمل كل مصاريف الاحتلال .

وفي السادس من آب بدأ ارسال الجيش الفرنسي الى سوريا بقيادة الجنرال بوفور دو تبول .

وكانت الحكومة التركية قد وجهت أثناء المفاوضات وزير الخارجية فؤاد باشا الى بيروت بمهمة مستعجلة ومنحته مطلق الصلاحيات . وفي السابع عشر من تموز وصل فؤاد باشا الى بيروت بصحبة فرقة تركية . وجمعت الجيوش التركية في سوريا بسرعة . واعتقل فؤاد باشا الكثيرين من الموظفين والضباط الاتراك ومن الارستقراطيين الاقطاعيين الدروز وسكان دمشق . وتبرع الباشا في طريقه بمبالغ كبيرة للمكوبين كما أخذ ينثر الوعود ذات اليمين وذات اليسار للاجئين المسيحيين (٣٦) ، وقد قام فؤاد باشا بمهمته خير قيام (بالنسبة لمصالح الحكومة التركية) . واستطاع أثناء المحاكمات أن يطمس جرائم الموظفين الاتراك في الحوادث السورية واللبنانية ، وأن يقضي على خطر تكرار هجمات الدروز في لبنان والمسلمين في دمشق وأن يحرم بهذا قيادة الجيش الفرنسي من الحجة التي تخول لها توسيع نطاق الاحتلال في سوريا .

وما أن وصل الجيش الفرنسي الى سوريا حتى كان الهدوء يعم كل مكان . وقد كتبت مجلة (تيتشتغني زابسكي) تقول : « لقد وجد الفرنسيون البلاد في وضع لا يستطيعون معه القيام بأي عمل ، وقد اكتسبت حملتهم نفسها طابع النزهة العسكرية العادية » (٣٧) احتلت الفصائل الفرنسية والتركية لبنان الاوسط

« The Times », 10, VIII, 1860.

« Souvenirs de Syrie... », pp. 193-208. (تيتشتغني زابسكي) .

B. Poujoulat, La vérité sur la Syrie..., p. 367,369.

D. Chevallier, Que possédait un cheikh maronite en - ٢٤

1859 ? Un document de la famille al-Khazen, pp. 74, 83.

والجنوبي ، دون أن يبدي الدروز أية مقاومة وقد اختبأ قسم كبير من الاقطاعيين الدروز في حوران .

وأخذ العملاء الفرنسيون ينشرون الاشاعات الاستفزازية في سوريا ، وتقوم الصحافة الفرنسية بتهويلها لايجاد ذريعة من أجل تهديد الاحتلال . وقد مدد الاحتلال فعلا لمدة ثلاثة اشهر . ولكن في حزيران من عام ١٨٦١ اضطرت فرنسا تحت ضغط انكلترا لاستدعاء جيوشها . ولن نتوقف هنا لنحكم على سلوك الجيش الفرنسي في سوريا ، بل نكتفي بالاشارة الى أن وجودهم هناك قد ساعد على انهيار النفوذ الفرنسي بين الجماهير الواسعة في هذه البلاد . وقد اضطر حتى اكابر الضباط الفرنسيين الى الاعتراف بهذا (٣٨) .

النظام الاساسي في لبنان

في خريف عام ١٨٦٠ بدأت في بيروت اجتماعات اللجنة الدولية التي شكلت من أجل بحث الحوادث في جبل لبنان ودمشق واعداد نظام اداري جديد للبنان . وفي عام ١٨٦١ أصدرت اللجنة بعد مداورات طويلة ما يسمى بـ « النظام الاساسي » في لبنان وهو يقضي بالغاء تقسيم البلاد الى قائمقاميتين . وقد عين الباب العالي حسب النظام الجديد حاكما مسيحيا واحدا لسائر لبنان ومنحه مطلقا صلاحيات السلطة التنفيذية . وكان على الحاكم الجديد أن يجبي الضرائب ويعين الموظفين ويقيم المحاكم ويدعو المجلس الاداري المركزي للاجتماع ويتراأس اجتماعاته ، ويتألف هذا المجلس من اثني عشر مندوبا عن الطوائف الدينية (مندوبان عن كل طائفة) (*) وهو يتمتع

٢٨ - « La vie militaire du général Ducrot d'après sa correspondance (1839-1871), publiée par ses enfants » t. 1. Paris, 1895, pp. 422, 423.

(*) ملاحظة من العرب : نص النظام الاساسي لجبل لبنان كما اصدره السلطان بعد مدة التجربة ١٨٦١ - ١٨٦٤ في المادة الثانية منه على ما يلي : « ينبغي ان يكون للجبل كله مجلس ادارة كبير مؤلف من اثني عشر عضوا : اثنين مارونيين ينوبان عن قائمقاميتي كسروان والبترون ، وثلاثة عن قائمقامية جزين ائدهم ماروني والثاني مسلم والثالث درزي ، واربعة عن قائمقامية المتن

بحق المناقشة فقط ، وكانت مهمته الاساسية هي توزيع الضرائب والاشراف على مداخل الادارة ومصاريفها . وقد قسم لبنان من الناحية الادارية على اساس الديانات الموجودة فيه الى خمس مديريات : ثلاث مارونية وواحدة درزية وواحدة أرثوذكسية . وعين الحاكم في المديريات (نوابا اداريين) وكانت كل مديرية تحتوي على مجلس اداري خاص بها . وكان يتراأس القرى شيوخ منتخبون من قبل الاهالي وحائزون على ثقة الحاكم . أما أعضاء المجالس فقد كان يعينهم زعيم الطائفة الدينية بعد موافقة الاقطاعيين المحليين . وهكذا أرسى رجال الدين دعائم نفوذهم في حياة لبنان السياسية .

وتنص المادة السادسة من القانون على : « المساواة بين الجميع أمام القانون ، والغاء كافة امتيازات الاقطاعيين ، وخاصة أصحاب المقاطعات منهم » . وبالرغم من أن الاقطاعيين اللبنانيين قد احتفظوا عمليا بجزء كبير من امتيازاتهم — اذ كان منهم القضاة ورؤساء النواحي والمديريات وأعضاء في المجالس الادارية — الا أن حقوق السيادة الاقطاعية قد تزعزعت أركانها ولم تتركز الى أسس متينة كالسابق .

اذهب من الموارنة والثاني من الروم والثالث من الدروز والرابع من المتأولة ، وعضو واحد درزي عن قائمقامية الشوف وآخر من الروم ، ينوب عن قائمقامية الكورة وآخر من الروم الكاثوليك عن مديرية زحلة » (عن كتاب لحد خاطر : عهد المتصرفين في لبنان — منشورات الجامعة اللبنانية) ولعل المؤلف عند اشارتها الى التوزيع الطائفي لأعضاء مجلس الادارة قد اعتمدت على اتفاق أولي بين ممثلي الدول وجدناه في « المحررات السياسية » التي عربها ونشرها فيليب وفريد الخازن — جويليه ١٩١٠ ، اعتبرت انه التوزيع النهائي باعتبار ان دراستها تتوقف عند ١٨٦١ . وبذلك يكون التوزيع : من الموارنة ، ٣ من الدروز ، ٢ من الروم ، ١ من المسلمين السنة ، ١ من المسلمين الشيعة ، و ١ من الروم الكاثوليك .

الخاتمة

ان استعراض تاريخ لبنان من الناحية الاقتصادية والاجتماعية والسياسية في غضون أكثر من نصف قرن يدل على ان هذه السنوات الخمسين كانت تتميز بالتطور السريع المتواتر في المجالين الاقتصادي والسياسي .

فقد شهد لبنان خلال هذه الفترة تفسخ النظام القطاعي تحت تأثير العلاقات البرجوازية الناشئة ، وأخذت الاسس الاقتصادية والاجتماعية فيه تتغير تغيرا ملحوظا ، مما أدى الى تدهور أوضاع الفلاحين المادية ومقاومتهم للتدابير المالية الجديدة مقاومة شديدة . وكانت العلاقات البرجوازية والسلعية — النقدية الآخذة في التطور تتناقض مع البنية الاجتماعية في البلاد حيث ينعدم التساوي بين مختلف فئات السكان ، وحيث يوجد حرمان الفلاحين وسكان المدن من حقوقهم ، وعدم صيانة أملاكهم وأرواحهم من تعسف الاقطاعيين ، ومن استعمال الاوساط القطاعية لامتيازاتها من أجل الاستيلاء على أراضي الفلاحين وفرض الرسوم والاتاوات التعسفية . ولهذا فقد كانت الحركة المناهضة للاقطاعية لا تقتصر على مقاومة الضرائب فقط ، (كما كان الامر سابقا) ، بل وتقاوم سلطة الاقطاعيين القضائية والادارية وتناضل من أجل المساواة في الحقوق بين جميع السكان ومن أجل حل المسألة الزراعية .

وكان التطور الاجتماعي — الاقتصادي في لبنان يؤدي الى تغير التركيب الطبقي للسكان ، والى ظهور فئة برجوازية جديدة تتألف من التجار المرابين وأصحاب الورشات الحرفية والمانيفاكتورات . وقد أخذت هذه الفئة الاجتماعية الجديدة التي تقوم مصلحتها في الحد من التعسف القطاعي بالتقدم لقيادة الحركة المناهضة للاقطاعية . وتغيرت خلال هذه الفترة لوحة تركيب السكان وتوزيعهم في لبنان : فحتى الربع الثاني من القرن التاسع عشر كان سكان جبل لبنان من الريفيين الموزعين في مقاطعات الاقطاعيين ، أما الآن فقد أخذت تنشأ القرى المهنية الضخمة ، الى جانب مدينتين يتألف سكانها من التجار المرابين والمهنيين الصناعيين الذين يتعلقون اقتصاديا بالاقطاعية ويتصفون بالتلاحم والتنظيم أكثر من الفلاحين وقد أصبحت المدن مركزا لمقاومة التعسف القطاعي .

وفي النصف الاول من القرن التاسع عشر تتعارض تغفل البلدان الاوربية الاقتصادية في البلاد وتدخلها في الحياة السياسية داخل لبنان . وأخذت البلدان الاجنبية تشق الطرق البحرية الى شواطئ لبنان ، وتأسست الشركات التجارية وأولى مصانع غزل الحرير ، وأول بنك في البلاد ، وشنق طريق دمشق — بيروت . وأخذت البلاد تستقبل الرحالة ورجال السياسة والصحفيين والضباط اوروبيين . وبدأ السكان يطلعون على أشكال الحياة الاجتماعية والافكار الجديدة في أوروبا خارقين بهذا عزلة لبنان وانغلاقه على نفسه . وهكذا تشكلت في البلاد تربة اجتماعية جديدة صالحة لتقبل الافكار البرجوازية ومهدت السبل لنفوذها الى لبنان .

ان أفكار الثورة البرجوازية الفرنسية وانتفاضة التحرر الوطني في اليونان قد أعطت أكلها أثناء عصيان عام ١٨٤٠ . وكان المتمردون يستشهدون في منشوراتهم بالعصيان اليوناني فقد كتبوا في منشور الثامن من حزيران عام ١٨٤٠ « ان اليونانيين قد ضربوا لنا مثلا » . كما كتب المتمردون عن عدالة النضال ضد الطغيان وفي سبيل الحرية . وبعد بضعة أعوام طالب اللبنانيون بالمساواة في الحقوق بين جميع السكان . وبتعبير آخر فان أفكار حركة التنوير بدأت تستولي على أذهان البرجوازية (بدليل نص المنشورات ونشاط المنظمات الثنويرية) ، وقد ساعد الهياج الذي انتشر بين فئات واسعة من الشعب اللبناني على نفوذ هذه الافكار الى الجماهير

(ويدل على هذا عرائض ما بين عامي ١٨٤١ - ١٨٤٤ وشكوى المتمردين في جبة - بشري) .

ان دراسة الحركة الفلاحية المعادية للاقطاعية خلال الفترة الواقعة ما بين ١٧٨٢ - ١٨٦٠ تتيح لنا أن نحدد منطق تطورها كالتالي :

ان حركتي عام ١٧٨٢ وعام ١٧٨٤ وعصيان عام ١٨٢٠ كانت لا تزال في طور التمردات الفلاحية التقليدية المقتصرة على مقاومة الضرائب بقيادة الاقطاعيين المستائين من الوضع لعدم تمشيه مع مصالحهم الخاصة .

ويعرف تاريخ الاقطاعية العديد من أمثال هذه التمردات . أما العصيان الذي جرى في أيار - حزيران عام ١٨٤٠ فقد كان نقطة تحول في تاريخ الحركة الشعبية في لبنان . ومع أنه لم يكن يحتوي على أي شيء جديد مبدئيا من حيث متطلبات القائمين به ، إلا أنه كان أوسع بما لا يقاس عن الحركات السابقة من حيث نطاقه الاجتماعي . فقد شاركت في قيادته عناصر برجوازية الى جانب الاقطاعيين ، ثم ان طلبات القائمين به كانت تستند الى مبادئ فكرية جديدة (كالنضال في سبيل الحرية ، والمطالبة بالعدالة ضد الظلم والطغيان) وبالرغم من أن قادة المتمردين لم يقدموا مناهج لتغييرات جديدة في المجال السياسي الا ان دعوتهم الى القضاء على الطغيان كانت تتضمن شجبا لنظام الحكم بمجمله ، الامر الذي أثر فكريا في مجرى الاحداث بعد ذلك .

ان مساهمة الفلاحين في طرد المصريين ، وتسليح الحكومة التركية لهم ، ثم تغير الوضع في لبنان واحتدام التناقضات الطبقيّة نتيجة لمحاولات الاقطاعيين الدروز استعادة حقوقهم وامتيازاتهم ، ان كل هذا أثار هياجا عميقا بين الفلاحين وسكان المدن في البلاد موجها لا ضد سياسة الاتراك في مجال الضرائب فقط بل وضد أطماع الاقطاعيين المحليين كذلك . فأخذ الفلاحون يعقدون الاجتماعات المحتشدة التي يعبرون فيها عن عدم رغبتهم في دفع أية ضرائب ويضعون البيانات التي تتضمن رفضهم للخضوع لسلطة الاقطاعيين القضائية والإدارية ، ويقتلون جبابة الريع .

ان الظروف الخاصة بالحياة اللبنانية وقبل كل شيء تركيب السكان الديني عملت على احتداد التناقضات بين الطائفتين الدينيتين : الدرزية والمارونية في فترة الازمة الاجتماعية الجديدة .

وساعدت العداوة الدينية على تعميق التناقضات الاجتماعية واتاحت لبعض الكتل الاجتماعية والسياسية استغلال هذه العداوة لاهداف سياسية .

ان المفزى والطابع الاجتماعي للصدامات الدرزية المارونية في أعوام ١٨٤١ و ١٨٤٥ و ١٨٦٠ لم يظلا على ما هما عليه . ففي عام ١٨٤١ حاول الاقطاعيون البادئون بالهجوم على الموارنة في المدينة والريف أن يوقفوا الهياج ضد الاقطاعية بقوة السلاح وأن يزبحوا بشـ مرقاسم الذي كان ينحو نحو مركز السلطة في السياسة الداخلية وأن يفتحوا المجال أمام نشاط الرجعية الاقطاعية . وفي عام ١٨٤٥ كانت الجماهير الشعبية المارونية بقيادة أعيان مدينة دير القمر المتأهبة للصدام تحاول أن تقضي على الرجعية الاقطاعية في فترة الصدامات .

وقد أنهكت الصدامات الدرزية المارونية في عام ١٨٤٥ قوى الجماهير الشعبية في لبنان الاوسط والجنوبي ، وأضعفت تنازلات شكيب أفندي حدة التناقضات القائمة في البلاد وأخذت حركة الفلاحين مؤقتا .

وفي نهاية السنوات الخمسين من القرن التاسع عشر انتقلت الحركة الى لبنان الشمالي حيث تطورت تطورا سريعا بفضل تجربة السنين السابقة ، وقد ابتدأ هذا التطور بالتعبير عن الاستياء من التعسف الاقطاعي وبالمطالبة بالمساواة وانتهى الى طرد الاسياد الاقطاعيين وتوزيع الارض . وقد تشكلت في كسروان جمهورية فلاحية تحققت فيها المثل العليا لدى الفلاحين اللبنانيين التي عبر عنها جزئيا في عام ١٨٤١ : فلم تعد الضرائب تجبى والفي الحق الاقطاعي في اقامة المحاكم ، وأصبح جميع السكان يتمتعون بحقوق متساوية وحلت المسألة الزراعية بالاستيلاء على أراضي الاقطاعيين وتوزيعها .

وكان يبدو كما لو أنه قد برزت امكانية انتشار العصيان في سائر لبنان . ولكن المقدمات الاجتماعية - الاقتصادية والسياسية اللازمة للتغييرات البرجوازية لم تكن متوفرة في البلاد . ولم تكن العناصر البرجوازية لتشكل طبقة بعد لانعدام التضامن الطبقي فيما بينها ومحدودية مصالحها . أما أعيان الريف الكسرواني شسبه البرجوازيين وشبه الاقطاعيين ، فقد ارتاحوا لتنحية الاقطاعيين السادة من الحكم ولكنهم لم يرضوا عن التدابير التي اتخذها طانيوس

شاهين وجماعته بصدد الارض وكانوا يستمعون للصالح مع السلطات مما أدى الى حصول الانشقاق في صفوف المتمردين . ولم تكن فئة الكومبرادور من تجار بيروت لتميل الى دعم العصيان دعما نشيطا بل كانت مستعدة لاستغلاله من أجل الحصول على تنازلات من جانب الحكومة التركية . ولم تكن التناقضات الطبقية في لبنان الاوسط والجنوبي لتتغلب على العداوة الدينية مما اتاح لمختلف القوى أن تستثير بمهارة الصدامات بين الدروز والموارنة في عام ١٨٦٠ ، وأن تستغلها كأداة لاختداد الحركة المعادية للاقطاعية .

كان كل هذا يعرض العصيان الكسرواني للفشل . وبالرغم من فشل الحركة الفلاحية فيما بين السنوات الاربعين والسنوات الخمسين فقد أدت الى نتائج هامة في حياة البلاد الاجتماعية والاقتصادية .

وفي فترة السنوات الستين والسبعين أصبح يلاحظ في البلاد توسع نطاق الملكية الفلاحية الصغيرة ونمو مصانع غزل الحرير نموًا كبيرًا وازدياد التباين في أوضاع الفلاحين الاجتماعية . وتوسع نطاق الهجرة ، وكان كل هذا يدل على نشاط عملية ولادة وتطور العلاقات الرأسمالية .

أما من حيث التنظيم السياسي فقد أدت الحوادث الى الاعتراف الرسمي بالحكم الذاتي في لبنان .

وأخيرا فإن الحركة المناوئة للاقطاعية في لبنان قد ساعدت على تطور الافكار الاجتماعية وعلى نمو حركة التنوير والنهضة الادبية .

صفحة

٣

التقديم

٧

المقدمة

الفصل الاول

تطور العلاقات السليعية - النقدية ونشوء عناصر الرأسمالية في الزراعة والصناعة

١٣

٢١

☐ الملكية الاقطاعية للارض

٤٢

☐ استثمار الفلاحين للارض

٤٩

☐ الضرائب والربح العقاري

٥٦

☐ وضع الفلاحين

الفصل الثاني

المقدمات السياسية لنهوض الحركة المناوئة للاقطاعية

٦٣

٧٢

☐ عصيان عام ١٨٤٠ في لبنان

٩٤

☐ اعادة الحكم التركي الى سوريا

٢٤٩

الفصل الثالث

الصدامات بين الدروز والموارنة عامي ١٨٤١ و ١٨٤٥ وجوهرها الاجتماعي

١٠٥

□ حول تاريخ القضية

١٠٥

□ الوضع السياسي في سوريا عام ١٨٤١

١١٦

□ لبنان قبيل الاصطدامات بين الدروز والموارنة في عام ١٨٤١

١١٩

□ الصدامات بين الدروز والموارنة في عام ١٨٤١

١٢٤

□ اصلاحات الحكم السياسي في لبنان

١٤٦

واستفحال امر الرجعية الاقطاعية

□ الصدامات بين الدروز والموارنة في عام ١٨٤٥

١٥٩

الفصل الرابع

الحركة الفلاحية في لبنان الشمالي خلال السنوات الخمسين من القرن التاسع عشر

١٧٧

□ تاريخ دراسة العصيان في كسروان

١٨١

□ قبيل العصيان

١٨٧

□ العصيان الكسرواني

١٩٢

□ تنظيم السلطة وتدابير المتبردين الاجتماعية

٢١٧

الفصل الخامس

الصدامات بين الدروز والموارنة عام ١٨٦٠

٢٢٩

□ الاحتلال الفرنسي للبنان

٢٢٠

□ النظام الاساسي في لبنان

٢٤٢

الخاتمة

٢٤٤

فهرست

٢٤٩

٢٥٠

جميع الحقوق محفوظة
لدار الفارابي — بيروت
ودار الجاهير — دمشق

من منشورات دار الفارابي

الرقم ق.ب	اسم المؤلف	اسم الكتاب
٥٠	جماعة من الاساتذة	تأزم الوضع التعليمي في لبنان
١٠	مجموعة من الاساتذة الثانويين	مفكرة وزارة التربية وعمل لجنة المناهج
٥٠	سلسلة محاضرات مبسطة	المسألة القومية في ضوء الماركسية اللينينية
٥٠	سلسلة محاضرات مبسطة	الحزب الشيوعي حزب الطبقة العاملة
٥٠		اناشيد ثورية
٥٠	شعر توفيق زياد	عمان في ايلول
٥٠	البحر فرحات	اضواء على التقارب الصيني الاميركي
٢٠٠	جميعها وقدم لها د. غريغوري شريباتوف	قصائد عربية عن لينين
١٥٠	بابلو نيرودا	تألق « جواكان موريتا » ومصرعه (مسرحة)
١٢٠٠	د. صفاء الحافظ	القطاع العام واغاق التطور الاشتراكي في العراق
٢٠٠	يساري لبناني	اليسار الحقيقي واليسار المغامر
٢٠٠	مجموعة مؤلفين	نظريات الرأسمالية الموجهة
٢٠٠	يوسف خطار الحلو	في الاقتصاد اللبناني

مطبعة الامسل
بيروت

كانون الاول ١٩٧٢

منشورات أخرى توزعها دار الفارابي

التمن ق.ل	الناشر	اسم الكتاب
٤٠٠	منشورات الحزب الشيوعي اللبناني	نضال الحزب الشيوعي اللبناني من خلال وثائقه (الجزء الاول)
٨٠٠	منشورات الحزب الشيوعي اللبناني	الشيوعيون اللبنانيون ومهام المرحلة المقبلة
١٠٠	منشورات الحزب الشيوعي اللبناني	مشروع موضوعات المؤتمر الثالث للحزب الشيوعي اللبناني
١٠٠	منشورات الحزب الشيوعي اللبناني	الموضوعات السياسية للمؤتمر الثالث
١٥٠	منشورات جريدة « النداء »	برنامج الحزب الشيوعي العراقي
١٨٠٠	منشورات دار النهضة — بغداد	سيرة حياة لينين
٣٠٠	منشورات دار النهضة — بغداد	في الشيوعية العلمية
٥٠٠	الدكتور سبيرو غاخوري	الولادة بلا ألم
٨٠٠	الدكتور سبيرو غاخوري	وسائل منع الحمل الحديثة
٣٠٠	عبد المتعم الغزالي	الشفيع احمد الشيخ والحركة النقابية والوطنية السودانية
٦٥٠	غواد قازان	لبنان في محيطه العربي (المجلد الاول)

العنوان : دار الفارابي للنشر والطبع والتوزيع
شارع بشارة الخوري — بناية سيتي سنتر
هاتف : ٢٥٥٤٩٢
ص.ب. : ٣١٨١

التمن ق.ل	اسم المؤلف	اسم الكتاب
١٠٠	لينين	التعايش السلمي
١٠٠	لينين	حول الايديولوجية والثقافة الاشتراكية
٢٥٠	لينين	تقرير عن السلام
٤٠٠	لجنة من العلماء والاختصاصيين	موسوعة بلاد السوفيات
١٥٠	ل. فوتيفا	صفحات من حياة لينين
٦٠٠	افاناسيف	اسس الفلسفة الماركسية
١٠٠	شيخنزاروف	اشتراكية ومساواة
٢٥٠	ف. زابيتشكوف	من تجربة نضال الحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي
٢٠٠	بوريس بوليفوي	قصة رجل حقيقي
٣٠٠	اناتولي ريباكوف	الخنجر (رواية)
٤٥٠	غالينا نيكولايفا	الحصاد (جزءان)
٢٥٠		اقوى من الماصفة
٢٥٠	نبيل سليمان	السجن (رواية)
٢٠٠		اوهانيس ثوماتيان (مختارات)
٤٥٠	ديبورين	الحرب العالمية الثانية (جزءان)

من منشورات دار الجماهير

٨٠٠	بدر الدين السباعي	■ الراسمال الاجنبي في سوريا
٢٥٠	ناظم حكمت	■ الناظرون الى النجوم
٢٥٠	جون لويس	■ الانسان والارتفاع
١٢٥	كولونتاى	■ التخطيط في البلدان النامية
٢٥٠	لينين	■ لينين والمرأة
٨٠٠	ف. كيللي و م. كوفالزون	■ المادية التاريخية
٦٠٠	جماعة من الاساتذة السوفيات	■ المادية الديالكتيكية
١٤٠٠	جماعة من الاساتذة السوفيات	■ موجز القاموس الاقتصادي
٣٠٥٠	جماعة من الاساتذة السوفيات	■ مجموعة الاقتصاد السياسي اربعة اجزاء (ستة كتب)
١٢٥	جماعة من الاساتذة السوفيات	■ الحساب الاقتصادي
١٨٠	» » » »	■ التوزيع والتراكم
٨٠	» » » »	■ عملية الانتاج
٨٠	» » » »	■ العلاقات السلمية
٦٠	» » » »	■ تخطيط الاقتصاد الوطني
٧٥	» » » »	■ ملكية وسائل الانتاج

العنوان :
دمشق - شارع التجهيز - بناية كردوس - هاتف ٢٢٤٥٩٣